اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية





العدد الرابع عشر- شتاء 2005

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

هيئة التحرير

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها: كالتوثيق..
- أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت – الجزائر العاصمة

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 25/24 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 3575– 1112

الإيداع القانوني: 02 7/20

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

د.مختار نويوات

نقدم العدد الرابع عشر إلى القارئ الكريم، مبرزين بطريقة، نرجو أن تكون مبسطة، مضامينة ومجمل مقاصده:

-مقالة تمهيدية لسلسلة من البحوث في علم اللسانيات خصصها صاحبها للمدرسة الوظيفية من خلال " مبادئ اللسانيات العامة : للعالم الفرنسي أندريه مارتيه، بهدف بسط محتواها وأبراز معالمها وطرا ئقها وأهدافها للقارئ العربي الذي لم يسعده الحظ على معرفتها في لغتها الأصلية.

-وحث للأساتذة ومحللي النصوص الأدبية على اجتناب الرتابة والنمط الواحد الجاهز المورث للعقم المحجر لفكر التلميذ وعلى النفوذ إلى ماجد في العالم التربوي من طرائق تناول النصوص وتعدد القراءات للنموذج الأدبي الواحد وعلى جعل المتعلم مبدعا دؤوبا في شحذ فكره لا مجرد متلق.

- واستنهاض للهمم وحض على العمل الجاد المستمر للحاق بالعالم المتحضر المبدع في جل ميادين الفكر والذي لم يترك لغيره سوى المعاناة الشديدة في وجود مقابل لمصطلحات وضعها بدون معاناة لأن بيده مقاليده في لا سيما العلوم الدقيقة والتجريبية وفي التكنولوجية، ويرى صاحب المقالة بحق أن العرب اليوم في وضعية لا يحسدون عليها ، وما رد ذلك، في ما أعرف، إلى أسباب تاريخية لا تخفى على أحد وإلى عوامل سياسية أورثت أوضاعا اقتصادية واجتماعية وثقافية مزرية،وإلى قلة التبصر وعدم الإكتراث بالإنتاج في حقول المعرفة الضامنة للتقدم الحضاري ، والدليل على ذلك أن العلوم العربية

الأصلية بقي الكثير من مصطلحاتها بلا مقابل في اللغات الأجنبية فاعتمدت كما هي مع تحريف تقتضيه طبيعة هذه اللغات.

– وأثر الترجمة في النهضة الفكرية العربية منذ القرن السادس عشر الميلادي وأهم أطوارها وأبرز معالمها في المشرق والمغرب، ودورها في إحياء التفتح على العالم الخارجي بالأخذ والعطاء، وفي مساعدتها على التطور مع المحافظة على أصالتها.

– وبحث في حركة الترجمة يتناول انعكاساتها على وضع اللغة العربية الحالي ، ويبين أهمية استيعاب الثقافات الأجنبية ونقلها، يعدد نقائص هذه الحركة وما تتعرض له من مثبطات بل وعراقيل متنوعة، وينعى ضحالة حركة النقل في العالم العربي لا سيما في ميادين العلوم والتكنولوجيا، ويقترح حلولا لتحسين الأوضاع ولجعل الترجمة أداة تقدم حقيقي.

– ودعوة ملحة للقارئ العربي واالناقد الأدبي المعاصر إلى توسيع مجاله المعرفي لفهم بعض النماذج الأدبية الحديثة التي تعتمد الأسطورة وعلم االأساطير عن بعض مفاهيمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وفي تجلياتها المختلفة وأخذها عن التراث البشري قديمه وحديثه.فلا تخلو أمة في العالم من أساطير فسرت بها في سالف عهودها حقائق تارخية أو علمية أو عقدية أو أخلاقية، ومن أدب رفيع نقلها إلينا فأفاد منها، في بعض آثارهم، عدد قليل من أدبائنا، متأثرين بالأدب الغربي المعاصر.

– وعرض لحياة الفقيد (أبو العيد دودو) ودوره القيم المثالي في ميدان التاريخ الجزائري من خلال آثاره القصصية ودراساته ومما نقل إلى العربية من كتب قيمة في هذا الميدان.

– وإشادة بمعجم "المبرق" أول قاموس موسوعي عرب مصطلحات الإعلام. حرز به مؤلفه من مجلس اللغة العربية، الجائزة الأولى، وتقدير للجهود

المضنية التي بدلها صاحبه في إنجازه، مع نقد خفيف أخوي نزيه لا يهدف إلا إلى خدمة العلم.

–وتعريف بحياة العلامة بن أبي حفص الزموري(نسبة إلى زمورة برج بوعريريج) وبأعماه العللمية الثراتية . والمقال عرفان وتعريف بعالم جزائري جليل قل من يعرفه.

– ودراسة لظاهرة "الإقاع " في اللغة العرببية شعرها ونثرها، منطوقة ومكتوبة، ولأثر هذا الإقاع في الأداء وفي الفن. ورأى أن هذا الميدان واسع لم يبلغنا منه إلا القليل لأن العربية لم نعرفها في الحقيقة إلا مكتوبة، والكتابة رمز باهث لا يمثل المنطوق إلا من بعيد.و لفظ اللسان دالا على اللغة خير متال لما نريد إثباته.و"اللغة" من "لغا الصبي" تكلم،ونرجو أن يشفع هذا المقال القيم ببحوث أخرى مماثلة أو مقاربة.

– وبحث في الجملة الشرطية العربية وصلتها بالآلسنة الحديثة. ومثل هذه المواضيع ثرى لا سيما إذا كانت المقارنة قائمة على أمثلة عديدة دالة.

المدرسة الوظيفية الفرنسية
والتراث النحوي العربي
-مقاربة لسانية في ضوء كتاب (مبادىء اللسانيات العامة) لمارتينه-

أ.سليمان بن علي

جامعة الأغواط

تمثل الدراسة التقابلية* بين لغتين منطلقا هاما في تعلمهما أو تعليمهما، وذلك لأنها تتناول أوجه الشبه والاختلاف بينهما على جميع المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية، ومن ثم يرتكز اهتمام المختصين بتعليمية اللغات على ما تشابه بين اللغتين لتسهيل عملية تعليم إحداهما وتعلمها، انطلاقا مما هو مكافئ للغة الأم للمتعلم، يقول أحد الدارسين : « إذا كانت المقارنة بين اللغات المشتركة في الأصل أو العائلة تفسر لنا كثيرا من

---

* يُعنَى المنهج التقابلي Contrastive Method بالتقابل بين لغتين أو لهجتين ليستا من أرومة واحدة أو أصل واحد، كالمقابلة بين العربية والفرنسية أو بينها وبين الإنجليزية، لأنه إذا كانت المقارنة بين لغتين من أرومة واحدة كالعربية والعبرية – وهما من الأصل السامي – فهذا يدخل في مجال علم اللغة المقارن، وتكون الدراسة بينهما دراسة مقارنة لا تقابلية . انظر في هذا الشأن : أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي . دار المعرفة الجامعية .2002. ص 20، و 45 وما بعدها .

الظواهر اللغوية التي يصعب تفسيرها لولا هذه المقارنة، فإن التقابل بين لغتين ليستا من أرومة واحدة يساعد الإنسان كثيرا في تعلم لغة ليست هي لغته الأم؛ لأن التقابل سوف يكشف له عن وجوه التشابه بين اللغات »[1] .
ولن يكون هذا التقابل إلا بعد أن يتناول الدارسون كلا من اللغتين تناولا تحليليا من خلال نظرية لغوية معينة، وهذا هو الجانب التطبيقي لعلم اللغة التقابلي، إذ من خلال هذا التقابل لا يجد المتعلمون أو المعلمون صعوبة في اكتساب أو تعليم الظواهر اللغوية المتشابهة، وبذلك تساهم الدراسة التقابلية في تأليف الكتب المدرسية بناء على نتائج تلك المقابلة، كما تمكننا من التنبؤ بالأخطاء التي سيقع فيها المتعلمون عند تعلمهم للغة المقابلة بلغتهم، ولذلك كله ارتأى المهتمون بتعليمية اللغات أن تسبق الدراسة التقابلية عملية تدريس أي لغة، لأن اللغة الأم للمتعلم تفرض نفسها على اللغة الثانية التي يتعلمها، خاصة إذا بدأ يتعلمها بعد مرحلة الطفولة، حيث يكون قد كون عادات لغوية متأصلة، هي لغته الأم، ومن الصعب والحالة هاته أن لا تؤثر هذه العادات على عادات اللغة التي يريد أن يكتسبها[2] .

ومن هنا فإن ما سنقرره في هذه الدراسة لا يقف عند حدود المقاربة بين ما خلفه قدماؤنا في دراساتهم للغة العربية، وما كونوه من رصيد معرفي حول نظامها وخصائصه، وبين ما وصل إليه بعض علماء اللسان في العصر الحديث على اختلاف مذاهبهم ودراساتهم للغاتهم، ونخص بالذكر اللساني المعروف صاحب المدرسة الوظيفية الفرنسية أندريه مارتينيه، بل إن دراستنا هاته ستساعد على بيان ما يمكن ملاحظته من توافق بين ما أرساه علماء العربية من قواعد وما توصل إليه هذا اللساني في وصفه للغة

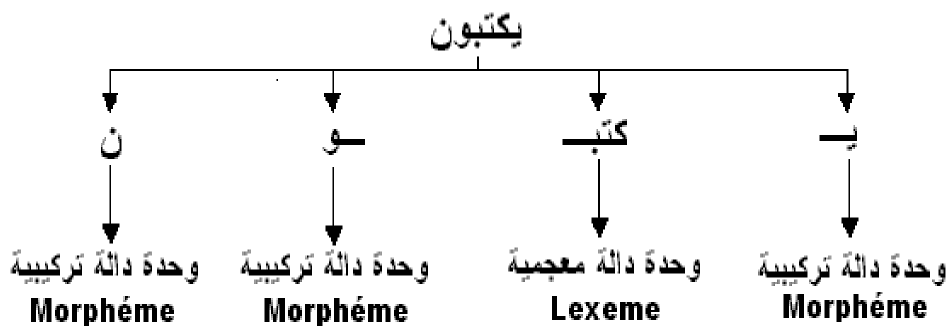
الفرنسية وغيرها من اللغات . وليس معنى هذه المقاربة أيضا أننا نريد أن نرجع كل ما سنجده من تشابه بين فكر الرجل وفكر من تقدمه من علماء العربية إلى التأثر أو الأخذ المباشر، كما فعل ويفعل بعض الدارسين، وإنما سنحاول في ضوء هذه المقاربة أن نؤكد أن بين اللغتين العربية والفرنسية – بل وبين كثير من لغات العالم – قدرا مشتركا من الظواهر التي يمكن اعتمادها تعليميا، وهذا وإن كان شيئا معروفا، فإننا سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على بعض المسائل والمفاهيم الدقيقة التي نجد لها صدى في اللغتين، من خلال ما قدمه قدماؤنا وما قدمته المدرسة الوظيفية الفرنسية ممثلة في أعمال أندريه مارتينه في كتابه (مبادئ اللسانيات العامة) على وجه الخصوص . كما سنحاول أن نقف على الفروق التحليلية بين اللغتين في ضوء خصائص كل منهما .

تعتبر المدرسة الوظيفية الفرنسية التي يتزعمها اللساني المشهور أندريه مارتينيه من أهم المدارس اللسانية الحديثة التي بحثت في دراسة اللغة في جميع مستوياتها، وفق مبادئ معينة تبناها هذا اللساني ومن أخذ بنهجه في دراسة اللغة، وقد كان كتابه (مبادئ اللسانيات العامة) – كما يذكر مترجمه إلى العربية – مدخلا إلى اللسانيات العامة بصيغة مكثفة، وهو في الأصل عبارة عن سلسلة محاضرات قرأها المؤلف على طلابه في جامعة السوربون، ويتضمن تعريفا باللسانيات وبعلم اللسان وباللغات، ويقدم أيضا وصفا للغات ولتحليلها الصوتي، بالإضافة إلى الوحدات الدالة (الحاملة للمعاني)، وكذلك بحث المؤلف في تعدد الأنماط والاستعمالات اللغوية، كما عالج تطور اللغات[3] .

ولعل أهم ما يطالعنا في هذا الكتاب مصطلح (التقطيع المزدوج للغة)، حيث يرى مارتينيه أن هذا المفهوم موجود في جميع اللغات التي تمت دراستنا إلى يومنا هذا *، وأنه يتم على مستويين مختلفين : فكل وحدة تنتج عن تقطيع أولي تنقسم بدورها إلى وحدات من نوع آخر، وقد أورد لذلك مثالا دقيقا يمكننا أن نختصره بالقول : إن جملة : أشكو صداعا J'ai mal a la tête (عندي ألم في رأسي)، تتألف من ست (06) وحدات هي : J' – ai – mal – a – la – tête ، وهذا هو التقطيع الأولي الذي يمثل الطريقة التي يمكن بها تصنيف الخبرة المشتركة بين كل أجزاء المجموعة اللغوية الواحدة . ويلاحظ على هذه الوحدات أن كل واحدة منها تحمل معنى وصيغة صوتية، وهي لا تقبل التجزئة إلى وحدات أصغر تحمل معنى معينا، فالتجمع (tête) مثلا لا يمكن أن يؤدي معنى tête (رأس) إذا جزئ إلى (tê) و(te)، ولكن الصيغة الصوتية تقبل التجزئة إلى سلسلة من الوحدات الأخرى التي تساهم كل منها في تمييز كلمة (tête) عن كلمات أخرى كـ (bête) أو (terre)، وهذا التقطيع هو التقطيع الثانوي للغة، فكلمة (tête) مثلا تشتمل على ثلاث (03) وحدات هي : t e t (/ tet /)[4] .

* يقول في ص17 من كتابه المذكور : « Le type d'organisation que nous venons d'esquisser existe dans toutes les langues décrites jusqu'à ce jour . Il semble s'imposer aux communautés humaines comme le mieux adapté aux besoins et aux ressources de l'homme. » ويعني بذلك ما يوفره التقطيعان من جهد لإعطاء قدر كبير من المعلومات رغم محدودية الوحدات، وهو ما يعبَّر عنه بالاقتصاد اللغوي .

والملاحظة التي يجب أن نسجلها هنا هي أن التقطيع الأولي تتمتع وحداته بالدلالة، سواء كانت هذه الدلالة معجمية أم تركيبية، والمقصود بالتركيبية هنا الوحدات التي لا تمتلك معنى معجميا، وإنما تمتلك معنى من خلال وجودها في التركيب (كوحدات صرفية أو نحوية)، وهي ما يصطلح عليه بـ (المورفيم Morphème) في مقابل (اللكسيم Lexème) وهي الوحدة الدالة المعجمية(أو الإفرادية)، والوحدتان تنطويان معا تحت ما يسمى بـ (المونيم Monème)[5]، ويمكن التمثيل لذلك في العربية بنحو : **يكتبون**، التي تتكون من وحدة دالة معجمية، وثلاث وحدات دالة تركيبية، وهو ما يبيّنه الشكل التالي:



وكل وحدة من هذه الوحدات تتألف بدورها من وحدات التقطيع الثانوي التي يسميها مارتينيه (وحدات صوتية phonèmes)[6] .

ويمكن التمثيل للوحدات الدالة في الفرنسية بـ (**Nous mangeons**)، حيث (**Nous**)، و(**ons**) وحدتان دالتان تركيبيتان – تمثلان دالا منقطعا

كما سنرى فيما بعد – تدلان على المتكلم الجمع، و(**mange**) هي الوحدة الدالة المعجمية .

وقد ارتضى مارتينيه للوحدة الدالة المعجمية (Lexème) هذه التسمية، بعد أن درج علماء اللغة على تسميتها وحدة المعنى (sémantème)، لأنه رأى في تسميتهم تلك إيحاء بأن وحدة المعنى هي التي تحمل المعنى دون وحدة النحو أو الوحدة التركيبية، وأن ذلك يخالف واقع الحال[(6)] . فالوحدات النحوية أو التركيبية تحمل معنى أيضا، ولكنه ليس بالمعنى الذي نجده في معاجم اللغة، وإنما هو المعنى الذي نجده في التركيب، وهذا ما عبر عنه قدماء النحاة العرب في تعريفهم للحرف مثلا بأنه « ما دل على معنى في غيره فقط »[7] لا في نفسه كما هو الحال في أغلب الأسماء والأفعال .

وإذا ما سبرنا أغوار تراثنا النحوي بحثا عن مثل هذه الأفكار، لا لجعلها في كفة الميزان مع ما وصل إليه علم اللسان في العصر الحديث بكشفه عن مثل هذه المفاهيم والطرائق في التحليل اللغوي – وسنكتفي هنا بالتقطيع الأولي – بل لتأصيل مثل هذا التحليل للغة العربية مع مراعاة ما هو متشابه وما هو مختلف، فإن أول ما يطالعنا في هذا الصدد تعريف القدماء من علماء العربية للكلمة بأنها « اللفظة[*] الدالة على **معنى مفرد** بالوضع »[8]، وعلى ما للمصطلحات الواردة في هذا التعريف من أهمية، إلا أن ما يهم دراستنا هنا على وجه الخصوص ما جاء فيه من قولهم (معنى

---

[*] لاحظ أن هناك فرقا بين (الكلمة) و(اللفظة) . وهو ما سنورده في نص لابن يعيش من شرحه على المفصل .

مفرد) ، وقد شرح ابن هشام هذا القيد بقوله : « والمراد بالمفرد ما لا يدل جزؤه على جزء معناه، وذلك نحو : زيد ، فإن أجزاءه ، وهي الزاي والياء والدال، إذا أفردت لا تدل على شيء مما يدل هو عليه بخلاف قولك : غلام زيد ، فإن كلا من جزئيه، وهما : الغلام، وزيد، دال على جزء معناه، فهذا يسمى مركبا لا مفردا »[9]، فالكلمة بهذا الاعتبار لا يجوز أن تدل على معنى مركب بحسب ما تركبت منه في اللفظ[**]، وعلى هذا الحد أورد رضي الدين الاستراباذي اعتراضا دقيقا يدل على وعيه بتلك الأفكار التي رأيناها عند مارتينيه، وأجاب عنه إجابة دقيقة أيضا، تنبئ عن مدى وعيه المبكر كذلك بخصائص الوحدات الدالة في العربية وعلاقة ذلك بالمعنى، وسنورد فيما يلي نصا مطولا له – هو من أدق ما وجدنا في هذا الشأن – ثم نعقبه بشرح لأهم محطاته، مع تحليل ما يمكن تحليله من أمثلته، يقول الرضي : « إن قيل : إن في قولك : مسلمان، ومسلمون، وبصري، وجميع الأفعال، جزء لفظ كل واحد منها يدل على جزء معناه، إذ الواو تدل على الجمعية، والألف على التثنية، والياء على النسبة، وحروف المضارعة على معنى في المضارع وعلى حال الفاعل أيضا، وكذا تاء التأنيث في (قائمة)، والتنوين، ولام التعريف، وألفا التأنيث، فيجب أن يكون **لفظ** كل واحد منها مركبا، وكذا **المعنى، فلا يكون كلمة بل كلمتين** . فالجواب : إن جميع ما ذكرت كلمتان صارتا من شدة الامتزاج ككلمة واحدة، فأُعرب المركب إعراب

[**] إنما ذكرنا هذا القيد لأن هناك كلمات على الرغم من تركبها من كلمتين إلا أنها باعتبار المعنى تكون مفردة لا مركبة، لأنها دلت على معنى مفرد . وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله .

الكلمة، **وذلك لعدم استقلال الحروف المتصلة في الكلم المذكورة**، وكذلك الحركات الإعرابية ... أما الفعل الماضي نحو : ضرب، ففيه نظر، لأنه كلمة بلا خلاف مع أن الحدث مدلول حروفه المرتبة، والإخبار عن حصول ذلك الحدث في الزمن الماضي مدلول وزنه الطارئ على حروفه، والوزن جزء اللفظ، إذ هو عبارة عن عدد الحروف مع مجموع الحركات والسكنات الموضوعة وضعا معينا، والحركات مما يتلفظ به، فهو إذن كلمة مركبة من جزأين يدل كل واحد منهما على جزء معناه، وكذا نحو أُسد في جمع أَسد، وكذا المصغر، ونحو : رجال، ومساجد، ونحو : ضارب، ومضروب، ومضرب، لأن الدال على معنى التصغير، والجمع، والفاعل، والمفعول، والآلة في الأمثلة المذكورة الحركات الطارئة مع الحرف الزائد، ولا يصح أن ندعي ههنا أن الوزن الطارئ كلمة صارت بالتركيب كجزء كلمة كما ادعينا في الكلم المتقدمة، وكما يصح أن يدعى في الحركات الإعرابية . فالاعتراض بهذه الكلم اعتراض وارد*** إلا أن نقيد تفسير اللفظ المركب فنقول : هو ما يدل جزؤه على جزء معناه، واحد الجزأين **متعقب** للآخر، وفي هذه الكلمة المذكورة الجزآن مسموعان معا»[10] .

إن هذا النص الدقيق يضع بين أيدينا الحقائق التالية :

1– إن كل من (مسلمان، ومسلمون، وبصري، وجميع الأفعال المضارعة، والنسب، وقائمة، وكتابٌ – بالتنوين – والكتاب، وصحراء،

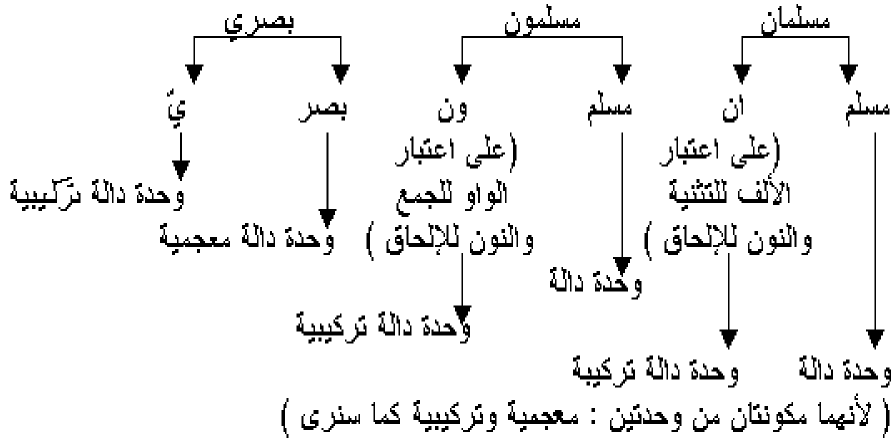
*** وهو ما ذكره الجمهور فعلا، فقد جاء عن التهانوي قوله : « واعتذر الجمهور عنه بأن المراد بالأجزاء: ألفاظ، أو حروف، أو مقاطع مسموعة مترتبة متقدمة بعضها على بعض. والمادة مع الهيئة ليست كذلك » كشاف اصطلاحات الفنون 416/3 .

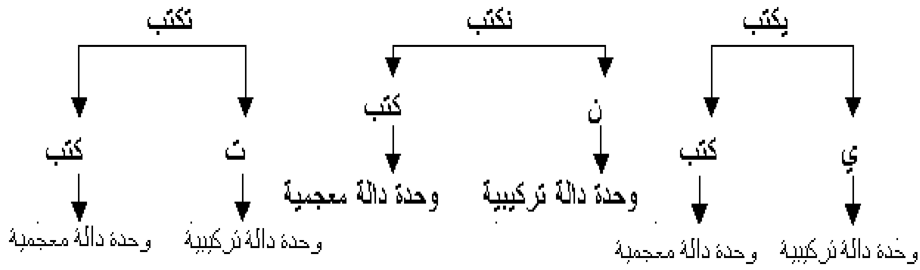
وحبلى) كلمتان لا كلمة واحد، وذلك لأن كل جزء منها دل على جزء المعنى، فمسلمان ومسلمون دل جزآهما على شخص ينتمي إلى الدين الإسلامي (وهذا جزء من المعنى)، ودل جزآهما الآخران على المثنى في اللفظة الأولى ، وعلى الجمع في اللفظة الثانية (وهذا هو الجزء الثاني من المعنى) ، وما قيل عن هاتين اللفظتين يقال عن باقي الأمثلة ، فبصري دلت على المحل (البصرة)، ودلت على انتساب الشخص إليها (ياء النسب) ، والأفعال المضارعة كـ (يكتب ، ونكتب ، وتكتب)، دل كل منها على الحدث (الذي هو الكتابة) ، وعلى الزمن (بالصيغة) ، وعلى حال الفاعل (الياء في (يكتب) دلت على أن الفاعل غائب مفرد ، والنون في نكتب دلت على أن الفاعل جماعة المتكلمين ، والتاء في تكتب على أنه إما مخاطب مفرد، أو غائب مؤنث)[*]، وكذلك التاء في (قائمة) دلت على أن المتصف بهذا الحدث (الذي هو القيام) مؤنث، وهو جزء من المعنى في (قائمة) يكمل الجزء الآخر الذي هو الاتصاف بالقيام، كما يدل التنوين على التذكير، واللام على التعريف، وهما معا جزآن من المعنى، لا المعنى كله، ونفس الشيء يقال عن ألفي التأنيث في صحراء وحبلى .

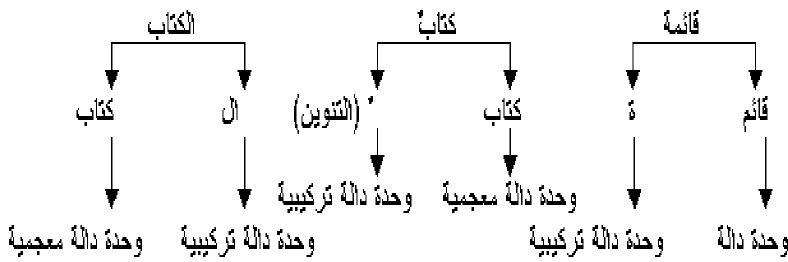
ويمكننا أن نلخص هذا التحليل الذي ذكره الرضي في الأشكال التالية :

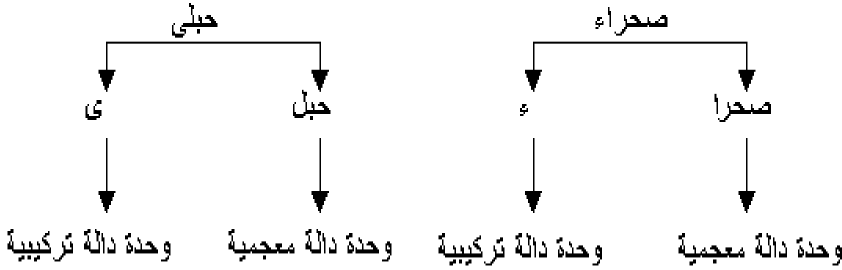
---

[*] يقول ابن جني في هذا المعنى – وذلك عند حديثه عن عناية العرب بالمعنى – : « ويدلك على تمكن المعنى في أنفسهم وتقدمه للفظ عندهم تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة، وذلك لقوة العناية به فقدموا دليله ليكون ذلك أمارة لتمكنه عندهم .
وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل إذ كن دلائل على الفاعلين من هم وما هم وكم عدتهم، نحو (أفعل) و(نفعل) و(تفعل) و(يفعل) » الخصائص 224/1–225 .


مسلمان
مسلم
ان
(على اعتبار
الألف للتثنية
والنون للإلحاق)
وحدة دالة
وحدة دالة تركيبية
(لأنهما مكونتان من وحدتين : معجمية وتركيبية كما سنرى)
مسلمون
مسلم
ون
(على اعتبار
الواو للجمع
والنون للإلحاق)
وحدة دالة
وحدة دالة تركيبية
بصري
بصر
يّ
وحدة دالة معجمية
وحدة دالة تركيبية


يكتب
ي
كتب
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية
نكتب
ن
كتب
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية
تكتب
ت
كتب
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية


قائمة
قائم
ة
وحدة دالة
وحدة دالة تركيبية
كتابٌ
كتاب
ٌ (التنوين)
وحدة دالة معجمية
وحدة دالة تركيبية
الكتاب
ال
كتاب
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية



هذه هي الوحدات – وهي وحدات التقطيع الأولي كما مر معنا – حسبما حددها الرضي دون أن يسميها طبعا بما سماها به مارتينيه في هذا التحليل، فقد جعلها الرضي كلها كلمات، ولكنه فرق بينها من جهة قابلية الاستقلال وعدمه، وهذا هو الفرق بصفة عامة بين الوحدات الدالة المعجمية والتركيبية .

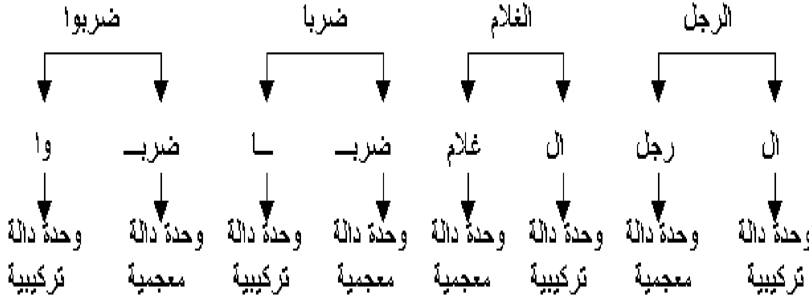
وتجدر الإشارة هنا إلى أننا اعتبرنا الهمزة في (صحراء)، أثناء التحليل، هي الدالة على التأنيث دون الألف لقول ابن جني – عند شرحه لجعل المازني الهمزة للتأنيث – : « وقوله : (وهمزة التأنيث)، اعلمْ أنه قد صرّح في هذا الموضع بأن علامة التأنيث هي الهمزة في الحقيقة وهو الصواب، وليس كما يقول من يزعم أن المَدّة علامة التأنيث؛ لأن هذا كلام غير محصّل؛ وذلك أن المدّة إنما هي الألف التي قبل الهمزة وعلامة التأنيث لا تكون في وسط الكلمة، إنما تكون آخرها، نحو : حَمْدة وحبلى . فإن قيل : ما تنكر أن تكون الألف والهمزة جميعا علامة التأنيث كما تقول : إن الياءين في نحو : زيديّ وبكريّ علامة النسب ؟ قيل : هذا ممتنع، لأنا لم نر علامة تأنيث غير هذه تكون على حرفين، إنما هي حرف واحد، نحو

الهاء في (طلحة) والألف في (حبلى) . فإن قيل : فإن سيبويه يقول في مواضع من الكتاب : فَعَلْتَ بألفي التأنيث، وصنعت بهما، يعني هذه الألف والهمزة ؟ قيل : إنما قال هذا لأن هذه الهمزة لما كانت لا تنفك من كون هذه الألف قبلها وهي مصاحبة لها وغير مفارقة أطلق هذا اللفظ عليهما تجَوُّزا .

ويدل على أن الهمزة وحدها علم التأنيث أنك إذا جمعت مثل (صحراء وخنفساء) بالألف والتاء، فإنما تُغيِّر الهمزة وحدها وتدع الألف بحالها، وذلك قولهم : (صحراوات وخنفساوات) فقلبك الهمزة في هذا الجمع نظير حذف التاء في (طلحات)؛ لئلا يجتمع في الكلمة علامتا تأنيث . ولو كانت الألف قبلها داخلة معها في أنها علامة تأنيث لوجب تغييرها في الجمع كما وجب تغيير الهمزة لما كانت علامة تأنيث، فتركهم الألف بحالها، وتغييرهم الهمزة، دلالة على أن الهمزة وحدها علامة التأنيث »[11] .

ولم يكن الرضي وحده مِن القدماء مَن أشار إلى هذا الفهم، إذ نجد ابن يعيش يشير بدقة وإيجاز إلى ذلك قائلا في شرحه لتعريف الزمخشري للكلمة بأنها (اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع) : « ... وقوله : (مفرد)، فصل ثان فصله من المركّب، نحو (الرجل) و(الغلام)، ونحوهما مما هو معرَّف بالألف واللام، فإنه يدل على معنيين : التعريف، والمعرَّف، وهو من جهة النطق لفظة واحدة، وكلمتان، إذ كان مركّبا من الألف واللام الدالة على التعريف، وهي كلمة، لأنها حرف معنى، والمعرَّف كلمة أخرى، واعتبار ذلك أن يدل مجموع اللفظ على معنى، ولا يدل جزؤه على شيء من معناه، ولا على غيره من حيث هو جزء له، وذلك نحو قولك:

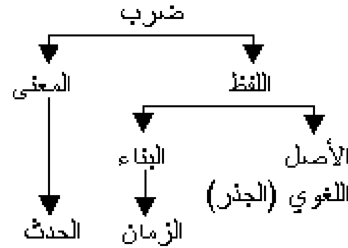
(زيد)، فهذا اللفظ يدل على المسمّى، ولو أفردتَ حرفا من هذا اللفظ، أو حرفين، نحو الزاي مثلا، لم يدل على معنى البتة، بخلاف ما تقدم من المركب، من نحو (الغلام)، فإنك لو أفردت اللام لدلّت على التعريف، إذ كانت أداة له، كالكاف في (كزيد)، والباء في (بزيد)، ومن ذلك (ضربا)، و(ضربوا) ونحوهما، فإن كل واحد من ذلك **لفظة**، وفي الحكم **كلمتان**؛ الفعل كلمة، والألف والواو كلمة، لأنها تفيد المسند إليه، فلو سمّيت بـ (ضربا) و (ضربوا) كان كلمة واحدة، لأنك لو أفردت الألف والواو، لم تدل على جزء من المسمى، كما كانت قبل التسمية »[12] . وهكذا يمكننا أن نحلل ما أعطاه من أمثلة على المنهاج السابق كما يلي :



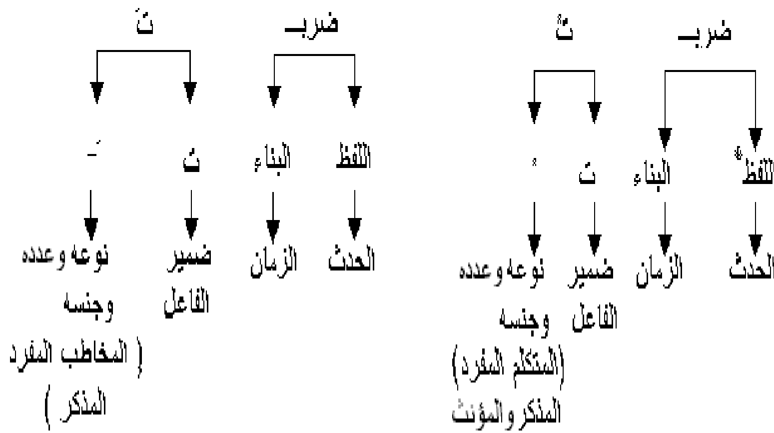
وسنتناول بالتحليل الفرق بين (ضربا) و(ضربوا) ككلمتين مفردتين أومركبتين عند الحديث عن الكلمة المفردة والمركبة .

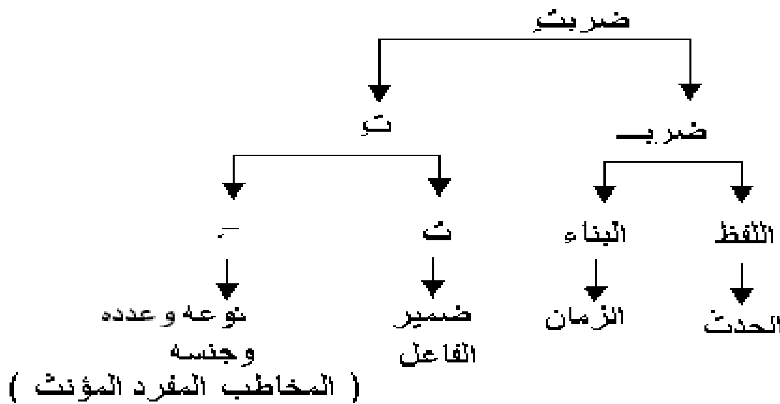
2- تفطن الرضي إلى أن العلامات الإعرابية هي في حقيقة أمرها وحدات دالة تركيبية (نحوية)، لأنها تدل على جزء المعنى، فنحن حينما

نعرب (محمد) في الجملة : جاء محمدٌ، فاعلا، نكون قد أضفنا معنى جديدا إلى المعنى المعجمي لكلمة (محمد) وهي خارج السياق، وهذا المعنى هو معنى الفاعلية في التركيب، ومثله دلالة النصب على المفعول، والجر على الإضافة في مثل : ضربت محمداً، وكتاب محمدٍ . كما أن الحركات المختلفة التي تأتي مع (ت) ضمير الفاعل المتصل بالفعل، تدل على نوعه وجنسه، فالضمة في (ضربتُ) – وهي ليست حركة إعراب – تدل على أن الفاعل هو المتكلم المفرد، المذكر أو المؤنث، والفتحة في (ضربتَ) تدل على أن الفاعل هو المخاطب المفرد المذكر، والكسرة في (ضربتِ) تدل على أنه المخاطب المفرد المؤنث . ويمكن تمثيل ذلك تحليليا كما يلي



* إنما جعلنا اللفظ في هذا التحليل قسيما للبناء جريا على كلام ابن جني الذي سنورده بعد قليل، وإن كان الرضي يجعل البناء جزءا من اللفظ،وهذا الاختيار الذي اخترناه يعطي للتحليل مرونة وسهولة أكثر. ويمكن تحليل واحد من أمثلة الرضي – كما أرادها – على النحو التالي :





3- لم يعتبر الرضي الوزن (أو الصيغة بتعبير أدق) وحدة دالة تركيبية كما هو الشأن في أحرف المضارعة أو حركات الإعراب أو غيرها من الوحدات التركيبية التي ذكرها، لأن الوزن كما يرى جزء من اللفظ، وليس كلمة صارت بالتركيب كجزء كلمة، إذ هو منصهر (أو مندمج) مع الكلمة بحيث لا نستطيع فصله – خطيا – عنها، وهو ما يسميه مارتينيه

بالاندماج، وقد جعل هذا الاندماج من بين الصعوبات التي تعترض المحلل اللساني، إذ لا يسمح له مثل هذا الاندماج بتعيين كل دال على حدة، يقول في معرض حديثه عن تجزيء الأقوال : « يجب أن نشير منذ البدء أن هذه العملية قد لا تنجح دائما على الحد المطلوب، وذلك لأن الوحدات الدالة هي وحدات ذات وجهين : وجه مدلول، ووجه دال يمثل الصورة الظاهرة، وحتى يظهر المدلول يجب أن يكون القول مختلفا صوتيا عنه فيما لو كان بدون المدلول الذي يطابقه . غير أنه من الممكن أن يتداخل دالان لمدلولين مختلفين فيتشابكان تشابكا لا نستطيع في ضوئه أن نجزئهما إلى **قطع متتالية** »[13]، ولذلك اعتبر الرضي الحركة والحرف الزائد دالين على جزء المعنى ذاك، كصفة الفاعلية في نحو : ضارب، والمفعولية في نحو : مضروب، والجمع في مثل : مساجد، ورجال، وأُسد، ومن ثم رأيناه يحترس لتعريف المركب بأنه « ما يدل جزؤه على جزء معناه، واحد الجزأين **متعقب للآخر** »، لأن الكلمات السابقة اندمج فيها الجزآن في النطق والسمع، وليس أحدهما متعقبا للآخر حتى يسهل تقطيعهما وتعيين أحدهما من الآخر .

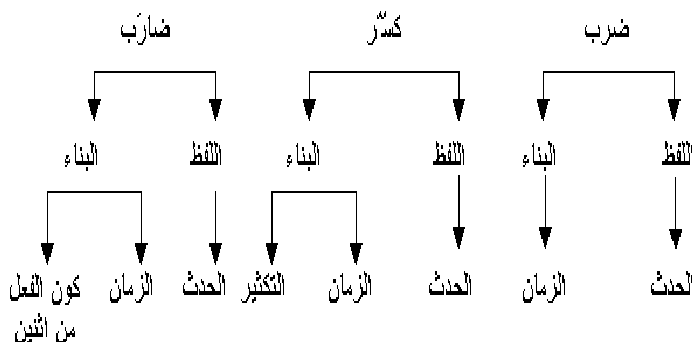
وبهذا المعنى جعلنا في تحليلنا للألفاظ السابقة (مسلم) من (مسلمان) وحدة دالة، لأنها تشتمل على وحدة دالة مندمجة من وحدة دالة معجمية (سلم) ووحدة دالة تركيبية دالة على صفة الفاعل، ونستطيع بمفهوم الرضي أن نجعلها (الميم المضمومة، وباقي الحركات الطارئة)، ونفس الشيء ينطبق على (ضارب) و(وضروب) و(مضرب) و(مساجد) و(رجال) و(أُسد) – جمع أسد – وغيرها من الألفاظ التي اندمج فيها الوحدتان أو الوحدات . ويتخرج على هذا أيضا ما ذكرناه في

التحليل السابق لـ (قائم) من (قائمة) . إذ لا يمكنا تقطيع مثل هذه الوحدات إلى وحدات دالة معجمية وأخرى تركيبية لشدة امتزاجهما في صيغة لفظية واحدة، وهذا ما يقارب ما ذكره مارتينيه عن (à) و (le) في الفرنسية في مثل: il est à paris و le chapeau، وعنهما إذا التقيا في موقع واحد من الكلام وكانا متبوعين بحرف صامت، حيث يأخذان معا في هذه الحالة دالا واحدا غير قابل للتجزيء، وهو (au) في مثل : il va au marché [14]، أي أننا في هذه الحالة لا يمكننا أن نحدد ما الذي يدل على الظرفية وما الذي يدل على التعريف .

والمثال الآخر الذي أورده الرضي – وقد أرجأناه إلى آخر هذه النقطة لارتباطه بظاهرة مهمة في اللغتين العربية والفرنسية – هو الفعل الماضي (ضرب)، الذي قال عنه : « أما الفعل الماضي نحو : ضرب، ففيه نظر، لأنه كلمة بلا خلاف، مع أن الحدث مدلول حروفه المرتبة، والإخبار عن حصول ذلك الحدث في الزمن الماضي مدلول وزنه الطارئ على حروفه، والوزن جزء اللفظ، إذ هو عبارة عن عدد الحروف مع مجموع الحركات والسكنات الموضوعة وضعا معينا، والحركات مما يتلفظ به، فهو إذن كلمة مركبة من جزأين يدل كل واحد منهما على جزء معناه ... »، وهو ما عبر عنه ابن جني – عند حديثه عن الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية – بدقة حين رأى أن جميع الأفعال فيها الأدلة الثلاثة، ممثلا لذلك بالفعل (قام) ودلالة لفظه على مصدره (الحدث)، ودلالة بنائه على زمانه (الماضي)، ودلالة معناه على فاعله (وهي دلالة استلزام)، وقد جعل الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية لأنها صورة يحملها اللفظ – وإن لم تكن في ذاتها لفظا –

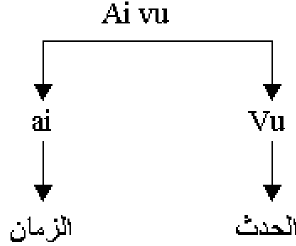
ويخرج عليها، ولما كانت كذلك لحقت باللفظ المنطوق به، فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة، فأنت حين تسمع (ضرب) تعرف حدثه (الضرب) وزمانه (الماضي)، ثم تنظر فيما بعد فتقول:إن لكل فعل فاعل،فتبحث عنه حتى تعلمه من طريق المعنى،لا من طريق اللفظ ومسموع (ضرب)[15]. وبذلك يكون ابن جني قد اتفق مع الرضي في اعتبار وجود دلالتين في لفظ (ضرب) ومسموعه، وهما الحدث (من ترتب حروفه) والزمان الماضي (من وزنه)، والوزن جزء اللفظ كما رأينا عند الرضي . وقد جعل ابن جني مثل هذا التحليل قياسا مطردا فقال : « وكذلك الضرب والقتل، نفس اللفظ يفيد الحدث فيهما ونفس الصيغة تفيد فيهما صلاحهما للأزمنة الثلاثة على ما نقوله في المصادر، وكذلك اسم الفاعل نحو: قائم وقاعد، لفظه يفيد الحدث الذي هو القيام والقعود، وصيغته وبناؤه يفيد كونه صاحب الفعل، وكذلك قطّع وكسّر فنفس اللفظ ههنا يفيد معنى الحدث، وصورته تفيد شيئين : أحدهما الماضي، والآخر تكثير الفعل، كما أن ضارَب يفيد بلفظه الحدث وببنائه الماضي وكون الفعل من اثنين وبمعناه على أن له فاعلا، فتلك أربعة معان . فاعرف ذلك إلى ما يليه فإنه كثير لكن هذه طريقه »[16] .

ويمكننا تقريب جميع تلك المعاني – تحليليا – بالأشكال التالية :



إن هذا التحليل ليعطي بدقة خصوصية الطابع الاندماجي لمثل هذه الوحدات في اللغة العربية، وذلك أننا لو قابلناها بما يكافئها في اللغة الفرنسية لاختلف التحليل، إذ نجد الفعل في الفرنسية قد يتنوع بين قابلية الانفصال والاندماج الكامل من جهة، وبين الاستقلال الكامل من جهة أخرى، ولكن رغم ذلك نجد حدودا بين ما يعبر فيه عن الحدث وما يعبر فيه عن الزمن، ولنأخذ على سبيل التمثيل ما قدمه مارتينيه من تحليل للفعل الماضي (رأى)، بقوله : « نجد في الواقع درجات غير متناهية وممكنة بين عدم القابلية للانفصال الكامل والاندماج من جهة، والاستقلال التام من جهة أخرى . ففي حين تمثل : j'ai vu (إني رأيت)، في الفرنسية المنطوقة الماضي العادي (Le passé normal) من : je voi (أرى)، فإن ai vu (الفعل الماضي بدون ضمير الفاعل) لا تمثل دالين منفصلين، بل تمثل اندماجا لوحدتين دالتين مدلولهما Voir (رؤية) وPassé (ماضي)، قابلتين للانفصال كما في : j'ai souvent vu (كثيرا ما رأيت) ... »[17] . وعلى هذا يكون الفعل الماضي في الفرنسية فعلا مندمجا في المعنى قابلا للانفصال في الشكل، لأننا نستطيع أن نقول إن ai

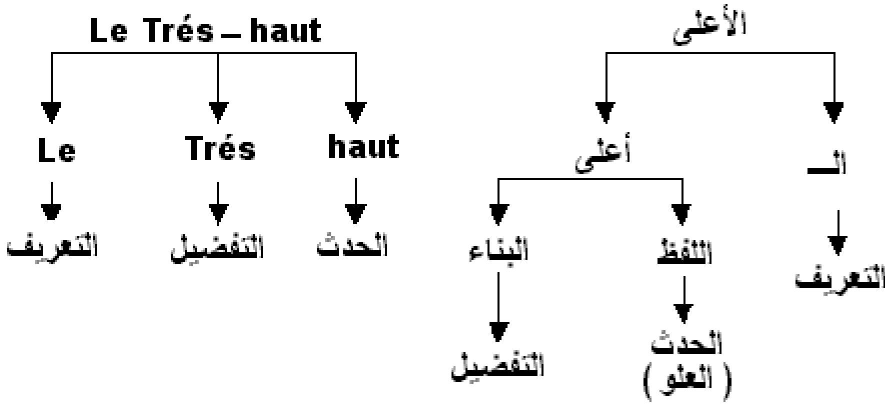
وحدة دالة على الزمن الماضي، وvu وحدة دالة على الحدث الذي هو الرؤية، ويمكن تحليل ذلك في الشكل التالي :



بينما في العربية لا نستطيع ذلك، لأن الوحدتين اندمجتا اندماجا تاما لا يمَكِّننا من الفصل بينهما شكليا بأي حال؛ وهكذا نستطيع أن نزعم هنا أن اللغة العربية لغة تصريفية، أي أنها من اللغات التي يتم التعبير فيها عن العلاقات النحوية بتغيير البنية الداخلية للكلمات[18]، أما الفرنسية فهي لغة إلصاقية، أي من اللغات التي تُعرف اللواصق فيها من السوابق واللواحق التي تُلصق بالكلمات كوحدات صرفية مساعدة لتحديد دلالات الكلمات، أو تقوم بوظيفة تحديد علاقاتها بأجزاء الجملة[19] كما سنرى في تناولنا لبعض المشتقات كصيغ المبالغة، وصفات الفاعلين بالتحليل .

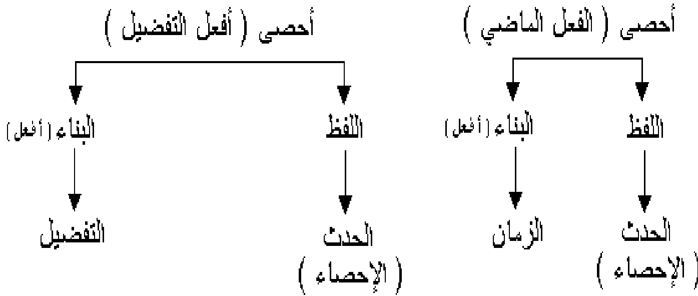
ومما يدل على أن البناء في العربية له دلالته التي تقارب دلالة الوحدة الدالة التركيبية في الفرنسية، أننا نستطيع أن نقابل كلمة عربية بأكثر من كلمة في الفرنسية، فالعربي حينما يعبر عن التفضيل مثلا يأتي بالفعل ويصوغه على بناء (أفعل)، فيقول : هذه الفتاة **أجمل** من تلك، وهذا الفتى أكبر من صاحبه، ، في حين يعبر الفرنسي عن هذا المعنى بإضافة وحدة

دالة تركيبية تفيد معنى التفضيل، فيقول : cette fille est **plus** belle ، que l'autre ، ce garçon est **plus** grand que son copain بحيث يمكننا أن نميز في الفرنسية بين ما يدل على التفضيل وما يدل على الصفة التي وقع فيها هذا التفضيل، بخلاف العربية . ولنأخذ على سبيل التمثيل والتحليل أيضا الفرق بين (الأعلى) – اسم سورة قرآنية – وترجمتها (le Très- haut)[20]، فإننا سنجد تحليلهما كما يلي:



وما دمنا نتحدث عن مثل هذه الأقوال فإن منها ما يتفق في البناء ويختلف في الوظيفة، وهكذا فقد يقع المحلل اللساني – أو المترجم من العربية إلى الفرنسية – في الخطأ إن هو لم يراع ذلك، وتكون مراعاة ذلك من خلال النظر إلى السياق الذي يكتنف مثل هذه الأقوال، ولو أخذنا في هذا الصدد لفظ (أحصى) لوجدناه يعبر عن معنيين اثنين : أحدهما هو

الفعل الماضي الذي مضارعه (يحصي) بمعنى عد يعُد، وثانيهما التفضيل الذي يفيد كثرة الإحصاء مقارنة بغيره، إذ هناك فرق بين أن أقول : أحصى فلان أقلامه، وفلان أحصى من غيره . ويمكن إبراز الفرق بينهما تحليليا على النحو التالي :



وقد وقع – فعلا – بعض المترجمين لمعاني القرآن الكريم في أخطاء من هذا النوع عندما لم يراعوا السياق وما يتيحه من قرائن مقالية أو حالية لمعرفة معنى الكلمة وبنائها، لأن بناءها وحده قد لا يفي بالغرض، ومن أمثلة ذلك ما وقع فيه الأستاذ الصادق مازيغ والشيخ بوبكر حمزة عندما ترجما قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ [الكهف 12] بـ : « ... pour voir deux partis opposés disputer de la durée de leur séjour, et savoir lequel l'évaluerait **le mieux** . »[21]، وبـ : « pour savoir lequel des deux partis évaluerait **le mieux** la durée de leur séjour . »[22] . ونلاحظ تقارب الترجمتين – على العموم – واتفاقهما في ترجمة (أحصى) باعتباره (أفعل) تفضيل بدلالة (le mieux)، لا فعلا ماضيا . ولو افترضنا أنهما قد عادا إلى التفاسير ووجدا الخلاف قائما بين النحاة في اعتبار أحصى هنا فعلا ماضيا أو (أفعل) تفضيل، ومن ثم اختلافهم في كون

(أمدا) تمييزا أو مفعولا به أو ظرفا* لـ (أحصى)، ومنهم من قال هو منصوب بـ (لبثوا)[23]، وكل ذلك من نتائج اللبس في المبنى، فعلى أي شيء اعتمدا في ترجمة هذا اللفظ بمعنى التفضيل! ؟ على الرغم من نص بعض النحاة على عدم صحته، وصحة جعل (أحصى) فعلا ماضيا، فقد دقق ابن هشام في ذلك، وفرَّق بين المعنيين اللذين تحتملهما صيغة هذه اللفظة فقال : « ... نحو: زيد أحصى ذهنا، وعمرو أحصى مالا، فإن الأول على أن أحصى اسم تفضيل، والمنصوب تمييز، مثل أحسن وجها، والثاني على أن أحصى فعل ماض، والمنصوب مفعول، مثل وأحصى كل شيء عددا . ومن الوهم قول بعضهم في : (أحصى لما لبثوا أمدا) إنه من الأول، فإن الأمد ليس محصيا بل محصى، وشرط التمييز المنصوب بعد (أفعل) كونه فاعلا في المعنى كـ : زيد أكثر مالا، بخلاف: مال زيد أكثر مال »[24]، وهذا يعني أن (أحصى) فعل ماض مضارعه (يحصي)، و(أمدا) منصوب على المفعولية لا على التمييز .

4- لاحظ الرضي - وهذه ملاحظة ذكية جدا - أن شدة امتزاج الوحدات الدالة المعجمية بالوحدات الدالة التركيبية، هو الذي جعلها تبدو في شكل كلمة واحدة، وأن هذا الامتزاج القوي سببه عدم استقلال الوحدات الدالة التركيبية بنفسها، وعلى هذا يتخرج اعتبار علماء العربية الفعل والفاعل كالكلمة الواحدة في مثل : ضربت*، وإعرابهم الجزأين إعراب الكلمة الواحدة

* ويكون التقدير - في الظرف - : أي الحزبين أحصى للبثهم في الأمد، والأمد الغاية.

* استدل علماء العربية على ذلك بعدة وجوه ليس هنا مكان عرضها، يمكن الاطلاع عليها في سر صناعة الإعراب لابن جني، وذلك بعد قوله : « .. وضمير الفاعل قد أجري في كثير من أحكامه من الفعل مجرى بعض أجزاء الكلمة من الكلمة، وذلك

في مثل : جاء **المسلمان** . ويمكننا أن نستشف ذلك من قوله : « .. فأُعرب المركب إعراب الكلمة، وذلك **لعدم استقلال الحروف المتصلة** في الكلم المذكورة **وكذلك الحركات الإعرابية**، ولمعاملتها معاملة الكلمة الواحدة سكن أول أجزاء الفعل في المضارع وغُيّر المنسوب إليه نحو : نمري، وعلوي، ووشوي، ونحو ذلك، فتغيرت بالحرفين بنية المنسوب إليه والمضارع وصارتا من تمام بنية الكلمة .. »[25] .

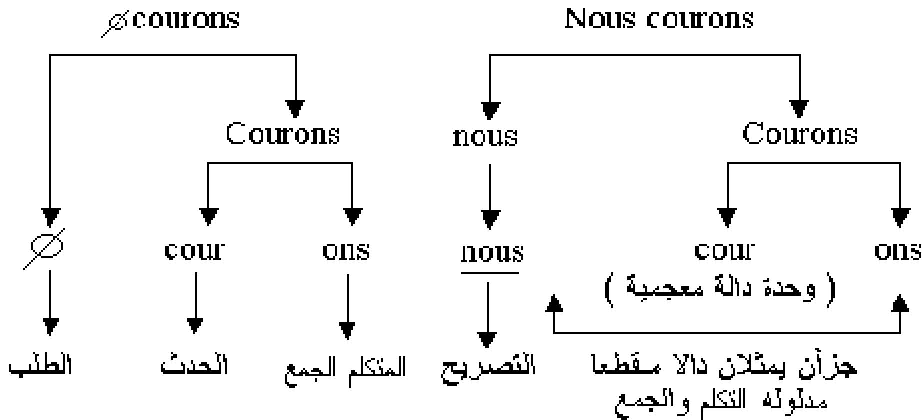
وينطبق هذا على (ال) التعريف أيضا، ولكن عدم الانفصال هنا قد يكون خاصية عربية، في مقابل ما تعرفه بعض اللغات الهندوأوربية كالفرنسية والإنجليزية، لأننا في العربية لا يمكننا بحال أن نفصل بين دال التعريف وما اتصل به، بكلمة أخرى، بينما يسمح نظام الفرنسية والإنجليزية بذلك، فنحن عندما نقول : الكتاب، ثم نصفه : الكتاب الجديد، فإن الوصف يأتي بعد لفظة الكتاب لا بينها وبين أداة التعريف، بخلاف الفرنسية والإنجليزية التي يكون فيها ذلك، إذ يقولون : le livre، ويقولون في الوصف : le nouveau livre ، وفي الإنجليزية : the book، و the new book . فيفصلون بين التعريف والمعرَّف بالوصف، وهو مما لا تستسيغه العربية البتة .

ونستخلص مما سبق أن الرضي – وغيره من علماء العربية كما رأينا – قد تفطن بحسه الدقيق إلى قابلية العربية لمثل هذا التقطيع الأولي، وذلك في ضوء ما يقدمه المعنى من تحديد لتلك الوحدات الأولية التي تكوّن

لشدة اتصال الفعل بالفاعل . واستدل أبو علي على شدة اتصال الفعل بالفاعل بأربعة أدلة، واستدللت أنا أيضا بخمسة أدلة أخرى غير ما استدل به هو ... » (سر الصناعة 220/1). ثم شرع في سردها دليلا بعد دليل .

مفهوم الوحدة الدالة، سواء أكانت معجمية أم تركيبية (أو الكلمة الدالة على المعنى المفرد عنده) .

ومن المفاهيم التي تناولها مارتينه في كتابه أيضا ما يسمي بالدال المقطع (signifiant discontinu)، وهو الدال الذي تعود وحدتاه إلى الدلالة على معنى واحد من خلال جزأين منفصلين، ومثاله باختصار ما ذكرناه سابقا عن (nous) و(ons) في دلالتهما معا على المتكلم والجمع في مثل : **nous** cour**ons**، إضافة إلى ما تدل عليه (nous) من معنى التصريح في مقابل (courant) الدالة على الطلب (أي : لنركض)[26] . ويمكننا التمثيل لذلك بالشكل التالي :



ونتساءل بعد هذا التحليل : هل تعرف العربية مثل هذا الدال المقطع، وهل تفطن إلى وجوده علماء العربية قديما ؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل لا

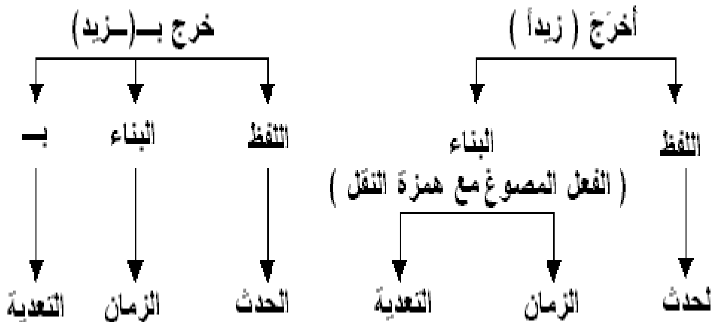
تعني – بأي حال – أننا نريد إقحام مفاهيم لا تمت للعربية بصلة بدعوى أنها موجودة في لغات أخرى، إن الطابع الذي يحكم الدال المنقطع في الفرنسية هو أنه منفصل صوتا وكتابة، وهذا قد لا يتحقق كلية في العربية، لأن لكل لغة طرائقها، ومن ثم – كما مر معنا في أمثلة سابقة – فإن لكل لغة تقطيعها الخاص، ولا يجوز بحال أن نسقط تقطيع الوحدات في لغة ما على تقطيعها في لغة أخرى قد لا تتفق معها في كثير من الأمور، وقد لخص لنا مارتينيه ذلك بدقة متناهية بقوله : « إذا كانت اللغات تتفق جميعا في قابليتها لممارسة التقطيع المزدوج، فإنها تختلف في طريقة تحليل معطيات الخبرات، وفي طريقة الاستفادة من الإمكانات التي توفرها أعضاء النطق . بعبارة أخرى : كل لغة تقطع بطريقتها الخاصة كلاًّ من الأقوال والدوال ... وقد يحدث أن تؤدي الاختلافات في التحليل إلى اختلافات في النظر إلى ظاهرة من الظواهر، أو أن تؤدي النظرة المختلفة لإحدى الظواهر إلى تحليل مختلف لحالة من الحالات، والواقع أنه ليس باستطاعتنا أن نعزل الحالة الأولى عن الثانية »[27] .

وهذا لا يعني أن المفهوم الذي أشرنا إليه غير موجود في العربية، وفي تحليل القدماء لدوالها، والوقوف على حدود هذه الدوال فيها، وإن اختلف التحليل بين اللغتين . ولعل في قول ابن جني وهو يعالج بناء الفعل وحدوده في مثل قوله تعالى : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة 17]، خير دليل على ما نقول، إذ نجده يقول : « واعلم أن اللفظ قد يرد شيء منه فيجوز جوازا صحيحا أن يستدل به على أمر ما، وأن يستدل به على ضده البتة، وذلك

نحو : مررت بزيد، ورغبت في عمرو، وعجبت من محمد، وغير ذلك من الأفعال الواصلة بحروف الجر .

فأحدُ ما يدل عليه هذا الضرب من القول أن الجار معتد من جملة الفعل الواصل به؛ ألا ترى أن الباء في نحو : مررت بزيد، معاقبة لهمزة النقل في نحو : أمررت زيدا، وكذلك قولك : أخرجته، وخرجت به، وأنزلته، ونزلت به . فكما أن همزة (أفعل) مصوغة فيه، كائنة من جملته، فكذلك ما عاقبها من حروف الجر ينبغي أن يُعتدّ أيضا من جملة الفعل؛ لمعاقبته ما هو من جملة الفعل ... »[28] .

إن المنطلق الذي انطلق منه ابن جني في إثبات أن الباء في مثل : مررت بزيد، وخرجت به، ونزلت به، هو مفهوم المعاقبة، أي معاقبتها لهمزة النقل – وأخذها وظيفتها – في الأفعال السابقة، وما دامت الهمزة تعد جزءا من الفعل، لأنها تدخل في بنائه وصياغته، فكذلك ما يعاقبها من حروف ينبغي أن يعتبر جزءا من هذا الفعل . ويمكن بيان ذلك – دون اعتبار للزمن لأن ما يهمنا هنا هو بيان التعاقب – في الشكل التالي :



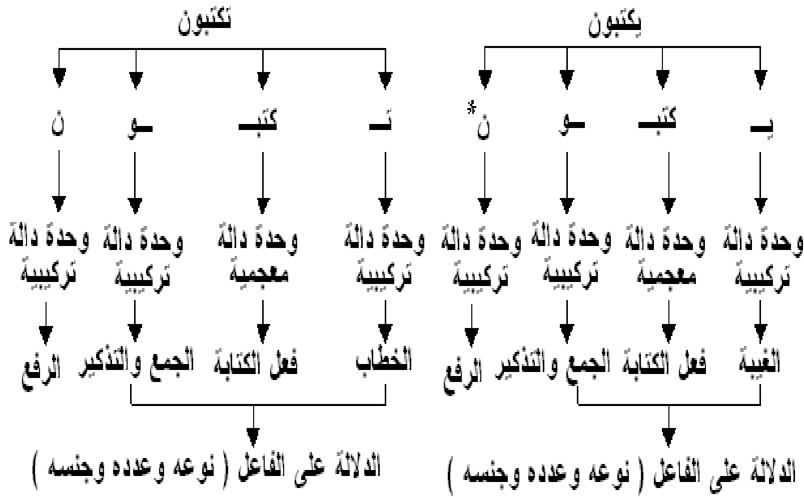
فإن قلت : وما علاقة ذلك كله بالدال المقطع ؟ فالجواب : إنه إذا كان ما قرره ابن جني من أن الباء جزء من الفعل لمعاقبة الهمزة الداخلة في بنائه – وهي جزء منه – وجها صحيحا، فإننا نجد أنه قد يفصل بين هذا الحرف والفعل الذي هو جزء منه بكلمة أخرى، ولتكن الفاعل في مثل قوله تعالى : ﴿ ذهب **الله** بنورهم ﴾، إذ المعنى : أذهب الله نورهم، لأن الباء قد عاقبت الهمزة التي هي جزء من الفعل، وما دامت الباء بهذا الاعتبار جزءا من الفعل فقد فصل بينها وبينه لفظ الجلالة الواقع فاعلا . وهذا قد يكافئ تماما ما ذكره مارتينيه عن الدال المقطع في اللغة الفرنسية . ولا يقدح في ذلك أن الهمزة دلت – في بناء الفعل – على التعدية والزمن الماضي، لأننا رأينا (nous) أيضا قد دلت على المتكلم الجمع وعلى التصريح .

ومما يمكن اعتباره من هذا الضرب من الدوال في العربية الفعل (رغب) – وهو من الأفعال التي ذكرها ابن جني – الذي لا يتضح معناه ولا يكتمل إلا بما يصاحبه من حروف، فنحن نقول : رغب في الشيء، إذا أراده، ورغب عنه، إذا لم يرده[29]، فكأن (في) و(عن) من تمام الفعل، وبدونهما قد يلتبس المعنى، وقد وقع ذلك فعلا عند المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ [النساء 127]، فقال بعضهم : ترغبون في، وقال بعضهم الآخر : ترغبون عن[30] . وقد خرّج الطاهر بن عاشور ذلك على احتمال إرادة المعنيين معا، فيكون ذلك من بلاغة الإيجاز في القرآن الكريم، والمعنى : ترغبون عن نكاح بعضهن وفي نكاح بعض آخر[31] . وإنما ذكرنا أن هذا الفعل هو من نوع الدال المقطع، لأن معنى

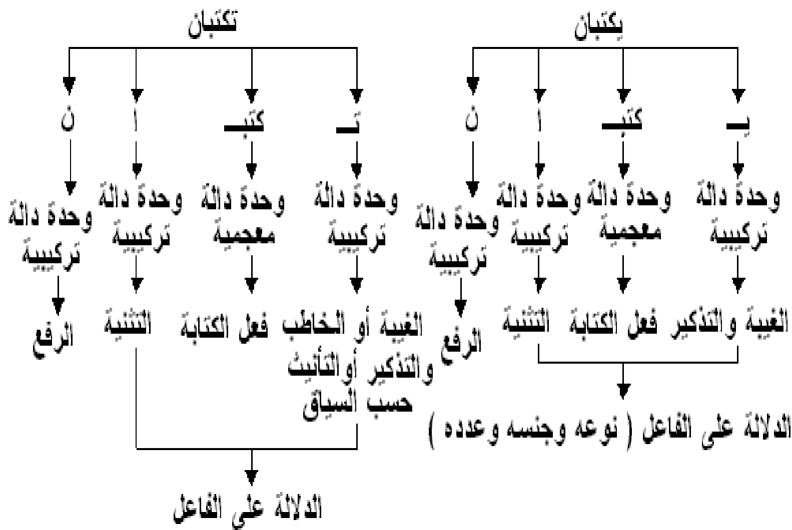
الفعل لا يتم إلا بأحد الحرفين من جهة، ولأنه يَفصِل بين هذا الفعل وذاك الحرف الفاعل، مثلما رأينا في : ذهب الله بنورهم، فيقال : رغب زيد في كذا، ورغب محمد عن كذا .

كذلك يمكن التمثيل للدال المقطع في العربية بما ذكرناه في بداية الدراسة من نحو : يكتبون، إذا اعتبرنا ياء المضارعة مع الواو تدلان على الفاعل، لأن الفاعل في مثل هذا القول لم يُستدَل عليه بالواو وحدها – كما قد يُفهم من إعراب النحاة لها فاعلا – إنما هو من اجتماع الواو الدالة على كونه جمعا مذكرا والياء الدالة على كونه غائبا، أي (هم)، والدليل على ذلك أننا مع المخاطب نقول : تكتبون، فتبقى الواو دالة على معنى الجمع، وتكون التاء دليلا على كون الفاعل مخاطبا (أنتم)، ونفس الشيء يقال في المثنى : يكتبان، وتكتبان، وجمع النسوة : يكتبن، وتكتبن*. ويكون التحليل كما يلي :

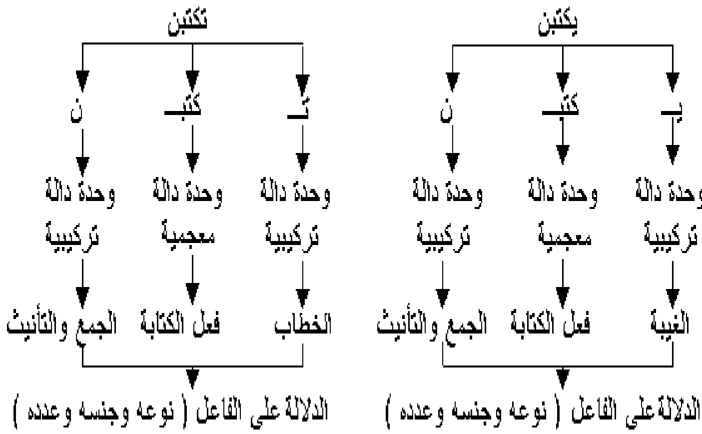
* إنما جعلنا النون وحدة دالة تركيبية لأنها تدل على الرفع، بخلاف حذفها الذي يدل على الجزم أو النصب، يقول ابن جني : (وتلحق علما للرفع في خمسة أفعال، وهي : تقومان، ويقومان، وتقومون، ويقومون، وتقومين، ونحوه، ولا تحذف هذه النون إلا لجزم أو نصب) . سر صناعة الإعراب 447/2 .



يكتبون
يـ
كتبـ
ـو
ن*
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة تركيبية
الغيبة
فعل الكتابة
الجمع والتذكير
الرفع
الدلالة على الفاعل (نوعه وعدده وجنسه)
تكتبون
تـ
كتبـ
ـو
ن
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة تركيبية
الخطاب
فعل الكتابة
الجمع والتذكير
الرفع
الدلالة على الفاعل (نوعه وعدده وجنسه)



يكتبان
يـ
كتبـ
ا
ن
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة تركيبية
الغيبة والتذكير
فعل الكتابة
التثنية
الرفع
الدلالة على الفاعل (نوعه وجنسه وعدده)
تكتبان
تـ
كتبـ
ا
ن
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة معجمية
وحدة دالة تركيبية
وحدة دالة تركيبية
الغيبة أو الخاطب والتذكير أو التأنيث حسب السياق
فعل الكتابة
التثنية
الرفع
الدلالة على الفاعل



وإنما جعلنا الياء في (يكتبان) دالة على الغيبة والتذكير لأننا حينما نُسند هذا الفعل للمثنى الغائب المؤنث تأتي التاء عوضا عن الياء للدلالة على التأنيث، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفاعل إذا كان مثنى غائبا مؤنثا كافأت صورة الفعل الذي أُسند إليه صورته إذا هو أُسند إلى المثنى المخاطب المذكر أو المؤنث، ومن هنا ذكرنا أن السياق هو الفيصل، فإما أن يكون : هما تكتبان، أو أنتما تكتبان . ويجعل بعض القدماء الياء في مثل : يكتبون، ويكتبن .. دالة على معنى المضارعة، وأرى أن الأَوْلى في هذا المعنى أن يُعزى إلى الصيغة، وإن كانت الياء، أو التاء أو الألف أو النون، قرينة لفظية عليه .

ومما يتصل بالدوال وتقطيع الكلام مجيء بعض الوحدات الدالة مركبة من كلمتين شكليا، ولكنها تدل على معنى واحد (مفرد)، ونحن في هذه الحالة لا يمكننا أن نعطي أي جزء من الجزأين دلالته التي كان يتمتع بها قبل التركيب، لأنه لم يعد للمعنى الجديد أي علاقة بهما وهما مفردان، وتعد

هذه الظاهرة في اللغة عامة من أهم العوائق التي تصادف مزدوج اللغة ومدى نجاحه في الفصل بين البنى اللغوية التي يستعملها بالتناوب بجميع دقائقها، فقد يعتقد الفرنسي – كما يذكر مارتينيه – أن معظم الحالات التي يقول فيها (chien) بالفرنسية يستطيع أن يقول فيها (dog) بالإنجليزية، فيدعوه هذا الاعتقاد إلى أن يساوي بينهما في جميع السياقات والمواقف فيسمي شطيرة السجق بالفرنسية (chien chaud) نسبة إلى تسميتها (hot-dog) بالإنجليزية، وهذا ما يحدث في كندا أحيانا وتكون النتيجة إذا صح القول وحدة ذات دالين ومدلول واحد . وهذا التداخل ليس حكرا على هذا المستوى في اللغة، بل يظهر في جميع مستوياتها التي يكون بينها اتصال، كما يظهر أيضا بمختلف النسب، ولعل من أهم نتائج مثل هذا التداخل – أوالتركب – في مجال المفردات التوسع في معاني واستعمالات بعض الكلمات، وبروز ترجمات حرفية أو شبه حرفية، أي الربط بين دليلين لغويين موجودين أصلا طبقا لنموذج أجنبي مثل : fin de semaine في اللغة الفرنسية طبقا لكلمة week-end الإنجليزية[32] .

والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها (pomme de terre) التي يعبر عنها في العربية بكلمة (بطاطس)، و(jeune fille)، التي تقابلها في الإنجليزية كلمة (girl)، وفي العربية كلمة (فتاة)، و(téléphone) التي تقابلها كلمة (هاتف) في العربية، و(oeil de boeuf) التي تعني كوة دائرية، ولا علاقة لها بالعين والثور إلا من جهة التشبيه، وهذا مما يجب أن يراعى في عملية الترجمة . ومثال ذلك في اللغة الألمانية أيضا قولهم : untersagen ، بمعنى منع، وهي مركبة من unter بمعنى تحت،

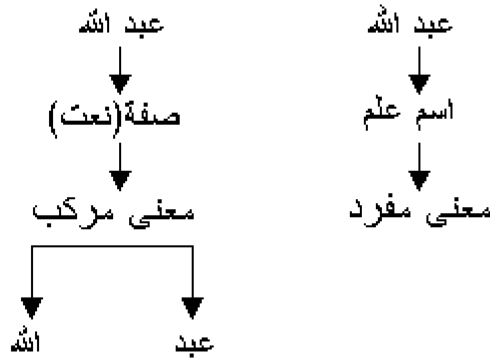
و sagen بمعنى قال[33] . وقد يعتبر المحلل اللساني بعض الكلمات المركبة من نفس الفصيلة بالنظر إلى المبنى دون المعنى، إذ قد يعتبر avalanche (بمعنى : انهيار ثلجي) من متفرعات avaler (ابتلع)، كما قد يعتبر cevoir تجمع بين recevoir (استلم) و percevoir (أدرك)أو décevoir (خيب الآمال)، ولا علاقة بينها عدا التجانس في المبنى .

ونتساءل بعد هذا : هل تعرف العربية مثل هذا النوع من الكلمات ؟ وهل تفطن له علماء العربية مبنى ومعنى ؟

سنكتفي في الإجابة عن هذا التساؤل المركب بنص هو غاية في الدقة، نستدل به على وجود هذا النوع من الكلمات، وتفطن علماء العربية له في آن واحد، يقول ابن سينا : : « اعلم أن اللفظ قد يكون مفردا وقد يكون مركبا، واللفظ المفرد هو الذي لا يراد بالجزء منه دلالة أصلا حين هو جزؤه، مثل تسميتك إنسانا بعبد الله، فإنك حين تدل بهذا على ذاته لا على صفته من كونه عبد الله فلست تريد بقولك (عبد) شيئا أصلا، فكيف إذا سميته بـ (عيسى) . بلى في موضع آخر قد تقول : عبد الله وتعني بـ (عبد) شيئا، وحينئذ يكون عبد الله نعتا له لا اسما، وهو مركب لا مفرد »[34]. فالمرتكز الذي بنى عليه ابن سينا الفرق بين اللفظ المفرد واللفظ المركب هو المعنى، فإذا دل جزء اللفظ على جزء المعنى فهو مركب من جزأين دل كل منهما على جزء معنى المركب، وإلا فهو مفرد رغم تركبه من كلمتين شكليا، ولا يخفى ما في هذا التحديد من علاقة بما رأيناه عند اللغويين في تعريفهم للكلمة . وقد عالجنا ذلك بما يغني عن إعادته هنا،

لكن الجديد في هذا النص، هو موازنة ابن سينا بين عبد الله وعيسى، وهي موازنة تقوم على استبدال أحدهما بالآخر إذا كانا اسمين علمين، ومعنى ذلك أنهما ينتميان إلى نفس الجنس، وما دام المفهوم من تسمية شخص بعيسى معنى مفرد، فإن المفهوم من تسمية آخر بعبد الله معنى مفرد أيضا، لأنهما من نفس الجنس (اسم علم)، وهما يتعاقبان في الركن الاستبدالي، فلا فرق بين أن تقول جاء عبد الله، وجاء عيسى، وجاء محمد .. الخ، غير أن عبد الله لو كانت وصفا لشخص – لا اسما – فإننا نكون أمام لفظ مركب يدل كل جزء من جزأيه على جزء المعنى المركب الذي هو عبوديته لله، فعبد تدل على العبودية، والله تدل على من توجبت له هذه العبودية، بخلاف لو كانت اسما، إذ لا يدل أي جزء من الجزأين على معنى أصلا كما يذكر ابن سينا .

ويمكن التمثيل لذلك تحليليا بالشكل التالي :



وإلى مثل هذا المعنى ذهب رضي الدين الاستراباذي فقال تعليقا على تعريف ابن الحاجب للكلمة – الذي ذكرناه سابقا – : « قوله : (لمعنى مفرد) يعني به المعنى الذي لا يدل جزء لفظه على جزئه، سواء كان لذلك المعنى جزء، نحو معنى ضرب الدال على المصدر والزمان، أو لا جزء له كمعنى ضَرْبٌ ونصْرٌ *، فالمعنى المركب على هذا هو الذي يدل جزء لفظه على جزئه، نحو : ضرْب زيد، وعبد الله، إذا لم يكونا علمين، وأما مع العلمية فمعناهما مفرد، وكذا لفظهما، لأن المفرد لفظ لا يدل جزؤه على جزء معناه، وهما كذلك، واللفظ المركب الذي يدل جزؤه على جزء معناه »[35] . وقد ذكر التهانوي الخلاف بين حد النحاة للمفرد والمركب وحد المناطقة، ليس هنا موضع الإفاضة فيه[36] . ولكن يهمنا هنا قوله : « وبالجملة فالعلم المفرد اسم حقيقة، والمركب اسم حكما، **لأن معناه معنى الاسم** »[37] . وبهذا الاعتبار يكون (بعلبك) و(سيبويه) و(عمرويه) و(سعدويه) – وما جرى مجراها – وكذا (بختنصر) وتأبط شرا – أعلاما – كلمات مفردة لا

* وقد اعتمد بعض النحاة على هذا الفرق بين الفعل والمصدر في إثبات أن المصدر هو أصل الاشتقاق كما قال البصريون، إذ رأى أولئك النحاة أن المصدر يدل على الحدث فقط، والفعل يدل على الحدث والزمان، وما يدل على معنى واحد كالمفرد، وما يدل على معنيين كالمركب والمفرد قبل المركب . (العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب. ت : غازي مختار طليمات . دار الفكر، دمشق . ط1. 1995. 260/1) . وقد شرح ذلك العكبري بقوله : « وتحقيق هذه الطريقة أن الاشتقاق يراد لتكثير المعاني، وهذا المعنى لا يتحقق إلا في الفرع الذي هو الفعل، وذلك أن المصدر له معنى واحد وهو دلالته على الحدث فقط، ولا يدل على الزمان بلفظه، والفعل يدل على الحدث والزمان المخصوص، فهو بمنزلة اللفظ المركب فانه يدل على أكثر مما يدل عليه المفرد، ولا تركيب إلا بعد الإفراد، كما انه لا دلالة على الحدث والزمان المخصوص إلا بعد الدلالة على الحدث وحده ». العكبري، مسائل خلافية في النحو. ت : محمد خير الحلواني . دار الشرق العربي، بيروت. ط1. 1992 75/1–76.

مركبة، على الرغم من أن (بعل) اسم صنم، و(بك) اسم سلطان، ولكنهما ركبا وجعلا اسما واحدا، وسمي به البلد الذي كانا فيه، و(سيب) أيضا اسم بني مع كلمة (ويه) فجعلا اسما واحدا، وكذا عمرويه وسعدويه، و(بخت) معرّب (بوخت)، بمعنى الابن، و(نصر) اسم صنم، وكذا تأبط من باب التفعل من الإبط وركب مع كلمة شر(إذا جعلت علما لا وصفا)[38] . وقد فرّق بعض النحاة في مثل هذه الأعلام بين معانيها قبل النقل إلى العلمية وبعده، يقول السيوطي– فيما نقله عن ابن يعيش – : « المركب من الأعلام هو الذي يدل بعد النقل على حقيقة واحدة، وقبل النقل كان يدل على أكثر من ذلك، وكان يدل بعض لفظه على بعض معناه . وهو على ثلاثة أضرب : الجملي، نحو : تأبط شرا، وشاب قرناها، وبرق نحرُه . والإضافي، نحو : ذي النون، وعبد الله، وامرئ القيس . والمزجي وهواسمان ركب أحدهما مع الآخر حتى صارا كالاسم الواحد، نحو : حضرموت، وبعلبك، ومعديكرب، وشُبّه بما فيه هاء التأنيث، ولذلك لا ينصرف، ومن هذا النوع سيبويه، ونفطويه، وعمرويه، إلا أنه مركب من اسم وصوت أعجمي ... »[39] .

كما أشار ابن السراج إلى تلك الدلالة الإفرادية التي يدل عليها الاسم المركب من جزأين لكل منهما معنى قبل التركب، وقد كان ذلك في معرض حديثه عن عدم عمل لام التعريف في الاسم بعدها لأنها صارت كالجزء منه، مقارنا إياها بالمضاف إليه؛ لأنهما يتعاقبان وكل منهما يعد جزءا من الاسم، يقول في ذلك : « فإن قال قائل : ما بال لام المعرفة لم تعمل في الاسم وهي لا تدخل إلا على الاسم، ولا يجوز أن تدخل هذه اللام على

الفعل، قيل : هذه اللام قد صارت من نفس الاسم، ألا ترى قولك : الرجل، يدلك على غير ما كان يدل عليه رجل، وهي بمنزلة المضاف إليه الذي يصير مع المضاف بمنزلة اسم واحد، نحو قولك : عبد الملك، **ولو أفردت عبدا من الملك لم يدل على ما كان عليه عبد الملك »**[40] .

وكذلك فعل ابن يعيش – فيما أثبتناه عنه سابقا – حين ذكر أن (ضربا) و(ضربوا) ونحوهما، كل واحد منهما لفظة، وفي الحكم كلمتان، الفعل كلمة، والألف والواو كلمة، لأنها تفيد المسند إليه، وأنك لو سمّيت بهما، يعني (ضربا) و(ضربوا)، إنسانا كان كل منهما **كلمة واحدة، لأنك لو أفردت الألف والواو في هذه الحالة، لم تدل على جزء من المسمى كما كانت قبل التسمية**[41] .

وقد أثر القول بتركب مثل هذه الأقوال أو إفرادها على أحكام النحو واختلاف النحاة حولها، وقد كان القول بدلالة الجزأين إذا ركبا معا على معنى مفرد من الحجج التي عرضها البصريون أمام الكوفيين في عدة مسائل، نذكر منها ما جاء في مسألة (هل تجوز إضافة النيف إلى العشرة)، إذ رأى الكوفيون أنها تجوز، ورأى البصريون أنها لا تجوز، وليس يعنينا جميع ما ذكره الفريقان من حجج، أو الرأي الراجح منهما، بقدر ما يعنينا أمر ما استدل به البصريون وعلاقته بما نحن بصدده . فقد احتجوا بأن الاسمين – النيف والعشرة – قد جعلا اسما واحدا، فكما لا يجوز أن يضاف الاسم الواحد بعضه إلى بعض، فكذلك هاهنا . وأن بيان هذا أن الاسمين لما ركبا دلا على معنى واحد، والإضافة تبطل ذلك المعنى، فنحن عندما نقول : قبضنا خمسة عشر، من غير إضافة، دل على أننا قد قبضنا خمسة

وعشرة، وإذا أضفنا فقلنا : قبضنا خمسة عشر، دل على أننا قد قبضنا الخمسة دون العشرة، وذلك كما لو قلت : قبضت مال زيد، فإن المال يدخل في القبض دون زيد، وكذلك : ضربت غلام عمرو، فإن الضرب يكون للغلام دون عمرو، وأنه لما كانت الإضافة تبطل المعنى المقصود من التركيب وجب أن لا تجوز[42] . وقد عبر الأنباري عن هذا المعنى بدقة أكثر حين رد على الكوفيين بقوله : « وأما قولهم : إن النيف اسم مظهر كغيره من الأسماء التي يجوز إضافتها، فجاز إضافته كسائر الأسماء المظهرة التي يجوز إضافتها، قلنا : إلا أنه مركب والتركيب ينافي الإضافة، **لأن التركيب أن يُجْعَل الاسمان اسما واحدا لا على جهة الإضافة فيدلان على مسمى واحد بخلاف الإضافة فإن المضاف يدل على مسمى والمضاف إليه يدل على مسمى آخر**، وإذا كان التركيب ينافي الإضافة، كما أن الإضافة تنافي التركيب – على ما بينا – وجب أن لا تجوز إضافة النيف إلى العشرة لاستحالة المعنى . والله أعلم »[43] .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما ذكره الفيومي من أن (سام أبرص) اسمان جعلا اسما واحدا، فإن شئت أعربت الأول وأضفته إلى الثاني، وإن شئت بنيت الأول على الفتح وأعربت الثاني، ولكنه غير منصرف في الوجهين، للعلمية الجنسية ووزن الفعل، وقالت العرب في التثنية والجمع : ساما أبرص، وسوامّ أبرص، وربما حذفوا الاسم الثاني فقالوا : هؤلاء السوامّ، وربما حذفوا الأول فقالوا : البِرَصة والأبارص[44] . وكل ذلك يعني أن العرب قد عاملت الاسمين معاملة الاسم الواحد في الإعراب والتثنية والجمع لأن في أحد الجزأين دليلا على الآخر .

وكما رأينا عند مارتينيه فإن هذه الظاهرة لا تقتصر على هذا المستوى فحسب، بل تظهر في مستويات عدة، إذ نجدها مثلا في قول النحاة ببساطة بعض الحروف والأدوات أو تركبها، ملتمسين علة القول بتركبها في حكم جزأيها ومعنييهما قبل التركيب وبعده .

ونجد أن القول بوجود حرفين – بعد امتزاجهما وتركبهما في شكل حرف واحد – أو القول ببساطة الحرف وعدم تركبه، يؤدي إلى تغيير في تحليل الكلام ومراعاة نظمه في التقديم والتأخير، وهذا الاعتبار هو الذي جعله بعض القائلين بتركب الحرف من حرفين أو أكثر دليلا على هذا التركب، يقول ابن جني مثلا – منتصرا لمذهب الخليل في تركب (لن) من (لا) و(أن) : « وذلك أن أصلها عنده (لا) (أن)، وكثر استعمالها فحذفت الهمزة تخفيفا، فالتقت ألف (لا) ونون (أن) وهما ساكنتان فحذفت الألف من (لا) لسكونها وسكون النون بعدها، فصارت لن، فخلطت اللام بالنون **وصار لهما بالامتزاج والتركيب الذي وقع بينهما حكم آخر**، يدلك على ذلك قول العرب : زيدا لن أضرب، **فلو كان حكم (أن) المحذوفة الهمزة مبقى بعد حذفها وتركيب النون مع لام (لا) قبلها كما كان قبل الحذف والتركيب لما جاز لزيد أن يتقدم على (لن)**، لأنه كان يكون في التقدير من صلة (أن) المحذوفة الهمزة، ولو كان من صلتها لما جاز تقدمه عليها .. »[45]. وقد ارتكز ابن جني في حكمه هذا على أن امتزاج الحرفين وتركبهما يجعل لهما حكما جديدا لم يكن لهما قبل الامتزاج؛ ومن ثم فإن هذا الامتزاج يفقد كل حرف من الحرفين الممزوجين حكمه الذي كان له قبل ذلك.

وقد اعتمد على هذا المنطلق الأنباري في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) في الرد على الكثير من المسائل النحوية المتعلقة بالعمل النحوي لبعض الأدوات أو الحروف، فهو مثلا يرد على الفراء ومن تبعه من الكوفيين حين قالوا – في بيان عامل النصب في المستثنى، وهو (إلا) عندهم – إن (إلا) مركبة من إن ولا ثم خففت إن وأدغمت في لا، فنصبوا بها في الإيجاب اعتبارا بإن، وعطفوا بها في النفي اعتبارا بلا، مشبها لها في ذلك بـ (لولا) في تركبها، وبحتى في إعمالها عملين : النصب والجر[46]، بقوله : « لو كان كما زعم لوجب أن لا تعمل، لأن إن الثقيلة إذا خففت بطل عملها خصوصا على مذهبكم . وأما تشبيهه لها بـ (لولا) فحجة عليه **لأن لو لما ركبت مع لا بطل حكم كل واحد منهما عما كان عليه في حالة الإفراد، وحدث لهما بالتركيب حكم آخر، وكذلك كل حرفين ركب أحدهما مع الآخر، فإنه يبطل حكم كل واحد منهما عما كان عليه في حالة الإفراد ويحدث لهما بالتركيب حكم آخر، وصار هذا بمنزلة الأدوية المركبة من أشياء مختلفة فإنه يبطل حكم كل واحد منهما عما كان عليه في حالة الإفراد، ويحدث لها بالتركيب حكم آخر**، وهو لا يقول في إلا كذلك **بل يزعم أن كل واحد من الحرفين باق على أصله وعمله بعد التركيب كما كان قبل التركيب** ... وأما تشبيهه لها بحتى فبعيد، لأن حتى حرف واحد وليس بمركب من حرفين فيعمل عمل الحرفين، وإنما هو حرف واحد يتأول تأويل حرفين في حالين مختلفين، فإن ذهب به مذهب حرف الجر لم يتوهم فيه غيره، وإن ذهب به مذهب حرف العطف لم يتوهم فيه غيره، بخلاف إلا فإن

إلا عنده مركبة من إن ولا وهما منطوق بهما فإذا اعتمد على أحدهما بطل عمل الآخر وهو منطوق به فبان الفرق »[47].

هذا، وقد اختلف القدماء من نحاة العربية في بساطة بعض الحروف أو تركبها، ونحن لن نخوض في سرد الكثير من ذلك، وسنقتصر في تأكيده على بعض الأمثلة فقط .

فمذهب الخليل مثلا – في المسألة السابقة – أن (لن) مركبة من (لا) و(أن)،ولكن العرب حذفت الهمزة لكثرة استعمالهم إياها في كلامهم، وجعلت بمنزلة حرف واحد، مثلها في ذلك مثل (هلاّ)، المركبة عنده من (هل) و(لا) . ومذهب سيبويه بخلاف ذلك، وقد استدل على بطلان مذهب أستاذه الخليل بأننا نقول : أما زيدا فلن أضرب، لأن الفعل صلة لزيد وقد تقدم عليه، يقول في ذلك : « فأما الخليل فزعم أنها لا أن ... ولو كانت على ما يقول الخليل لما قلت : أما زيدا فلن أضرب، لأن هذا اسم والفعل صلة، فكأنه قال : أما زيدا فلا الضرب له »[48]، أي أن الفعل – بمفعوله المقدم – صلة لأنْ المحذوفة الهمزة، ولا يجوز تقدم شيء من الصلة على الموصول سواء كان موصولا حرفيا أم اسميا؛ ومن ثم فإن جواز : أما زيدا فلن أضرب، ينفي كون (لن) مركبة من (لا) و(أن) . وقوله في موضع آخر : « وقد جاء على حرفين ما ليس باسم ولا فعل، ولكنه كالفاء والواو، وهو على حرفين أكثر لأنه أقوى، وهو في هذا أجدر أن يكون إذ كان يكون على حرف ... فمن ذلك أم وأو وقد بُيّن معناهما في بابهما، وهل وهي للاستفهام، ولم وهي نفي لقوله : فعل، ولن وهي نفي لقوله: سيفعل ...

»[49]، فقوله – فيما يبدو – (ولكنه كالفاء والواو) إشارة منه إلى أنها بسيطة مثلها مثل الفاء والواو وليست بمركبة .

وقد رد ابن جني على سيبويه ما ألزمه الخليل من جواز : أما زيدا فلن أضرب، بأن ذلك إنما كان لأن الحرفين قد صار لهما بالامتزاج والتركيب الذي وقع بينهما حكم آخر، ومن ثم فلو كان حكم أن المحذوفة الهمزة مبقى بعد حذفها وتركيب النون مع لام لا قبلها كما كان قبل الحذف والتركيب لما جاز لزيد أن يتقدم على لن،مؤكدا ذلك بأن (لولا) مركبة من (لو) و(لا)،ومعنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره،ومعنى لا النفي أو النهي، فلما ركبا معا حدث معنى آخر وهو امتناع الشيء لوقوع غيره* [50] .

ومن القضايا التي تناولها مارتينيه في كتابه ذاك ما يتصل بتحصيل (Actualisation) الوحدة الدالة، وهو دلالتها على معنى يحسن السكوت عليه كما هو عند نحاة العربية في مفهوم الفائدة المجسِّدة للكلام ، فقد رأى أن كلمة (fête) لا تؤدي لوحدها خطابا لغويا تاما، وأنها حتى تحقق ذلك لا بد لنا من زرعها ضمن الواقع، نفيا أو إثباتا لوجودها، ومن ثم فإنه لا بد – كما يقال – أن نحصّل الوحدة الدالة، الأمر الذي يتطلب وجود سياق، أي وحدتين دالتين على الأقل، بحيث تختص إحداهما بحمل الخطاب بينما

* وهذا المعنى هو ما ذهب إليه سيبويه نفسه بقوله في موضع آخر : « ... ومثل ذلك : هلاّ ولولا والاّ، ألزموهن لا، وجعلوا كل واحدة مع لا بمنزلة حرف واحد، وأخلصوهن للفعل **حيث دخل فيهن معنى التحضيض**) (الكتاب 115/3)، وقوله عن لا : « وقد تغير الشيء عن حاله كما تفعل ما، وذلك قولك (لولا)، صارت لو في معنى آخر كما صارت حين قلت (لوما)، تغيرت كما تغيرت (حيث) بـ (ما) و(إن) بـ (ما) »(نفس المصدر. 222/4)، أي أن هذا المعنى مستفاد في هذه الحروف المركبة عنده بعد التركيب لا قبله .

تعتبر الأخرى هي المحصّلة . والفرنسية عنده لغة من هذا النوع، غير أنه يبدو أن مثل هذه الحالة، وهي تحصيل الوحدة الدالة الواحدة، لا توجد إلا في صيغ الأمر والشتم والتحية، مثل : va! – cours – vite! – ici! – salut! – traître! . أما في الأجوبة مثل : oui – non – jean – demain ، فإن السؤال هو الذي جهّز مسبقا السياق اللازم للتحصيل . وفيما عدا هذه المواضع لا تكون الأقوال التي تشتمل على وحدة دالة وحيدة سوى صيغة مختصرة من أقوال أطول تحمل المعنى نفسه،مثل :défendu! ،بدلا من: c'est défendu [51]

والعربية يمكن تصنيفها من هذا النوع أيضا، وذلك لعدة اعتبارات، لعل أولها اشتراط النحاة أن يتركب الكلام المفيد فائدة يحسن السكوت عليها من وحدتين – أسندت إحداهما إلى الأخرى – على أقل تقدير، ولا يكون ذلك إلا بين اسمين أو اسم وفعل، ولا ثالث[52]، نحو : زيد قائم، وقام أخوك، بخلاف نحو : زيد، وغلام زيد، والذي قام أبوه، فلا يسمى شيء من هذا مفيدا؛ لأنه لا يحسن السكوت عليه[53]، فالمثال الأول عبارة عن كلمة واحدة، والفائدة كما يقول ابن جني لا تجنى من الكلمة الواحدة، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول[54]، والمثال الثاني عبارة عن تركيب، ولكنه ليس إسناديا، ولا يفيد فائدة يحسن السكوت عليها، والثالث، وإن كان يحوي علاقة الإسناد إلا أنه لا يعبر عن معنى تام يحسن السكوت عليه . وعلى هذا الأساس اعتبر النحاة – على خلاف ما هو في الفرنسية – فعل الأمر، كلاما يحسن السكوت عليه؛ لأنه مركب من فعل وفاعل مستتر، وليس كلمة واحدة، يقول ابن عقيل معلقا على تمثيل ابن مالك للكلام المفيد بفعل الأمر (استقم) :

« ... قول المصنف (استقم) فإنه كلام مركب من فعل أمر وفاعل مستتر، والتقدير: استقم أنت »[55] . وكذلك الحال في الأمر بـ : اركض، وأسرع . وأما في مثل قولنا في ذم شخص : خائن، فإن تقدير المعنى على حذف المبتدإ، أي : أنت خائن، وقد ذكر النحاة أن المدح والذم من مواطن حذف مثل هذا المبتدأ[56] . وأما التحية فقد ذكر ابن هشام في قوله تعالى : ﴿ قال سلام قوم منكرون ﴾ [هود 69]، أن في الكلام حذفا، وهو حذف الخبر، والتقدير: سلام عليكم [57]، وذكر العكبري أنه مرفوع على وجهين : أحدهما ما ذكره ابن هشام، والآخر أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي : أمري سلام، أو جوابي، أو قولي[58] . ومن هنا نستخلص أنه ليس في العربية كلمة دالة على معنى مفيد يحسن السكوت عليه إلا بتقدير محذوف، سواء دل عليه السياق اللغوي أو سياق الحال، كما هو وارد في أمثلة مارتينيه، وكما هو معروف لدى نحاة العربية، والأمثلة على ذلك كثيرة، لعل أبرزها قول ابن هشام عن حذف المسند إليه فاعلا أو نائب فاعل : «كقولك : زيد، جوابا لمن قال لك : من قام ؟ أو من ضرب ؟ فزيد في جواب الأول فاعل فعل محذوف، وفي جواب الثاني نائب عن فاعل فعل محذوف ، وان شئت صرحت بالفعلين فقلت : قام زيد وضرب عمرو »[59]، أو قول ابن عقيل : « يحذف كل من المبتدإ والخبر إذا دل عليه دليل جوازا أو وجوبا ... فمثال حذف الخبر أن يقال: من عندكما؟ فتقول: زيد، التقدير: زيد عندنا...ومثال حذف المبتدإ أن يقال : كيف زيد؟ فتقول: صحيح، أي هو صحيح، وإن شئت صرحت بكل واحد منهما فقلت: زيد عندنا، وهو صحيح »[60]، وقوله عن الجواب بـ (نعم) : « ... قولك : نعم، في جواب : أزيد

قائم، إذ التقدير : نعم زيد قائم »[61]، بل وقد يستدل على المحذوف بنغمة الكلام على ما ذكره ابن جني في حذف الصفة[62] .

وكل هذا يعني بدوره أن تحليل الأقوال قد يكون مختلفا بين اللغتين الفرنسية والعربية في هذا السياق بالذات، ففي حين ينظر المحلل البنيوي إلى الكلام على أنه عبارة عن مجموعة من الوحدات اللغوية الظاهرة، فيكون تحليله منصبا على ما هو ظاهر، ينتبه النحوي –محلل العربية – إلى ما يسمى عند القدماء بالتقدير، وهو من المفاهيم الدقيقة التي تبين أن نحاة العربية لم ينظروا إلى الكلام كتسلسل لوحدات اللغة الظاهرة، بل راعوا المواضع التي قد تكون شاغرة في الكلام، والتي يصلح أن يشغلها عنصر لغوي، تكملة للمعنى ووصولا إلى الفائدة المرجوة من الكلام، أو زيادة فيهما، إذ عندما يعتبر مارتينيه : va أو cours ، وغيرها من الأمثلة التي ضربها لتحصيل الوحدة الدالة الواحدة، فإن علماء العربية يرون في مثل أفعال الأمر هذه، وفي غيرها من الأمثلة، أن الكلام لا تتم له الفائدة إلا بإضافة عناصر تتمم الإسناد، ففي الأمر بـ : اذهب، واركض، وتعال، يوجد ضمير مستتر هو الفاعل (أنت)، وفي لفظ التحية : سلام : هناك محذوف، مسند أو مسند إليه، كما رأينا . ومن ثم فإن القدماء لا ينظرون إلى ظاهر الأقوال، بل إلى ما يجب أن يكون به تمام الكلام، وما دل عليه الدليل . وهم بذلك يتجاوزون تسلسل الكلام الذي يراعيه البنويون، وينظرون إلى النسبة المقدَّرة التي سماها تشومسكي بالبنية العميقة، في مقابل البنية السطحية .

وقد يتصل هذا المبحث الهام بمبحث آخر أشار إليه مارتينيه في تمثيله بـ (défendu)، وهذا المبحث هو مبحث الاقتصاد اللغوي (Economie de la langue)، الذي يعني التعبير عن المعاني والأغراض بأقل جهد ممكن، وهو كما فهمه مارتينيه يخضع لقانون عام يخضع له السلوك الإنساني هو بذل أدنى جهد ممكن، إذ لا ينفق الإنسان إلا بالقدر الذي يحقق له أغراضه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الاقتصاد في اللغة قد يدعو إليه الخمول الذي تميل إليه الذاكرة والنطق، فعوض أن ينطق الإنسان بكلمة مركبة من وحدتين يستطيع أن يستبدلها بكلمة ذات وحدة واحدة تؤدي الغرض نفسه، ولكنه في هذه الحالة يكون قد زاد في عدد الوحدات التي يستعملها في حديثه، ويشير مارتينيه في هذا الصدد إلى نقطة أراها مهمة جدا، وهي الاستعمال، وذلك أن المتكلم لا يختار هذا الحل، الذي هو الاقتصاد باختيار تسمية قصيرة، حتى ولو كان في ذلك تحميل الذاكرة جهدا أكبر، إلا إذا كان الشيء المراد التعبير عنه مما يكثر ذكره، لأنه إذا كان ذكر هذا الشيء بالاسم لا يرد إلا في حالات قليلة كان من دواعي الاقتصاد عدم إجهاد الذاكرة والاحتفاظ بالتسمية الأكثر طولا . وعلى ذكر الطول والقصر فإن من مظاهر الاقتصاد أن تكون التسمية القصيرة المؤلفة من وحدة واحدة اختصارا لتسمية أطول مثل:(ciné) أو(cinéma) بدلا من (cinématographe)، و(métro) بدلا من (chemin de fer métropolitain) . وهناك عوامل أخرى قد تتحكم في هذه الظاهرة أيضا[63] .

وقد أعاد مارتينيه طرفا من هذا القول عند حديثه عن التواتر والبنية في المفردات اللغوية، ويعني بالتواتر هنا – حسب ما فهمت – كثرة الاستعمال، إذ رأى أن الثابت والأكيد أن زيادة التواتر (أو كثرة الاستعمال) تؤدي إلى اختصار المباني الإفرادية، وأنه عندما كان هناك حفر لأنفاق تحت الأرض في باريس للنقل العمومي، كان الناس يتحدثون يومئذ عن (chemin de fer métropolitain)*، وهي تسمية مكونة من أربع وحدات دالة . أما اليوم وقد أصبحت وسيلة النقل هذه واقعا معاشا مرتين في اليوم الواحد بالنسبة لعدة ملايين من أهل باريس، فإنها تسمّى – عالميا تقريبا – بوحدة دالة واحدة هي (métro)، وهذا المثال الشهيرقد مر بمرحلتين أثناء اختصاره : أولا، اختصار بإبعاد العناصر غير النوعية (ici chemin de fer)، والنتيجة (métropolitain) . ثانيا، اقتطاع لم يترك سوى قطعة لم تكن لها سابقا أي دلالة (métro)[64] .

إن الحديث عن الاقتصاد اللغوي عند مارتينيه لا يعني بحال الحديث عن لغة دون أخرى، لأنه – كما يذكر – يدخل في إطار جنوح السلوك الإنساني عموما إلى بذل أقل جهد ممكن، وهذا ما يجعله أمرا عاما لجميع اللغات، مع اختلاف – ربما – في طرائقه ودواعيه . ولكن يبقى أهم مرتكز يرتكز عليه هذا الاقتصاد ما أشار إليه مارتينيه بالتواتر أو الاستعمال، إذ نجد في العربية مثلا أن كثرة الاستعمال كانت دافعا قويا إلى أن يلجأ العربي إلى الاختزال أو استبدال وحدات أقل بوحدات أكثر، للتعبير عن نفس الشيء طلبا لبذل جهد أقل في عملية التواصل والتبليغ . وقد عالج الدكتور

---

* أي : سكة حديد العاصمة .

فخر الدين قباوة هذه الظاهرة في اللغة العربية بجميع أبعادها في كتابه (الاقتصاد اللغوي في صياغة المفردة)، فبين اعتماد العربية كغيرها من اللغات على هذه الظاهرة بما يغني عن إعادة إثباته وتأكيده، ولكن يعنينا هنا ما ذكره من أن اللغة العربية تنزع في تطورها كسائر اللغات إلى السهولة والتيسير، ولذلك نراها في ابتغاء التوفير للجهدين : الذهني والعضلي للإنسان، تتخلى عن كثير من التفريعات المعقدة، والأنظمة التعبيرية المختلفة، والصيغ الشكلية المُجْهِدة، والأصوات العسيرة النطق[65] .

كانوا يصفون مظاهر العربية وتطورها، ملتمسين في ذلك مقاصد العرب في كلامها بما يتلاءم وقانون الاقتصاد اللغوي، يقول فخر الدين قباوة مثلا : « وقد كان العربي في التواصل والخطاب على وعي تام للمرامي الاقتصادية، ينزع إليها ويدرك وظائفها الواقعية، وخدمتها لتخفيف الجهد والمعاناة، ولا سيما التراكيب التي يكثر استعمالها في التعبير، وعلى ذلك جاءت عنهم (إيش)، اختصارا لقول : أيُّ شيء ؟ واختصروا (من أجل أنك فعلت) فقالوا : أجنَّك فعلت، والقسم بـ(إي والله) صار عندهم : إيْوَ، و(أنعِم) صار في اللفظ : عِمْ ... وكان ذلك حاضرا في أذهان النحاة أيضا، وهم يحللون كلام العرب، ويضعون المقاييس والضوابط، ويفسرون الظواهر الاقتصادية في التركيب . وقد عبّروا عنه بالتخفيف والاستخفاف والاستغناء لكثرة الاستعمال . ولذا كان أبو عمرو بن العلاء (ت 154) يذكر أن العرب حذفوا من نحو : لا أدر، ولم يك، ولم أُبَلْ، وخذ، وكُلْ، ما لا يقتضيه القياس، لمّا كثر في كلامهم »**[66]**.وهناك أمثلة كثيرة –غير ما سبق– ذكرها النحاة وهي مما يطول ذكره[67].

وفي حديثه عن خصائص الاقتصاد اللغوي تنبه إلى أنه رغم الاعتراف بشمول هذه الظاهرة جميع الألسن، فإنه قد يكون لبعضها خصائص لا تتجسد في غيرها، وذلك قوله : « على أنه لا بد من الإشارة إلى ملاحظات ترد في هذا السبيل : أولاها أن بعض الظواهر المذكورة، من اختصار التفريع، قد يرد في غير لغة العرب . ونحن لا نغالي فندعي إنكار ذلك، لأننا لا نفاخر لغات العالم بما أوردنا ولا ننافسها، وإنما نبسّط ما تتصف به لغتنا الحبيبة، عملا بما يقتضيه البحث العلمي، والدرس اللغوي المعاصر، ثم نزعم أنه إذا وجد بعض الظواهر في لغة ما فإنه محال اجتماعها كلها أو أكثرها في تلك اللغة . وبهذا نرصد الواقع العملي المتميز، ونضع أيدينا على حقائق مذهلة يتمتع بها العربي الفصيح، وقد يتناسى جاهلا أو متجاهلا قيمتها في ميزان الاقتصاد اللغوي المعتبَر »[68] ونحن إذ نعتز بلغتنا ومقدرتها على تكثيف المعاني واختصار المباني، وتوصيلها أغراض المتكلمين بأقل جهد ممكن – وهو ما نتوافق فيه مع كثير من اللغويين – فإننا لا يمكننا أن نزعم أن العربية قد جمعت كل ظواهر الاقتصاد اللغوي دون غيرها من لغات العالم حتى تتكثف الجهود لإجراء دراسات تقابلية ومقارنة بين العربية واللغات الأخرى، لنصل إلى ما تشترك فيه جميعها، وما تنفرد به كل واحدة منها على حدة من خصائص ومظاهر في هذا المجال، أعني مجال الاقتصاد اللغوي .

بقي أن نشير إلى مثال من العربية يجسد بدقة ما ذكره مارتينيه حول الحذف والاختصار أثناء النزوع إلى الاقتصاد اللغوي، وذلك بالمرور – في الحذف – بعدة مراحل، حتى نصل في الأخير إلى استعمال وحدة لم تكن

لها دلالة من قبل، ويتعلق هذا المثال بما ذكره أحمد الحمو من أننا حينما نرى لأول مرة السفينة التي ابتدعها دنيس بابان فإننا نقول بالعربية : هذه السفينة تسير بقوة البخار، أي أننا ربطنا بين وحدات دالة موجودة أصلا وفقا لنظام تقليدي معروف . وعندما يصبح مثل هذا الاختراع **جزءا من الحياة اليومية** فإننا لن نكتفي بالإشارة إلى وجود ترابط بين البخار وبين الحركة فوق الماء، بل لا بد لنا أن نعثر على تسمية للعلاقات التي تقوم بين الشيء الجديد وما يمكن ملاحظته على هذا الشيء . إذن ينبغي لنا القول : السفينة التي تندفع بقوة البخار ... أو السفينة البخارية ... كي نصل في النهاية اسم (الباخرة)[69] .

هذا، ومن القضايا التي تناولها مارتينيه في كتابه المذكور ما يتعلق بتعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد، وهي – كما يذكر فاضل مصطفى الساقي – ظاهرة لها أهميتها البالغة في مجال البحث اللغوي، تعكس تشابك العلاقات بين المعطيات الصرفية والنحوية، ويتوقف على إدراكها الفهم الكامل لمعاني التعبير في اللغة العربية، فالمبنى الصرفي الواحد صالح لأن يعبّر عن أكثر من معنى واحد ما دام غير متحقق بعلامة ما في سياق ما، فإذا تحقق المعنى بعلامة أصبح نصا في معنى واحد بعينه، تحدده القرائن اللفظية والمعنوية والحالية على السواء[70] .

وقد مثل مارتينيه لذلك بعدة أمثلة من الفرنسية، وربط هذه الظاهرة لا بالمفردات فحسب، بل بها وبالوحدات الدالة التركيبية (كحروف الإضافة والأدوات .. إلخ)، كما ربطها بمدى شيوع استخدامها في حالة دلالتها على عدة معاني وظيفية، كل ذلك نستشفه من قوله : « إن تواتر وحدة دالة

يستطيع أن يرتفع تحت الضغط المباشر لحاجات المجتمع . وهذا ينطبق خاصة على الوحدات التي سميناها وحدات إفرادية، لكنه قد يطال أيضا الوحدات الدالة التركيبية . إذ نجدهم في البرامج الإذاعية يستعملون كثيرا الوحدة الدالة الوظيفية (depuis*) في مثل : on nous communique depuis Londres (أُعلمنا من لندن)، مما أدى إلى تغيير في تواتر هذه الوحدة في الاستعمال العام »[71] . ولعل ذلك راجع إلى اللبس الذي يكون بين depuis بمعنى (من) وبينها بمعنى (منذ) . ولكن هذا اللبس – كما رأينا مع فاضل الساقي، وكما هو واضح من تمثيل مارتينيه – يزيله السياق بقرائنه اللفظية والمعنوية والحالية، الأمر الذي نستشفه من خلال تمثيله – في موضع آخر – لنقل عملية التمييز أو التفريق إلى المسند ذاته، بنحو : il entre **dans** la ville (دخل إلى المدينة)، و : il habite **dans** la ville ** (يسكن في المدينة)[72] . وهذا يعني أن من الأدوات أو الحروف – أو حتى الكلمات – ما لا نقف على معناه الذي يؤديه في السياق إلا بمراعاة ما يتوارد معه، فنحن علمنا أن معنى dans في المثال الأول (إلى) من خلال تواردها مع الفعل entre، كما علمنا أن معناها (في) لأنها تواردت مع الفعل habite .

وهذه نقطة قد أفاض في الحديث عنها نحاة العربية قديما وحديثا، فتناولوها في ظاهرة التضمين، أو نيابة الحروف بعضها عن بعض، وبيّنوا

---

* الأكثر شيوعا أن تستعمل بمعنى (منذ)، ولكنها في المثال المذكور جاءت بمعنى (من) .

** هذا المثال هو الذي أورده المترجم، ومثال مارتينيه : (Il erre dans la ville) . وقد اخترنا مثال المترجم لأنه أوضح .

أن من الحروف ما يأخذ معنى حرف آخر ؛ لأن الفعل من عادته أن يتعدى به، كما بينوا أن من الأفعال ما يتضمن معنى فعل آخر في سياق معين يكون فيه هذا الفعل متعديا بحرف يتعدى به الفعل المضمّن، مع مراعاة وجود مناسبة بينهما . والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، يكفي في الوقوف عليها الرجوع إلى (الجنى الداني) للمرادي، أو (مغني اللبيب) لابن هشام، لنرى المعاني التي يدل عليها حرف الباء أو من أو إلى أو عن أو ما أو إن .. وغيرها من الحروف أو الأدوات في سياقات بعينها . وحتى لا نطيل الحديث في هذه النقطة الواضحة والمعروفة لدى كل مطلع على باب التضمين أو النيابة، نكتفي بإيراد بعض النماذج التي تجسد بشكل بارز أهمية القرائن في إعطاء الدلالة، وتبين أن هذا التعدد في المبنى الواحد من مستلزمات الفهم الكامل لمدلول الكلمة أو الحرف أو الأداة من واقع استعمالها .

ولعل أول هذه النماذج ما يلحظه الدارس من تعدد في المعنى الوظيفي لـ (ما)، هذا التعدد السياقي الذي يمكن اختصاره – على سبيل التمثيل – في النقاط التالية[73] :

– تقوم بوظيفة التعليق في الجملة الاستفهامية، ويطلق عليها النحاة في هذه الحالة اسم (ما) الاستفهامية .

– تقوم بوظيفة التعليق في الجملة الشرطية، وهي بذلك (ما) الشرطية .

– تقوم بوظيفة التعليق في الجمل المنفية، وهي بذلك نافية .

– تؤدي مع الفعل وظيفة التعبير عن المعنى المصدري، وهي بذلك مصدرية .

– تؤدي مع صيغة (افعل) وظيفة الإفصاح عن معنى تأثري هو التعجب، فتعتبر في هذه الحالة جزءا من الصيغة المسكوكة (ما أفعله) وأحد مكوناتها، وهي التي يطلق عليها النحاة (ما) التعجبية .

... وهناك وظائف غير هذه تؤديها (ما) في السياق، وما هذه الوظائف التي ذكرناها إلا بيان لتعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد، واكتشاف المعنى المراد من خلال السياق وما يتيحه من قرائن .

أما النموذج الثاني فيتعلق ببيان بعض تلك القرائن التي تساعد على معرفة معنى الحرف أو الأداة وظيفيا، وذلك من خلال ملاحظة ما يرد معها في السياق . إذ نجد أن للاّم المفردة مثلا عدة معان وظيفية كالاستحقاق، والاختصاص، والتمليك، والملك، والتعليل، والاستعلاء، وانتهاء الغاية، وتوكيد النفي .. إلخ، وأن لكل معنى من هذه المعاني سياقه الخاص، فتوكيد النفي مثلا تدخل فيه اللام – سياقيا – على الفعل مسبوقة بـ (ما كان) أو بـ (لم يكن) مسندتين إلى ما أسند إليه الفعل المقرون باللام، فيكون ذلك قرينة على دلالتها على توكيد النفي[74] . كما أنها تكون للتبليغ إذا دخلت على سامع لقول أو ما في معناه كـ (قلت له، وأذنت له، وفسّرت له)[75] . ومن ذلك أيضا معاني (ال) التي تكون للتعريف، فتكون عهدية أو جنسية، وقد تخرج إلى معان وظيفية أخرى، كأن تكون ضميرا موصولا بمعنى (الذي أو التي) وجمعهما، وهي في هذه الحالة تدخل – سياقيا – على الصفات كصفة الفاعل، وصفة المفعول، وغيرهما[76] . وكذلك نجد أن كأن تؤدي في

السياق عدة معان وظيفية، كالتشبيه الذي يُشترط فيه – سياقيا – أن يكون الخبر بعدها اسما للذات، بخلاف دلالتها على معنى الشك والظن الذي يُشترط فيه أن يكون الخبر بعدها من الصفات[77] .

ويتعدى الأمر هذه المعاني الوظيفية للأدوات والحروف إلى معاني المفردات ذاتها، إذ لا نقف – في كثير من الأحيان – على معنى المفردة إلا بملاحظة ما يتوارد معها أو يصاحبها في السياق، وهو ما تناوله القدماء عندما عالجوا ظاهرة المشترك اللفظي، فكلمة صاحب قد تعني المَلِك، وقد تعني الصديق، كما قد تعني المالك، وذلك بحسب ما يصاحبها في مثل : صاحب السمو، صاحبي، صاحب الدار . كما أن الفعل (أدرك) قد يدل على عدة معان بحسب ما يصاحبه في السياق أيضا، فهو بمعنى(عاصر) في مثل : أدرك زمانه، وهو بمعنى (رأى) في مثل : أدرك ببصره، وهو بمعنى (بلغ) في مثل : أدرك الغلام الحلم . ولعل في قول ابن الأنباري : « كلام العرب يصحح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ،ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد »[78] خير دليل على مدى احتكام القدماء للسياق وما يزخر به من قرائن للوقوف على دلالة الألفاظ والمعاني الوظيفية للحروف والأدوات كما قررها المحدثون، عربا وغربيين على رأسهم مارتينيه كما رأينا .

بقي لي في نهاية هذه الدراسة – التي لم تنته بعد؛ لكونها بداية مشروع كتاب خاص بمبادئ اللسانيات المعاصرة ومقابلتها بإنجازات العقل العربي

في عصوره الزاهرة، ومراعاة ما ينطبق منها على اللغة العربية وما لا ينطبق – أن أشير إلى قضية أخرى هامة تناولها مارتينيه، وهي أيضا مما يتصل بالقرائن المتاحة في السياق، والدالة على الوظائف النحوية، وهذه القضية هي المطابقة، وهي ظاهرة تتجسد في كثير من الأبواب النحوية عندنا، إذ قد لا يمكن الوقوف على وظيفة الكلمة إلا بمراعاة التطابق بينها وبين ما تتعلق به وظيفيا في السياق .

يشير مارتينيه في هذا الصدد إلى أن من العناصر اللغوية ما يكون مزودا في الغالب بعلامات ودلائل لمعرفة وظائفها دون التطابق الذي قد تحمله، ليقرر بذلك أن هذا التطابق ليس وسيلة اقتصادية لبيان العلاقات والروابط داخل القول . ذلك لأنه – حسب ما فهمته من كلامه وتمثيلاته – يُنظَر إلى هذا التطابق على أنه شيء زائد، وحشو لا فائدة منه، ما دامت هناك علامات ودلائل أخرى يحملها المسند أو المسند إليه – مثلا – تشير إلى وظيفة كل منهما في القول، فنحن – على حد تعبيره – لو أخذنا الجملة اللاتينية : pater pueros amat (الأب يحب الطفل)، لوجدنا أننا لا نحتاج إلى موافقة الفعل في العدد كي نعرف أن pater هي الفاعل[79] .

ويستدرك بعد ذلك بالقول إنه قد يحدث أن يقوم التطابق إما صدفة أو بشكل منتظم، ببيان وظيفة بعض العناصر، ممثِّلا لذلك بالجملة اللاتينية : venatores animal occidunt (الصيادون يقتلون الحيوان)، إذ لا تكشف لنا venatores (الصيادون) ولا animal (الحيوان) من الفاعل

ومن المفعول به*، لكن الفعل occidunt الذي يتطابق مع venatores** يكشف لنا أن هذا الأخير هو الفاعل، ومن ثم تكون animal هي المفعول به . وبالطبع لن يكون للتطابق أي دور لو كان المفعول به جمعا أيضا فيكون المثال : venatores animalia occidunt، أو كان الفاعل اسم جنس ليس به علامة جمع مثل viri (الناس) . ولا يجوز لنا أن نفهم – كما يذكر مارتينيه دائما – أن الدال على الداخلة*** (جمع) هو الذي يتولى مهمة الكشف عن وظيفة الفاعل في -venator وأن الفرق قد زال بين الوحدة الدالة الوظيفية وبين الداخلة. لأن الحقيقة تكمن في أن الدال (حالة الرفع) إذا التقى مع التصريف الثالث، ومع الوحدة الدالة على الجمع، فإنه يتحقق من خلال الشكل الاندماجي المنقطع /es..nt../، بينما يتحقق النصب بكل بساطة في ظل هذه الشروط من خلال الشكل /es../[80] . ومن هنا ندرك أن (es) لم تدل على وظيفة الفاعل بقدر ما دلت على معنى الجمع، لأنها مع بقائها قد يكون ما تتصل به مفعولا به؛ فالرفع على الفاعلية في المثال السابق الذي مثل به مارتينيه إنما هو مؤدًّى من خلال

---

* وذلك لأنهما – فيما أعتقد – لا تحملان ما يشير إلى الفاعلية أو المفعولية، كما هو الشأن في العربية، إذ لو قلنا : قتل الصيادون الحيوان، لتبين لنا من الرفع في الجمع المذكر (الصيادون)، والنصب في (الحيوان) أن الأول فاعل والثاني مفعول .

** المطابقة هنا في الجمع إذ تدل es في venatores على الجمع، وتدل nt في الفعل occidunt على الجمع أيضا، فيتطابق بذلك الفعل مع فاعله .

*** يفرق مارتينيه بين الداخلة (Modalité)والوحدة الدالة الوظيفية (Monème fonctionnel) في كون الأولى تدل على التعريف أو التنكير أو المفرد أو الجمع وغير ذلك من المعاني التي لا تبين عن الوظائف، بخلاف الوحدات الدالة الوظيفية، أضف إلى ذلك أن هذه الأخيرة تضفي على التركيب استقلالا نحويا على عكس سابقتها . (للوقوف على أمثلة في ذلك انظر : مبادئ اللسانيات العامة ص 118-119) .

الدال المنقطع es..nt . وهكذا نتبين الفرق بين الداخلة والوحدة الدالة الوظيفية .

إن الحديث عن المطابقة في اللغة العربية يكاد ينسحب على كثير من الأبواب النحوية في اللغة العربية كما ذكرنا سابقا، فهناك المطابقة بين الفعل والفاعل وبين المبتدأ والخبر وبين التابع ومتبوعه (النعت والمنعوت، البدل والمبدل منه .. إلخ) . ومن الصحيح جدا أن للمطابقة دورا هاما في بيان العلاقات والروابط داخل الجملة، فهي تساعدنا على معرفة الفاعل من المفعول في مثل : ضربتْ يحيى بشرى، إذا ما انعدم وجود دليل آخر، مما ألفنا أن تحمله الكلمة معها كالرفع والنصب، يوضح الفاعل من المفعول، وهي بذلك قرينة هامة في نظام الجملة العربية، خاصة إذا لم تكن العناصر اللغوية تحمل ما يدل على وظيفتها كما رأينا في المثال السابق، وذلك أنها مسؤولة عن الحرية في الترتيب لأمن اللبس، إذ يجوز أن نقول : ضربت بشرى يحيى، أو ضربت يحيى بشرى، بخلاف ما لو كان الفعل مذكرا، والفاعل والمفعول كذلك، نحو : ضرب موسى عيسى، فإن الفاعل هنا واجب التقديم؛ فالمطابقة في المثال السابق – زيادة على بيانها الفاعل من المفعول – أعطت مرونة للجملة في نظامها من جهة التقديم والتأخير[81].

ومما تظهر فيه المطابقة كقرينة لفظية ما نجده في كلام النحاة عن الحال ومطابقتها لصاحبها، خاصة إذا كان في الجملة حالان، إحداهما من الفاعل والثانية من المفعول، وأردنا أن نميز بينهما، يقول الرضي في هذا الشأن : « فإذا قلت : لقيت زيدا راكبا، فإن كان هناك قرينة حالية أو مقالية تبين صاحب الحال، جاز أن تجعلها لما قامت له من الفاعل أو المفعول،

وإن لم تكن وكان الحال عن الفاعل، وجب تقديمه إلى جنب صاحبه لإزالة اللبس، نحو : لقيت راكبا زيدا، فإن لم تقدمه فهو عن المفعول . وأما إذا جاء حالان عن الفاعل والمفعول معا، فإن كانا متفقين فالأوْلى الجمع بينهما فإنه أحصر، نحو : لقيت زيدا راكبين، ولا منع من التفريق، نحو : لقيت راكبا زيدا راكبا، ولقيت زيدا راكبا راكبا، وإن كانا مختلفين، فإن كان هناك قرينة يُعرَف بها صاحب كل واحد منهما، جاز وقوعهما كيف ما كانا، نحو : لقيت هندا مصعدا منحدرة، وإن لم تكن، فالأوْلى جعل كل حال بجنب صاحبه، نحو : لقيت منحدرا زيدا مصعدا ... »[82] .

فالمطابقة بين الحال وصاحبها هي التي سهلت علينا ربط كل من الحالين بصاحبه (الفاعل والمفعول) دونما أي لبس .

هذا عن أهمية المطابقة كقرينة على العلاقات والروابط بين أجزاء الجملة وبيان وظائفها . أما حديث مارتينيه عن كون المطابقة قد تكون بلا فائدة؛ لأن العنصر اللغوي قد يحمل معه دلائل وعلامات توضح علاقته بالعناصر الأخرى، ومن ثم وظيفته في الكلام، فهو أمر لا يمكن التسليم به، لأن ذلك يدخل تحت ما أسماه تمام حسان بتضافر القرائن، إذ ليس هناك في اللغة حشو ولا زيادة من غير فائدة . وتقوم فكرة تضافر القرائن على أن هذه الأخيرة – أي القرائن – توزع اهتمامها بالقسطاس بين قرائن التعليق النحوي معنويها ولفظيها، فهي كلها مسؤولة عن أمن اللبس وعن وضوح المعنى، ولا تستعمل واحدة منها بمفردها للدلالة على معنى ما، وإنما تجتمع القرائن متضافرة لتدل على المعنى النحوي وتنتجه[83]، فنحن عندما ننظر في نحو : ضرب زيدٌ عمرًا، نجد مثلا أن (زيد) يتصف بالمواصفات التالية:

- إنه ينتمي إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة)
- إنه مرفوع (قرينة العلامة الإعرابية)
- إن العلاقة بينه وبين الفعل هي علاقة الإسناد (قرينة التعليق)
- إنه ينتمي إلى رتبة التأخير (قرينة الرتبة)
- إن تأخره عن الفعل رتبة محفوظة (قرينة الرتبة)(على قول البصريين)
- إن الفعل معه مبني للمعلوم (قرينة الصيغة)
- إن الفعل معه مسند إلى المفرد الغائب (قرينة المطابقة)

وهكذا – وبسبب كل هذه القرائن أو أغلبها – نصل إلى أن (زيد) هو الفاعل، ثم ننظر في المفعول فنرى أنه :

- ينتمي إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة)
- منصوب (قرينة العلامة الإعرابية)
- العلاقة بينه وبين الفعل هي علاقة التعدية (قرينة التعليق)
- رتبته من كل من الفعل والفاعل هي التأخر (قرينة الرتبة)
- هذه الرتبة غير محفوظة (قرينة الرتبة)

وبسبب هذه القرائن نسارع إلى القول إن (عمرا) مفعول به، مع ملاحظة أن بعض هذه القرائن قد يغني عن بعض عند أمن اللبس[84] . ولا نقول عندئذ إنها زائدة أو إنها بلا فائدة، إذ قد تكون في أمثلة أخرى هي المرتكز في بيان الوظائف والعلاقات إذا فُقدتْ بعض القرائن الأخرى . وهي

عند قيام قرائن أخرى ببيان الروابط والوظائف تكون قرينة مؤكدة يُستأنس بها في إثبات أمر تلك الروابط والوظائف . يقول تمام حسان عن قيمة المطابقة كقرينة لفظية : « ولا شك أن المطابقة في أية واحدة من هذه المجالات الخمسة (يعني العلامة الإعرابية، والشخص كالمتكلم والغائب ..، والعدد، والنوع من تذكير وتأنيث، والتعيين من تعريف وتنكير) تقوي الصلة بين المتطابقين، فتكون هي نفسها قرينة على ما بينهما من ارتباط في المعنى، وتكون قرينة على الباب الذي يقع فيه ويعبر عنه كل منهما . فالمطابقة تتوثق الصلة بين أجزاء التركيب التي تتطلبها، وبدونها تفكك العرى وتصبح الكلمات المتراصة منعزلا بعضها عن بعض، ويصبح المعنى عسير المنال. انظر مثلا فيما يلي:

- تركيب صحيح المطابقة : الرجلان الفاضلان يقومان
- مع إزالة المطابقة في الإعراب : الرجلان الفاضلين يقومان
- مع إزالة المطابقة في الشخص : الرجلان الفاضلان تقومان
- مع إزالة المطابقة في العدد : الرجلان الفاضل يقومون
- مع إزالة المطابقة النوع : الرجلان الفاضلتان يقومان
- مع إزالة المطابقة في التعيين : الرجلان فاضلان يقومان
- مع إزالة المطابقة في جميع ذلك : الرجلان فاضلات أقومُ

فقد رأينا من إزالة المطابقة من جهة واحدة أو من جهات متعددة فيما أوردنا من أمثلة أن هذه الإزالة تذهب بعلائق الكلمات، وتقضي على الفائدة من التعبير، أي أنها تزيل المعنى المقصود . كما رأينا أن وجود هذه

المطابقة يعين على إدراك العلاقات التي تربط بين المتطابقين؛ ومن هنا نصل إلى فهم طبيعة المطابقة وكونها (قرينة لفظية) على المعنى المراد»[85].

أما تفريق مارتينيه بين الداخلة والوحدة الدالة الوظيفية، وحديثه عن دلالة بعضها على الجمع مثلا دون بيان الوظائف، أو دلالتها على الجمع والوظائف معا، مما يجعل الباحث في حيرة أثناء تصنيفها، أو يجعل المتكلم بسبب هذا التشابك لا يفرق بينها، فإن له في العربية ما يكافئه، إذ نجد بعض الوحدات – في بعض الجمل – تدل على الجمع وعلى وظيفة ما تتصل به، كما نجدها في بعض الجمل الأخرى تدل على الجمع فحسب، ومثال ذلك ما نلاحظه على (المعلمون) في نحو : درّس المعلمون التلاميذ، إذ نجد أن الواو قد دلت على الجمع، وعلى أن ما اتصلت به فاعل للفعل (درّس)، أي أنها علامة على الرفع، بخلاف ما لو قلنا : درس المعلمين المؤطرون، أو المفتشون، فإن الياء دلت على الجمع، وعلى كون ما اتصلت به مفعولا به للفعل (درّس)، أي أنها علامة على النصب، وهكذا نجد أن الواو أو الياء قد دلت على الجمع وعلى الرفع أو النصب (على الفاعلية أو المفعولية) . كما نجد ذلك أيضا في ألف التثنية ويائها، فقد ذهب سيبويه وفريق من النحاة إلى أنهما حرفا الإعراب، وليست فيهما نية الإعراب، أي أن علامة الإعراب لا تُقدّر عليهما[86]، وهذا يعني أن الألف في التثنية علامة الرفع والتثنية، والياء علامة النصب أو الجر والتثنية، يقول ابن جني في الفرق بين هذه الألف وألف التأنيث في مثل (حبلى) : « ونظير ألف التثنية **في أنها حرف إعراب وعلامة تثنية** ألف

التأنيث في نحو : حبلى، وسكرى؛ ألا تراها حرف إعراب وهي علم التأنيث، إلا أنهما يختلفان في أن حرف التثنية لا نية حركة فيه، وأن ألف حبلى فيها نية الحركة »[87] . وفي المقابل نجد بعض الوحدات تدل على الجمع دون الوظيفة، كالذي نلاحظه مع جمع المؤنث السالم في مثل : ضرب المعلماتُ التلاميذَ، وضرب الفتيات الفتيانُ، إذ دلت الألف والتاء على مجرد الجمع والتأنيث في المثالين، أما الوظيفة فقد بيّنها الرفع والنصب . وكذلك يمكن ملاحظة ذلك عند القدماء في معالجتهم وتحليلهم للغة (أكلوني البراغيث)، فقد رأى بعض النحاة أن الواو في (أكلوني) لمجرد الجمع، وأن وظيفة الفاعل قد شغلتها (البراغيث)، يقول ابن هشام – في أحكام الواو – : « الثاني عشر: واو علامة المذكرين في لغة طيء أو أزد شنوءة أو بلحارث، ومنه الحديث : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكه بالنهار)، وقوله :

يلومونني في اشتراء النخيل أهلي فكلهم ألوم

وهي عند سيبويه حرف دال على الجماعة كما أن التاء في (قالت) حرف دال على التأنيث . وقيل : هي اسم مرفوع على الفاعلية، ثم قيل إن ما بعدها بدل منها . وقيل مبتدأ والجملة خبر مقدم . وكذا الخلاف في نحو : قاما أخواك، وقمن نسوتك ... وجوز الزمخشري في : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ [مريم 87] كون (من) فاعلا، والواو علامة »[88] .

فسيبويه إذن يعتبر الواو هنا علامة للجمع فحسب، لأن ما بعدها هو الفاعل، حملا على التاء الدالة على التأنيث، لأن (هند) هي الفاعل في مثل : قامت هند . وهكذا الأمر مع قاما أخواك، وقمن نسوتك، ونصٌّ

سيبويه في ذلك قوله : (واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومك، وضرباني أخواك، فشبهوا هذا بالتاء التي يُظهرونها في (قالت فلانة)،وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث...)[89]. وقد ذكر ابن جني ذلك أيضا، وزاده تفصيلا وتدقيقا، فقال : « وتزاد الواو في الفعل علامة للجمع والضمير، نحو : الرجال يقومون، ويقعدون، وتزاد علامة للجمع مجردة من الضمير في قول بعض العرب : أكلوني البراغيث »[90]، كما نجده يقول عن النون : « .. زيدت علما للجمع والضمير في نحو قولك : الهندات قمن، وقعدن، ويقمن، ويقعدن . وعلامة للجمع مجردة من الضمير، نحو : قعدن الهندات، ويقعدن أخواتك، في من قال ذلك، ومن أبيات الكتاب:

ولكنْ دِيافيٌّ أبوه وأمه بحَوران يعصرن السّليطَ أقاربُهْ

فهذه النون في يعصرن علامة للجمع مجردة من الضمير؛ لأنه لا ضمير في الفعل لارتفاع الظاهر به »[91] . ويقول عن ألف التثنية : « وقد زيدت الألف علامة للتثنية والضمير في الفعل نحو : أخواك قاما، وعلامة للتثنية مجردة من الضمير نحو قول الشاعر :

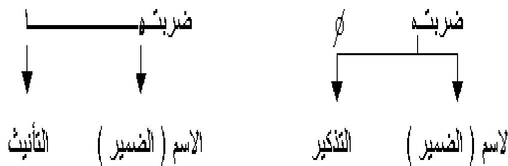
أُلْفِيتا عيناك عند القفا أوْلى فأوْلى لك ذا واقيهْ »[92] .

ولا يخفى على الدارس ما لهذا الكلام من صلة بنظرة النحاة إلى تقدم الفاعل على فعله، من كونه يبقى فاعلا، وتكون العلامة المتصلة بالفعل بعده دالة على عدده فحسب، أم أنه يصير مبتدأ، وتكون علامته إذن ذات وظيفة في التركيب (وهي الفاعلية)، والجملة بعد ذلك خبرا عنه .

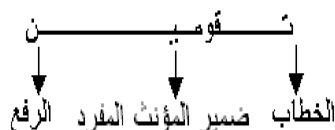
وعلى ذكر نون النسوة في الأمثلة السابقة فإن ابن هشام اعتبرها اسما – كما هي عند جمهور النحاة – خلافا للمازني في مثل : النسوة يذهبن، وحرفا في مثل : يذهبن النسوة، على لغة (أكلوني البراغيث)، خلافا لمن زعم أنها اسم وما بعدها بدل، أو مبتدأ مؤخر والجملة قبله خبره[93] .

والذي يهمنا في الأمر بعد هذا وذاك أن النحاة قد جعلوا الواو وغيرها تدل تارة على مجرد الجمع وسلبوها وظيفة الفاعلية، وجعلوها تارة أخرى تدل على الجمع وعلى وظيفة الفاعلية، وهي من المنطلق الأول تعتبر من الدواخل، ومن المنطلق الثاني وحدات دالة وظيفية . وعدم التفريق بينهما على الأساس الذي فرق بينهما به النحاة قد يؤدي إلى الارتباك لدى الناشئة والمتعلمين، ويفتح أمامهم الكثير من عوائق الدرس .

وكمثال أخير عن الدواخل والوحدات الدالة الوظيفية في العربية نجد – كداخلة – ألف التأنيث التي تزاد بعد الضمير، يقول ابن جني في ذلك : «ومن ذلك زيادتها بعد هاء الضمير علامة للتأنيث، وذلك نحو : رأيتها، ومررت بها، فالاسم هو الهاء، وأما الألف فزيدت علما للتأنيث »[94] . وبهذا تكون الهاء في نحو : ضربته، ومررت به، دالة على الاسم (الضمير)، وعلى التذكير، لأن عدم وجود علامة التأنيث (الألف) دليل على التذكير كما هو الحال في (قائم وقائمة) . ويمكن تحليل ذلك في الشكل التالي :



كما نجد – كوحدة دالة وظيفية – الياء التي تزاد علما للتأنيث والضمير في الفعل المضارع نحو : أنتِ تقومين وتقعدين وتنطلقين[95] . ويكون التحليل للدواخل والوحدات الدالة الوظيفية جميعا كما يلي :



وكملاحظة أخيرة نستطيع أن نزعم هنا أن ما يحدد الفاعل ليس الياء وحدها – في هذا المثال – ولا الواو في مثل : يكتبون، وتكتبون، لأن هذه الياء أو الواو إنما دلت على الإفراد والتأنيث أو الجمع والتذكير، وهذا جزء من صفات الفاعل، أما الصفة المكملة لمفهوم الفاعل فهي التاء الدالة على المخاطب في (تكتبين، وتكتبون)، والياء الدالة على الغائب في (يكتبون)، وبهما معا – أعني التاء والياء، أو التاء والواو، أو الياء والواو، يكتمل معنى الفاعلية نوعا وجنسا وعددا؛ وعلى هذا يمكننا اعتبارها دوال مقطعة في العربية كما أشرنا إلى ذلك سابقا . وقد تفطن القدماء كما رأينا إلى هذه الدلالات، ولكنهم من جهة الإعراب والتحليل لم يعطوا وظيفة الفاعلية إلا للياء أو الواو، ولعل ذلك راجع إلى كون الفعل في الماضي إذا أسند إلى الجماعة لم يدل على الفاعل إلا الواو، وذلك في مثل : ضربوا، كما أن الياء وحدها هي الدالة على الفاعل إذ أسند فعل الأمر إلى المفرد المؤنث المخاطب في مثل : اضربي .

وأخيرا – وليس آخرا – فإن لهذه الدراسة ما بعدها، والذي أرجوه أن تفتح أمام قارئها آفاقا أرحب نحو درس العربية، في ضوء معطيات علم اللسان الحديث، وأن لا يُكتفى بالوقوف على نقائص هذا البحث – الذي لا أدّعي فيه الكمال – بل أن يكمّلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يسبر أغوار تراثه، ولا يصدف عنه لا لشيء إلا لأنه تراث؛ فكم من ملاحظات أبداها أسلافنا تقف باعتزاز شامخة أمام أحدث النظريات في الغرب . وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى إهمال منجزات الغرب، بل إلى الاهتمام بها بقدر ما تساعدنا على دراسة لغتنا العربية وتطويرها .

هوامش الدراسة :

---

[1] أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي . دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية . 1992. ص 191 .

[2] انظر : يوسف الهليس، تطوير دراسة اللغة العربية من خلال مقابلتها باللغات الأخرى . مجلة المعرفة . العدد : 178 كانون الأول 1976 . دمشق . ص 162 وما بعدها

[3] أندريه مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة. تر: أحمد الحمو. المطبعة الجديدة، دمشق .1984-1985 . ص 7 .

[4] André Martinet, Eléments de linguistique générale . ARMAND COLIN . p14-15.

[5] انظر: ibid. P15-16 . ومبادئ اللسانيات العامة (الترجمة العربية ص19-20 .

[6] ibid. p16

[7] انظر ابن هشام الأنصاري، رسالة المباحث المرضية . ت : مازن المبارك. دار ابن كثير، دمشق . ط1. 1987. ص 34 .

[8] الزمخشري، المفصل في علم العربية . دار الجيل، بيروت . دون ط. ص 06 .

[9] ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى . ت : محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية، صيدا، بيروت . 1409هـ-1988. ص 17-18

[10] رضي الدين الاستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب. دار الكتب العلمية،بيروت. 1995. 1/5-6 .

[11] ابن جني، المنصف شرح كتاب التصريف للمازني . ت : محمد عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية، بيروت . ط1. 1999. ص 157-158 .

[12] ابن يعيش،شرح المفصل . ت: إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية، بيروت. ط1. 2001. 1/70-71.

[13] Eléments de linguistique générale, p102

[14] انظر : Eléments de linguistique générale, p102 . وانظر : p115

[15] ابن جني، الخصائص . ت: محمد علي النجار. المكتبة العلمية. دون ط. 3/98 .

[16] نفس المصدر 3/101 .

[17] Eléments de linguistique générale, p117

[18] انظر : Cheikh Boubakeur Hamza, Le Coran . ENAG/Edition, Alger, Algerie, 1989. 2/625

[19] انظر : سامي عيّاد، وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة . مكتبة لبنان ناشرون . ط1. 1997 ص 65.

[20] **انظر : نفس المرجع ص 3**

[21] Sadok mazigh, Le Coran . Maison Tunisie de l'edition . p 549

[22] Cheikh Boubakeur Hamza, Le Coran . 1/424

[23] انظر تفصيل ذلك في : القرطبي، الجامع لأحكام القرآن . ت : أحمد عبد العليم البردوني . دار الشعب، القاهرة . ط2. 1372هـ . 10/364 . والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . دار الفكر، بيروت . دون ط . 3/272 . و العكبري، التبيان في إعراب القرآن . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . 2001. 2/141.

[24] ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.ت:محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت . 1995. 2/687 .

[25] شرح الكافية 1/5 .

[26] انظر : Eléments de linguistique générale, p104

[27] ibid. p18-19

[28] الخصائص 1/106 . وانظر ص 102 قبلها .

[29] الفيومي ، المصباح المنير، مكتبة لبنان . بيروت ، لبنان .1990. ص88 . مادة (ر غ ب).

[30] انظر : الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن . دار الفكر، بيروت . 1405 هـ . 303/5-304 .

[31] الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر . 1984. 213/5 .

[32] انظر : Eléments de linguistique générale, p169-170

[33] انظر : ibid. p93-94

[34] ابن سينا، الإشارات والتنبيهات . ت : د. سليمان دنيا . دار المعارف، القاهرة . ط 3. 1983. 143/1.

[35] شرح الكافية 03/1 .

[36] انظر : التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون . ت : أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية، بيروت . ط1. 1418هـ- 1998م . 185/2 وما بعدها. و413/3 وما بعدها .

[37] نفس المصدر 414/3 .

[38] انظر : نفس المصدر 185/2 بتصرف .

[39] السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو . دار الكتب العلمية، بيروت . دون ط . 113/1-114 .

[40] ابن السراج، الأصول في النحو . ت : عبد الحسين الفتلي . مؤسسة الرسالة، بيروت . ط3. 1417هـ-1996 . 56/1 .

[41] الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد . ط 1982. 310/1 .

[42] نفس المصدر 312/1 .

[43] المصباح المنير.ص 170. مادة (ب ر ص) .

[44] انظر: شرح المفصل 71/1

[45] ابن جني، سر صناعة الإعراب. ت: د. حسن هنداوي. دار القلم، دمشق. ط1. 1985. ج1 ص 305–306 .

[46] الإنصاف في مسائل الخلاف 1/261- 262 .

[47] نفس المصدر 1/ 264–265 .

[48] سيبويه، الكتاب . ت: عبد السلام محمد هارون . دار الجيل، بيروت . ط1. 5/3 .

[49] نفس المصدر 220/4 .

[50] ابن جني، سر صناعة الإعراب . ت : د. حسن هنداوي . دار القلم، دمشق . ط2. 1413هـ– 1993. 1/305–306 .

[51] Eléments de linguistique générale, p124-125

[52] انظر: ابن هشام الأنصاري،أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. دار الجيل، بيروت.ط5. 1979. 11/1.

[53] ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب . ت : ح . الفاخوري . دار الجيل، بيروت . ط1. 1408هـ–1988م . ص: 34 .

[54] الخصائص 331/2 .

[55] ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . ت : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر، دمشق . ط2. 1985. 14/1 .

[56] انظر : أوضح المسالك 217/1 .

[57] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب 693/1 .

[58] التبيان في إعراب القرآن 2 /36 .

[59] شرح شذور الذهب ص 184 .

[60] شرح ابن عقيل 244/1 .

[61] نفس المصدر 246/1 .

[62] انظر : الخصائص 370/2–371 .

[63] Eléments de linguistique générale, p176-177-178

---

[64] انظر : ibid. p187-188

[65] فخر الدين قباوة،الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد . مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان . ط1. 2001. ص 31-32 .

[66] نفس المرجع ص 41 . وانظر : الخصائص 149/3 وما بعدها.

[67] انظر : نفس المرجع ص 41 وما بعدها، وص 157 وما بعدها.

[68] نفس المرجع ص 98 .

[69] مبادئ اللسانيات العامة (الترجمة العربية) ص 177 .

[70] فاضل مصطفى الساقي، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة . مكتبة الخانجي، القاهرة . 1977. ص 273 .

[71] p187

[72] ibid. p175

[73] انظر : أقسام الكلام العربي ص 308 وما بعدها .

[74] نفس المرجع ص 343 .

[75] نفس المرجع ص 344 .

[76] نفس المرجع ص 382 .

[77] انظر : نفس المرجع ص 394 .

[78] الأنباري، الأضداد . ت : محمد أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية، صيدا،بيروت .1991. ص 2 .

[79] انظر : Eléments de linguistique générale, p122

[80] ibid. p122-123

[81] انظر : الخصائص 35/1 .

[82] شرح الكافية 200/1 .

[83] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة . ط 3. 1998. ص 232 .

[84] انظر : نفس المرجع ص 181-182 .

---

[85] نفس المرجع ص 212–213 .

[86] انظر : سر الصناعة 695/2 .

[87] نفس المصدر 708/2 .

[88] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب 423/2 وما بعدها .

[89] سر الصناعة 629/2 .

[90] نفس المصدر 446/2–447 .

[91] نفس المصدر 718/2 .

[92] انظر : المغني 397/2 .

[93] سيبويه، الكتاب . ت : عبد السلام محمد هارون . دار الجيل، بيروت . ط1. 40/2

[94] سر الصناعة 726/2 .

[95] انظر : نفس المصدر 769/2 .

النص القرائي بين المرغوب فيه والمنجز
-النص الوصفي آنموذجا-

أ. مليكة بوراوي

جامعة عنابة

المقدمة: يعاني المتعلمون في الجزائر وفي أقطار عربية أخرى عجزا في تحليل النصوص ، ويشعرون بملل كبير من تناولها ، لأنها تدرس بطريقة واحدة ومتشابهة والسؤال المطروح : هل يمكن بعد ظهور هذا التراكم المعرفي (كاللسانيات النصية والتداولية والدراسات السيكولسانية) أن نؤثث ذاكرة المتعلم بأصناف مختلفة من النصوص القرائية وطرائق مبتكرة من التحليل ؟

يقتضي هذا التراكم المعرفيّ الذي تشهده مختلف العلوم المرجعية ألا يكون التعليم قائما على تلقين المعارف ، وإنما يحثّ على تدريب المتعلم على البحث عن المعرفة وعلى تحويله – أي المتعلم – من ذات محاكية إلى ذات تبني عالمها؛ باعتماد هذه المعارف المرجعية التي تسهم اليوم في بناء مناهج التعليم ومضامينه ووسائل تطبيقها في مختلف مراحل التعليم . ولكن تبقى إشكالية كيفية تحويل العلوم المرجعية إلى معارف مدرسية –

دون الانحـراف عـن المرجعيـة العلميـة – ضـمن اهتمامـات وانشـغالات المختصـين فـي التعليميـة ، بمعنـى آخـر كيفيـة انتقـال المعرفـة مـن إطارهـا العلمـي الإبستمولوجي إلـى الإطـار التعليمـي المدرسـي ، وهـو مـا يعبّـر عنـه بالنقل التعليمي (Transposition didactique) .

النقل التعليمي للنصوص القرائية[1] :

أ – النقل التعليمي La transposition didactique :

تهتم التعليمية [2] (la didatique) بنقل المعارف الإبستمولوجيا إلى معارف مدرسية نقلا يأخذ بعين الاعتبار أقطاب العملية التعليمية : المعلم، والمتعلم، والمادة .

والنقل التعليمي (Transposition didactique) مفهوم من مفاهيم تعليمية الرياضيات شاع على يد الباحث إيف شفلار Yves Chevallard ، ويقصد به « العملية التي يتمّ بها الانتقال بالمعارف الرياضية من مستوى معارف علمية دقيقة ينتجها المختصون إلى مستوى معارف علمية قابلة للتعليم والتعلم » [3] ، ثم استثمر هذا المفهوم في باقي المواد التعليمية، وبات يعني « مجموعة التحولات التي تطرأ على معرفة معينة في مجالها العالم ، من أجل تحويلها إلى معرفة تعليمية قابلة للتدريس » [4] .

وتمر هذه المرحلة القابلة للتدريس بمراحل هامة ، وهي :

- المعارف الخالصة (les savoirs savants) .
- المعارف المقررة (les savoirs à enseigner) .
- المعارف المدرّسة (les savoirs enseignés) .

– المعارف المكتسبة (les savoirs acquis) .

ويمكن اختزال هذه المعارف في معرفة عالمة ومعرفة تعليمية ، بعد أن « يطرأ على المحتوى المعرفي – عندما يختار كمحتوى للتعليم – تحولات تجعله متكيفا ، وقابلا لأن يحتل موقعا ضمن موضوعات التعلم » [5] . ومن المقاييس التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في إعداد المعرفة المتعلمة أو التعليمية :

1 – انتقاء العناصر المعرفية الأساسية الملائمة للمستوى الإدراكي للفئة المستهدفة .

2 – اختيار لغة واصفة مفهومة من قبل المتعلمين .

3 – توزيع المحتوى التعليمي على خطوات التعلم [6] .

1 – انتقاء العناصر المعرفية الملائمة للمستوى الإدراكي للفئة المستهدفة :

ويتمّ ذلك من خلال ضبط المواضيع والمفاهيم المراد تدريسها ، لأن المتعلم « ليس باحثا متخصصا، فنحن لا نمده إلا بالحد الأدنى الأساسي .. ولذلك، علينا أن نقوم بنقل المعارف الأساسية التي نريد تعليمه إياها حسب قواعد وشروط معينة » [7] .

ولعل من بين هذه الشروط انتقاء المعرفة المراد تدريسها وتبسيطها ، حتى تكون في متناول المتعلم « ويثير هذا التبسيط مشكلات ذات نظام إبستمولوجي تتمثل بالأساس في حل التناقض التالي: وهو إيجاد معرفة متعلمة قريبة المأخذ من مدارك التلاميذ، وقريبة بما فيه الكفاية من المعرفة

العالمة . ويقوم حل هذا التناقض على البحث في عملية النقل على ما يسميه شفلار بالثابت l'invariant الذي يربط بين المعرفتين " العالمة " و" المتعلمة " ، ويعطي لهذه الأخيرة شرعية الانتماء للأولى » [8] .

2 – اختيار لغة واصفة مفهومة من قبل المتعلمين :

لا يمكن تمثل هذا الكم من المعرفة من قبل المتعلمين كما هو في صورته ، لأنه يتميز بالتعقيد والتجريد ، كما « أن المعرفة العالمة لا تحدد الأهداف التعليمية بجميع مستوياتها ، فهي تحدد الأهداف العامة ، وتترك الجزئيات لعمل الإنسان » [9] .

ومن بين هذه الجزئيات ، ارتجال لغة واصفة واضحة في أذهان المتعلمين ، ولكن هذا لا يمنع من مواكبة المعرفة العلمية التي يجب أن تبقى المصدر الأساس الذي تستقى منه المعرفة التعليمية .

3 – توزيع المحتوى التعليمي على خطوات التعلم :

يتطلب القيام بعملية النقل من المعرفة العالمة إلى المتعلمة إنتاج طريقة للتدريس مبنية على استراتيجية تعليمية دقيقة ومبادئ هامة، أهمها:

أ – الانتقاء الممعن للعناصر التي تتكون منها المادة المعينة ، فهي بالنسبة إلى اللغة : الألفاظ ، والصيغ ، مع ما تدل عليه من معان في الوضع وفي الاستعمال .

ب – التخطيط الدقيق لهذه العناصر ، أي توزيعها المنتظم حسب المدة المخصصة لها، وعدد الدروس .

ج – ترتيبها ووضعها في موضعها في كل درس ، بحيث تتدرج بانسجام من درس إلى آخر .

د – اختيار كيفية لا تقل نجاعة عن السابقة لترسيخها في ذهن المتعلم، وخلق الآليات الأساسية ، التي يحتاج إليها ليحكم استعمالها بكيفية عفوية [10] .

أما آليات نقل المعرفة ، فتبتدئ من المعرفة العالمة ، وتمر عبر عمل الباحث المتخصص ، الذي يقوم باختيار وانتقاء المضامين المهيأة للتدريس ، لتنتقل إلى المدرس الذي يمارس المعرفة المدرسة التي تتحول (تنتقل) إلى التلميذ ، وذلك عبر مجموعة من الآليات والمواصفات .

<u>ب – النقل التعليمي للنصوص القرائية :</u>

عرفت المعرفة في مجال دراسة النص تحولات ، من بينها ظهور مفاهيم جديدة حول القراءة والنص .

أما القراءة ، فتعني « سلسلة من الممارسات التي يجب التمييز بينها بمنتهى الدقة ، وتتدرج من فك الخط déchiffrage إلى التأويل exégès ، ومن التتبع السريع للمقروء إلى التحليل أو ذاك ، والمستمد من ممارسة هذا المتخصص أو ذاك » [11] .

فلم تعد القراءة تعني اكتشاف معنى مختبئ داخل نصوص، وإنما هي « ممارسة تعيد خلق المعنى، أو بعبارة أدق تعيد بناء معنى مفترض ومتوقع في أثر الذات القارئة وتأويله » [12] . وحتى يتم هذا البناء بصورة جيدة وفعالة ، يجب عليها – أي الذات القارئة – أن تتسلح بمختلف الوسائل

المعرفيـة التـي امتلكتهـا واستضـمرتها ، وتمثلتهـا أثنـاء تجاربهـا وخبراتهـا المتعددة . ومن جهة أخرى ، فإن البنيات اللسانية النحوية ليست كافية وحدها للوصول إلى تعلم القراءة، بل إن هناك عناصر ومكونات أخرى تتدخل مثل العلاقات السياقية، ونوايا القارئ وأهدافه، والتوزيع المادي للكلمات داخل الملفوظ ، مما يستدعي الاستفادة مما تمدنا به حقول معرفية غير النحو والصرف، مثل لسانيات النص والتداولية، والدراسات السيكولسانية [13]، وبذلك يمكن أن نقول : إن الذات القارئة حققت ما يمكن أن نسميه بالقدرة القرائية أو القدرات القرائية (les compétences lectorales) اللازمة لفهم النصوص ، كالتعرف على البنية الكلية للنصوص، والقدرة على تصنيف النصوص (سردية ، ووصفية، وحجاجية، وحوارية)، وإدراك التقطيع الداخلي للبنيات النصية ، والتشابه، والاختلاف بين مختلف النصوص .

ويعد مفهوم النص أيضا (le texte) من الموضوعات الهامة في الدراسات الحديثة ، التي يعتمد عليها في تفكيك النصوص القرائية ، على الرغم من صعوبة تحديده (مفهومه) ، مع العلم أنه حظي باعتناء المنظرين ، وتزاحمت الأسئلة حوله حتى غدا مشروعا لا ينتهي، كما شهدت النظريات المهتمة به تطورا ملحوظا ، وبخاصة بعد ظهور " لسانيات النص" ، التي وسعت مفهوم القدرة اللغوية (la compétence linguistique) عند الباحث اللغوي تشومسكي، (chomsky) لتتجاوز حدود الجملة إلى ميدان النص .

« اقترح اللسانيان هاليدي (Halliday) ورقية حسن تصورا لدراسة النص، وقد اتفقا مع بنفنيست (Benveniste) في القول : إن النص ليس وحدة نحوية كالجملة ، فالنص ليس جملة كبيرة، فهو وحدة ذات طبيعة دلالية أخرى : وحدة استعمال اللغة أكثر دلالية . فالنص لا يعرف انطلاقا من حجمه ، إذ يكون كلمة بسيطة ، أو جملة بسيطة أو مجموعة من الجمل ، أو رواية مطولة، بقدر ما يلفظ في مقامات اتصالية » [14].

لا يكفي أن تتوالى مجموعة من الجمل حتى نسميها نصا ، فلا بد من توافر عنصر الترابط الشكلي والدلالي لتحقيق معنى جامع ، ولكي يكون النص نصا يجب أن يتوفر فيه مبدأ الاتساق (cohésion) ، أو الترابط أو التضامّ ، والذي يهتم عادة بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة للنص، ومبدأ الانسجام (cohérence) « الذي يتجاوز الترابطات الشكلية إلى الترابطات والعلاقات الدلالية ، فيرصد وسائل الاستمرار الدلالي في عالم النص » [15] . وبالتالي ، فإن الترابط الدلالي وكذلك الشكلي هما المحرك الأساسي ، الذي تدور حوله نصية النص والعاملان الأساسيان في إثبات اتساقه وانسجامه .

كما يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى ، أي عملية تناص (intertextualité) « ففي فضاء النص تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى، مما يجعل بعضها يقوم بتحديد البعض الآخر أو نقضه[16] » . وهذا التقاطع أو هذه الاقتباسات قد تكون عن وعي وعن غير وعي ، مما يجعل دلالة النصوص بلا حدود ، ومما يتطلب متلقين متنوعي القراءة.

فالنص « كيفما حاولنا ضبط حدوده ، يتوجه إلى المتلقي قصدا أو عفوا يستفزه ويستنفره ، يغريه ويغازله . إنه ينتسب إلى مبدع يحاول قدر الإمكان أن يمتلك نصه [17]» ولكنه – أي النص – يولد وهو يتضمن قارئه أو ناقده ، فيقدم نفسه للقراءة والتأويل .

مجمل القول : أن النص لم يعد مجرد وثيقة كما ذهبت إلى ذلك القراءات القديمة ، بل هو نسيج لغوي تلتقي فيه خيوط كثيرة (الصوت والتركيب والصرف والمعجم والدلالة و...) بينها علاقات عدة : تداخل، وتفاعل، وتجاور ، مما يحقق للنص تماسكه وانساجمه .

<u>واقع تدريس النص القرائي في المدرسة الثانوية</u> :

من خلال تصفحنا لكتاب"المختار في الأدب والنصوص" السنة الثالثة ثانوي الشعبة الأدبية ، لاحظنا أنه يتبع منهجية واحدة في تحليل النصوص، نلخصها فيما يلي:

– التعريف بصاحب النص وشرح مناسبة النص ، ثم عرض النص مضبوطا بالشكل .

– استخراج الفكرة العامة والأفكار الجزئية، ثم شرح المفردات شرحا معجميا – غالبا.

– شرح عام للأفكار الموجودة في النص مباشرة بعد شرح المفردات.

– نقد الأفكار ، ويتم فيه تحديد الغرض والموضوع الذي يعالجه صاحب النص ، وتقويم هذه الأفكار ، من حيث الجدة، والقدم ، والعمق ، والغموض ، والبساطة، والتعقيد، والسطحية .

– العاطفة : صادقة– قوية – جياشة – غاضبة .. الخ .

– الأسلوب : تتردد عبارات معهودة في دراسة أغلب النصوص : أسلوب جزل قوي ، ألفاظ النص وعباراته عذبة رقيقة موحية ، ثم التركيز على الأسلوبين : الخبري والإنشائي ، دون استثمار مفهومهما في تحديد المعاني وتوضيحها ، ثم يتم فيه – أي في دراسة الأسلوب– تحديد بسيط للصور البيانية والبديعية ، من دون استثمار الدرس البلاغي النظري في توضيح جماليات هذه الصور .

– الأحكام والقيم : إطلاق أحكام عامة على النص والأديب ، انطلاقا من عناصر التحليل السابقة ، كما يشار إلى القيم التي يتضمنها النص (إنسانية وفنية واجتماعية وخلقية الخ ..) .

– يختتم هذا التحليل بمجموعة من الأسئلة التطبيقية التي تعرض إليها المتعلم غالبا أثناء شرح النص .

أ – حللت هذه النصوص بطريقة واحدة متشابهة ، وعَوّدت المتعلمين تكرار عبارات جاهزة « فالتلميذ لا يشعر بالفرق بين النصوص ، لأن التحليل المقترح عليه لا يظهر خصائص كل نص بشكل بارز ومميز، سواء من ناحية العرض (الشكل) أم المفردات أم التركيب أم الدلالة أم الهيكلة العامة » [18] . مع العلم أن أغلب المتعلمين يختارون في شهادة الباكالوريا تحليل النصوص ، لاعتقادهم أنها سهلة التناول ، ويكفيهم محاكاة الخطوات الواردة في كتاب النصوص ، بل حفظ نموذج (نص) من الكتاب لتقليده في الاختبار .

ب – يغيب التصنيف في النصوص ، ونعني به تجميع النصوص المتجانسة (وصف ، وسرد وحجاج ، وحوار ...) في خانة واحدة أو اسم واحد ، ولا يخفى على البيداغوجيين أن التصنيف من المبادئ الهامة التي تقوم عليها العملية التعليمية ، وله وظائف بيداغوجية عدة ، منها مساعدة المتعلمين على تنظيم معلوماتهم ، وحسن انتقاء النصوص التي تلبي حاجياتهم وإقدارهم على حسن التلقي والإنتاج ، كما يخلق – أي التصنيف – معايير ومقاييس محددة في ذهن المتعلمين، تساعدهم على التمييز بين مختلف النصوص (فتبدو لهم خصوصيات كل صنف من النصوص واضحة من حيث البنية والنوع والأفكار) ، وهذا يستلزم – لا محالة – « طريقة مختلفة عن الأخرى في تحليل هذه الأصناف ، مما يبعد الملل والسآمة عن المعلم والمتعلم، ويخلق قراءً متنوعي القراءة » [19] .

ج – اقتصرت عملية إقراء النص القرائي على الشرح اللغوي وإعادة صياغة التركيب ، وعزل الأفكار وتلخيصها في جمل .

د – يرتكز تعليم النصوص على تعليم الجملة لا النص ، ويبدو ذلك جليا من خلال الأسئلة الموجهة في آخر النصوص (أو ما يسمى بالتمارين التطبيقية) ، إذ يبدأ المعلم من النص ، وينتهي إلى جمل مستقلة لا رابط بينها يؤلفها المتعلم (الإجابة عن الأسئلة المطروحة) .

ولقد أثبتت التجربة أن « لديداكتيك الجملة الأثر السيء في إنجاز التلاميذ ، تمثلت بالخصوص في صعوبة الإلمام بالنص في شموليته ، وفي صعوبة صياغة نص لغوي متماسك ، يتكون من عشرة أسطر على الأكثر » [20] .

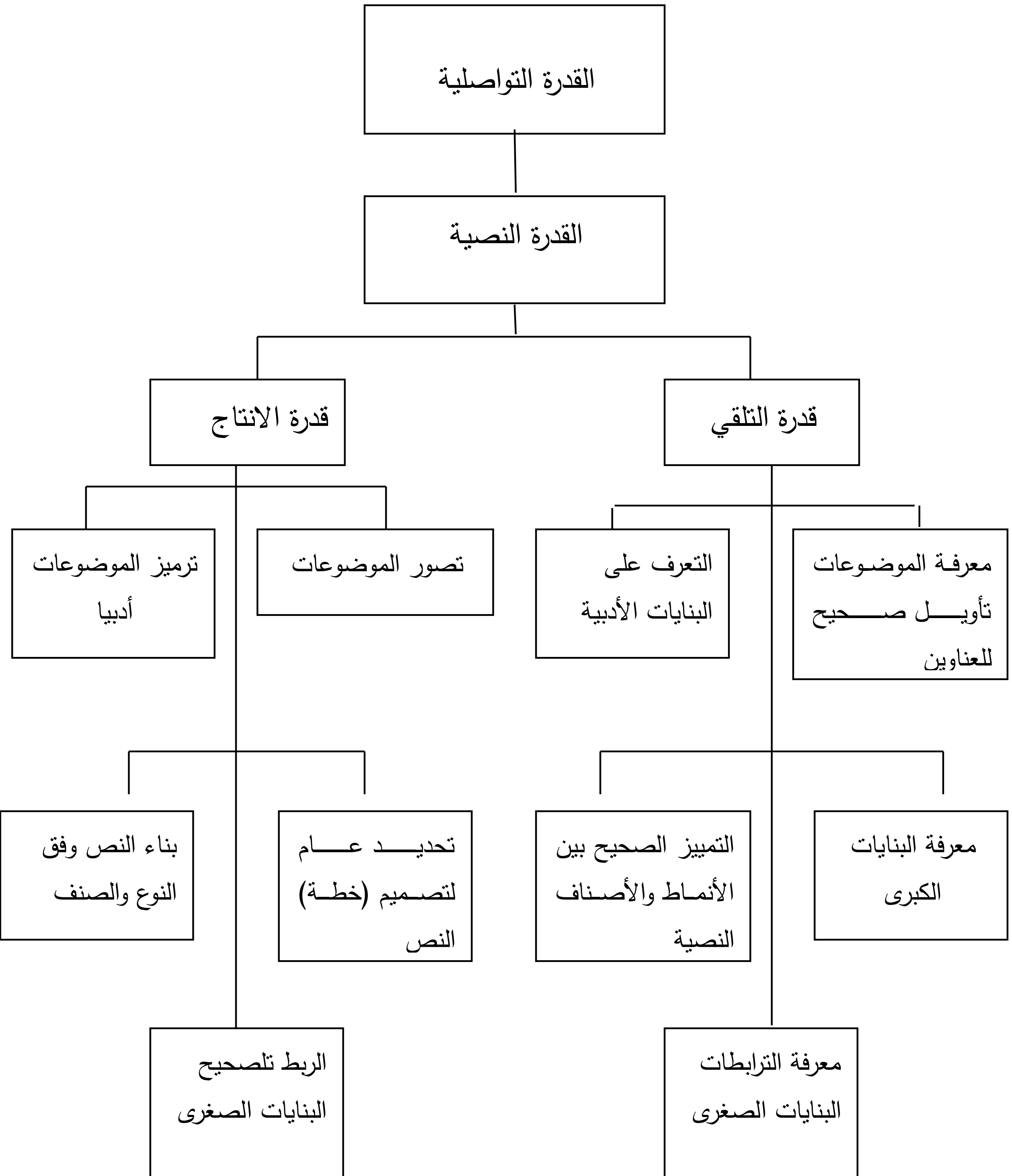
هـ – لا يستثمر المتعلم معارفه النحوية والبلاغية والعروضية في تفكيك النص وتعميق دلالته لأن التحليل لا يعني الشرح اللغوي ، وإنما بناء المعنى من خلال النظر في كافة مستوياته اللغوية .

و – يبدو المعلم مجرد ناقل للمعلومات الموجودة في الكتاب ، فقد تحول إلى مجرد مستهلك للكتب المدرسية ، يثق كثيرا بتلك المعارف التي تتضمنها تلك الأجهزة البيداغوجية ، ولا يكلف نفسه عناء البحث وتدقيق المعارف ، مما يبعده عن المعارف العلمية ، وعن منظومات الاستعمال .»[21]

– نحو منهجية لتدريس النص القرائي :

ما الهدف من تدريس النص ؟

تجمع أغلب الدراسات في تعليمية النصوص على أن الهدف من تدريس النص يكمن في إكساب المتعلم قدرة افتراضية تدعى القدرة النصية (la compétence textuelle) ، ومما جاء في تعريفها : « قدرة الفرد على فهم الأقوال وإنتاجها في مواقف تواصلية. فنحن رغم توظيفنا للجمل في تبادلاتنا ، نستعمل في الواقع نصوصا ، لأن هذه الجمل ليست معزولة ، بل لها ارتباط بجمل سابقة أو لاحقة، وتحيل على مراجع معينة ... ولذلك ، فإن فهم هذه الجمل التي تظهر في شكل مقاطع يتطلب إدماجها ضمن كلية نصية، لتحديد العلاقات المستترة والمواقع التواصلية والمراجع الإحالية [22]» . إنها قدرة تسمح للمتعلم بإنتاج نصوص تحضر فيها مواصفات الاتساق (cohésion) والانسجام (cohérence)، ويمكن أن تفصل هذه القدرة في المخطط الآتي[23] :


القدرة التواصلية
القدرة النصية
قدرة التلقي
قدرة الانتاج
معرفة الموضوعات تأويل صحيح للعناوين
التعرف على البنايات الأدبية
تصور الموضوعات
ترميز الموضوعات أدبيا
معرفة البنايات الكبرى
التمييز الصحيح بين الأنماط والأصناف النصية
تحديد عام لتصميم (خطة) النص
بناء النص وفق النوع والصنف
معرفة الترابطات البنايات الصغرى
الربط لتصحيح البنايات الصغرى

ويتم تحقيق هذه القدرة من خلال الاحتكاك بمختلف النصوص داخل القسم ، مما يسمح للمتعلم باستضمار مجموعة قواعد عن طريق الممارسة اللاشعورية .

آثرنا أن نتناول بالدراسة مقطعين من نص " طبيعة الاستبداد وآثاره" (للكواكبي) من كتاب المختار في الأدب والنصوص (السنة الثالثة ثانوي – الشعب الأدبية)

" **النص** "

« ما أشبه المستبد ، في نسبته إلى رعيته ، بالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء يتصرف في أموالهم وفي أنفسهم كما يهوى ، ما داموا قاصرين ! ، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم .

لا يخفى على المستبد ، أن لا استعباد ولا اعتساف ، مالم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلام جهل وتيه عماء ، فلو كان المستبد طيرا لكان خفاشا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل . العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحا للخير فضاحا للشر، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة » [24].

يندرج الموضوع المختار ضمن "النص الوصفي"، وسنحاول اكتشاف خصائصه انطلاقا من مقدمة في تحليله بطريقة مغايرة ، لما ورد في كتاب المختار في الأدب والنصوص .

يمكن الرجوع إلى حياة الأديب (الكواكبي) ، والوقوف عند المحطات الهامة (في حياته)، التي تساهم في توضيح بعض دلالات النص (من دون إسهاب) .

أما شرح المفردات فيمر عبر مرحلتين :

المرحلة الأولى : الشرح العام للكلمة أو التعبير .

المرحلة الثانية : الشرح بالرجوع إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة أو العبارة .

فمثلا جاء في تعريف الوصي (في كتاب القراءة) : « من يدير أموال اليتيم بعد موت أبيه » [25] . ومن المفروض أن تكون الانطلاقة الأولى من المعنى العام ، وهو الوصي من يتولى شؤون القاصر ، ثم نربط الكلمة بالسياق الذي وردت فيه،وهو إدارة أموال اليتيم بعد موت أبيه.

وعرفت الكلمة الهوام بـ الحشرات والزواحف [26] ، إنه تعريف غير كافٍ، لأنه غير مرتبط بالنص ، ولتكن الإضافة الآتية لهذا التعريف، ويعنى بهم عامة الناس وفيها احتقار واستصغار لشأنهم ، وبهذا التعريف يكتسب المتعلم المعنى المعجمي والسياقي في آن واحد .

– قراءة التبئير Lecture de focalisation :

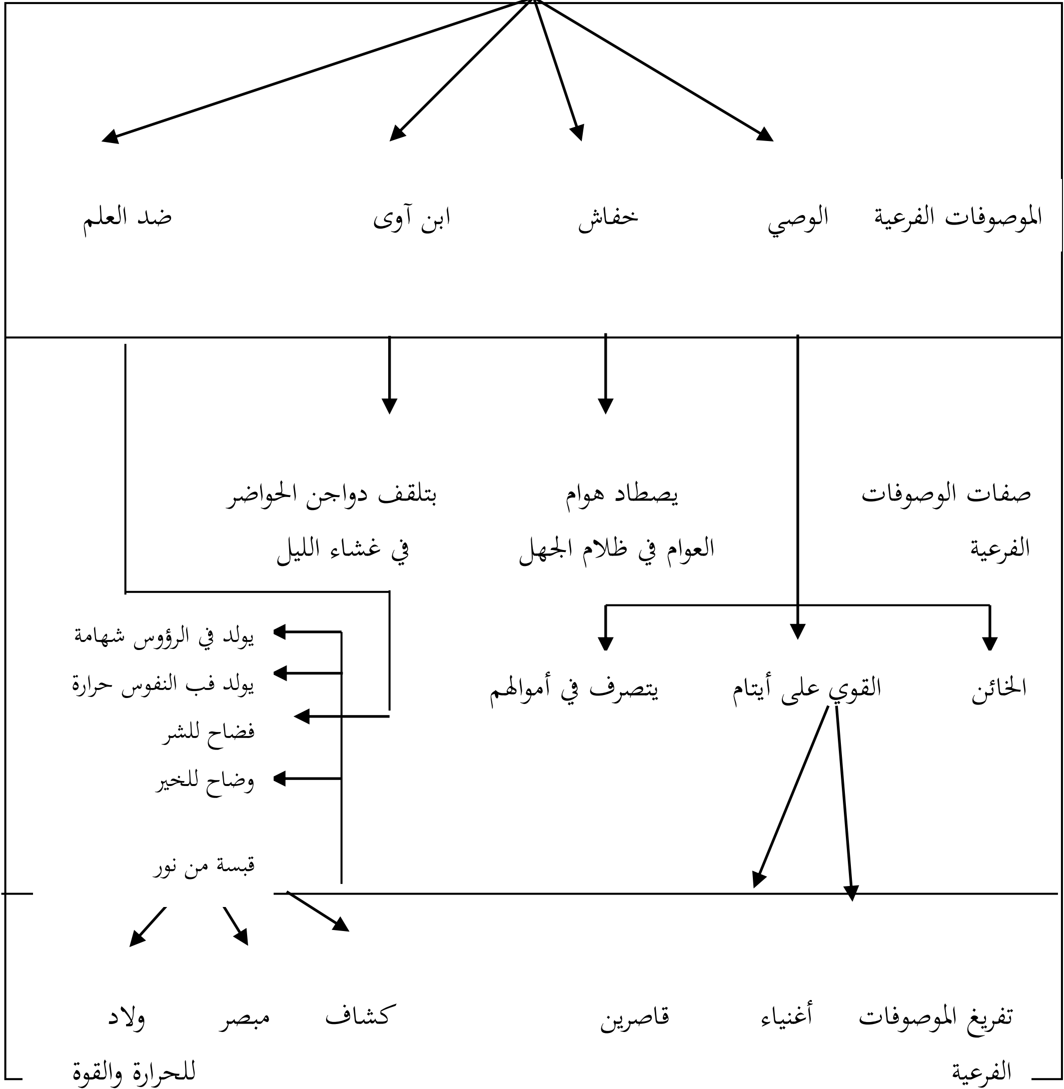
وهي التي توقف المتعلم عند الوحدات المقطعية في النص ، وذلك من خلال جرد عناصر الموضوع الموصوف وإثباتها في جدول ، يسجل فيه الحيز الذي استغرقه كل عنصر في فضاء النص :

المقاطع النصية (séquences)	حيزها	الموصوفات
المقطع الأول	من ما أشبه المستبد ... إلى دواجن الحواضر في غشاء الليل	المستبد الوصي الخائن الرعية الخفاش ابن آوى
المقطع الثاني	من المعلم .. إلى الرحمة وما هي لذاتها .	العلم

<u>الخطاطة الوصفية ونظام الوصف</u> :

ومن خلالها نوجه المتعلمين إلى الكيفية التي تتكون بها الموصوفات، وتتداخل وإقدارهم على استضمار النظام المشجري للنص الوصفي ، القائم على الانتقال من العام إلى الخاص، كما لا يخفى على أحد أن التشجير أو التفريع عمل منهجي في الشرح: يقسم النص إلى عناصر صغرى ، تنضوي تحت بنية كبرى، مما يسمح للمتعلم بإدراك العلاقات الرابطة بين المعاني الفرعية والمعنى الرئيسي، والربط كذلك بين موصوفات منتمية إلى موصوف واحد، ويمكن أن نشجر المقطع الأول والثاني من نص "طبيعة الاستبداد وآثاره" كما يلي:

الموصوف الرئيسي:



خطاطة وصفية للمقطعين الأول والثاني

من نص طبيعة الاستبداد وآثاره (للكواكبي)

لعل أول شيء سيكتشفه المتعلم (من خلال هذا التفريع) هو كيفية نماء النص الوصفي، وذلك بانتقاله من العام إلى الخاص ، عن طريق إعلانه عن الموضوع الرئيس في مقدمة النص ، ثم تفريعه إلى موضوعات فرعية، ثم إسناد مجموعة من النعوت إلى الموصوفات الفرعية [27]، وبذلك يستضمر المتعلم قواعد خصائص النص الوصفي، ويتمكن من القدرة على التلقي ، وذلك من خلال فهم الموضوع، وإدراك بنيته الكلية، والترابط بين البنيات الفرعية .

ولمزيد من التوسع في إدراك خصائص النص ، يمكن الوقوف على مستوياته اللغوية كأن ينبه المعلم المتعلمين إلى أن الأديب اختار معجمه بدقة، فمن الحيوانات التي اختارها لتشبيه المستبد بها "الخفاش" و"ابن آوى" ، واقتصر في حديثه عنهما على الخصائص الهامة التي تميزهما: فمن المعروف أن من خصائص " الخفاش" النظر في الظلام ، ولذا فإنه لا يصطاد فريسته إلا في الليل ، فربط الكاتب ربطا جيدا بين " الخفاش" الذي يبصر (ليلا) وينقضّ على فريسته (ليلا) ، والحاكم المستبد الذي يرغب في تطويق شعبه في ظلام الجهل، واختار (الكاتب) ابن آوى ، ومن خصائصه الغدر والمكر، فهو يتسلل إلى الدواجن في ظلام الليل لاصطيادها ، فكذلك المستبد فمن شيمه الغدر بشعبه، والزج به في ظلام الجهل والعبودية.

لقد أفلح الكاتب في اختيار خصائص المشبه به (الحيوان) ، إذ ركز على « خصائص النوع مما يفرض في عملية الوصف انتباها مضاعفا »[28].

كما استعمل مفردات تعبر بقوة ووضوح عن تشبعه بالثقافة الإسلامية، مثل "الوصي على أيتام أغنياء يتصرف في أموالهم [29]... ما داموا قاصرين" التي أحالنا مباشرة على الآية الكريمة { إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} [30].

أما في المستوى الصرفي ، فيلفت المعلم انتباه التلاميذ إلى استعمال الكاتب للزمن الحاضر (صيغة المضارع) ومن أمثلته : " يتصرف في أموالهم " ، " يبلغ الأيتام رشدهم " ، "وتخبط في ظلام ، " يصطاد هوام العوام " ، " يتلقف دواجن الحواضر " ... [31].

المضارع مرتبط بالوصف ، عكس السرد المرتبط غالبا بالماضي . ولمعرفة خصائص النظام التركيبي ، يمكن الإشارة إلى الاستعمال المكثف للصفات (مما يتماشى مع خصائص النص الوصفي) ، وغلبة الجمل الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار ، عكس الجمل الفعلية الدالة في غالبا على الحدوث والتجدد . ولذا ، يستحسن في شرح النص التركيز على هذه الجمل الاسمية ووظيفتها البلاغية في تمثيل الموصوفات تمثيلا إبلاغيا أو بلاغيا .

وفي المستوى البلاغي ، يلمح المعلم إلى أهم صورة تتماشى والوصف ، وهي التشبيه لأنه مدخل رئيس لدراسة الوصف ، وفيه يقول أبو هلال العسكري : « إن التشبيه هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه » [32] .

وتستخرج التشبيهات بمعية المتعلمين ، مثل : تشبيه الحاكم المستبد بالوصي الخائن ، وبالخفاش وابن آوى ، وتشبيه عوام الناس بالحشرات لبيان

استصـغار شـأنهم لـدى الحـاكم ، وتشـبيه العلـم بقبسـة نـور ...الـخ . وحـين اسـتكمال اسـتخراج هـذه الصـور البيانيـة، يـتم توجيـه المتعلمـين إلـى الـذات الواصفة (الأديب)، وقدرتها اللغوية والبلاغية في تمثيل ما تذهب إليه من آراء وأفكار (لإقناع المتلقي) ، رغم عدم توغلها في كثرة التفاصيل ، وهي خاصية هامة من خصائص النص الوصفي . وفي هذا السياق، يقول جون ميشال آدم (J.M. Adam)« يؤدي طول الأجزاء الوصفية إلى نتائج وخيمة على تناسق النص ولذة القارئ ... ويرى أبلاط (Ablat) الرأي نفسه ، إذ يقول: فأفضل وصف ليس الذي يقدم أشياء كثيرة ، وإنما الذي يعطيك أقوى إحساس ، فليست الغاية جمع التفاصيل » [33] .

وختاما لتحليل الموضوع ، يطلب من المتعلمين تلخيص النص (contraction du texte) ، والهدف منه « إكساب المتعلم القدرة على الفهم ، وترتيب الأفكار ، واختيار الأساسي منها ، والتحليل ، والتركيب ... »[34] أو إعداد. أو إعداد مجموعة من التمارين (شفوية وكتابية)، تحملهم مثلا على تعويض بعض الخصائص ، أو حذفها (الموجودة في النص) أو تدريبهم.أو تدريبهم على تفكيك بنية النص وإعادة بنائها، بالاستناد إلى مجموعة من القدرات التي يراد تنميتها (كالقدرة اللغوية). ولتحقيق هذه الغاية ، يجب أن يكون المعلم متمكنا من المعرفة الوصفية موضوع التعلّم (محتواها، قاعدتها الإبستمولوجية، استعمالاتها في الخطاب اليومي ...)، حتى يتمكن من خلق وضعيات تعليمية للمتعلم، ويحفزه على تعلم الوصف وممارسته .

ويمكن إشراك المتعلمين في تقويم أعمالهم (أعمال أترابهم) ، إذ تمكنهم هذه العملية من التفطن إلى أخطائهم، وتنمي لديهم القدرة على النقد والتحليل .

وفي هذه المرحلة بالذات، يمكن أن نستخلص أن الجزء الثاني من القدرة النصية ، وهو القدرة على الإنتاج، قد تحقق، ولتنمية القدرة النصية (في مجال الوصف) لدى المتعلم ينبغي البدء بتنمية مجموعة من القدرات الجزئية منها :

– القدرة على تفريع الوصف وتمييز خصائصه من خلال عرض المظاهر (aspectualisation) وربط العلاقات (mise en relation) .

– القدرة على تنويع الألفاظ بحسب موضوع الوصف (وصف شخصية – وصف الطبيعة – وصف مهنة – وصف مكان ، وصف شيء ما ...) .

– القدرة على استعمال الصيغ الصرفية في الوصف كاستخدام اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، وصيغ المبالغة ، وأفعل التفضيل .

– القدرة على استعمال الجمل وبخاصة الاسمية منها في وصف الموصوفات ، وكذلك استعمال الوجوه البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية.

– القدرة على استعمال الروابط المنطقية ، مثل الفاء ، وثمّ ، و ...

– القدرة على التدرج في الوصف كالانتقال من العام إلى الخاص ، أو من الخاص إلى العام ، أو من المجمل إلى المفصل .

– القدرة على تنظيم الوصف داخل الخطاب السردي ، وذلك من خلال تسمية الموصوفات وتعيينها ، ثم عرض المظاهر والخصائص المميزة لها .

وتحقيق هذه القدرات مرهون بمجموعة من التدريبات وكفاءة المعلم المرتبطة بتمكّنه من المعرفة الوصفية موضوع التعلّم .

إن التلميذ في هذه المرحلة الثانوية قادر على القيام بمجموعة من العمليات المرتبطة بالتفكير ، من استنباط واستدلال واستنتاج وبناء المعرفة، ولذا نذهب مذهب بياجه (Piaget)، الذي يرى بأن التعلم « ليس حشو ذهن المتعلم بالمعلومات ، بل تمكينه من التقنيات والمناهج والوسائل بما يؤهله لبناء الإجراءات الخلاقة لحل المشاكل » [35] ، وبخاصة أنه يتوفر على مجموعة من التمثلات (représentations)، التي يحاول استثمارها وإعادة بنائها، فلا يسارع المعلم إلى تقديم المعرفة الجاهزة التي قد تعطل قدراته .

إنه من الضروري إعادة النظر في البرامج الحالية ، وتوزيع محتوياتها بشكل يستجيب إلى حاجات المتعلمين .كما ينبغي التركيز – قدر الإمكان – في تحليل النصوص على الأنواع الواضحة على مستوى الموضوع ، والتركيب ، والدلالة ، والتداول ، أي التركيز على ما يصطلح عليه البيداغوجيون باسم المقروئية (lisibilité) أي وضوح البنية. وعلى المعلم أن يستنير بما تمده به العلوم الأخرى من معارف تساعده في العملية التعليمية (كاللسانيات، والسيكولوجيا ، والسسيولوجيا، والإبستمولوجيا ، وعلوم التربية ...الخ) ، « لأنه بقدر ما يفسح للمعلم من حرية التصرف في المادة موضوع الدرس وطرائق توصيلها ، يكون اجتهاد المعلم ، وعلى العكس من

ذلك ، فإن التضييق على المعلم في كل صغيرة وكبيرة ينتهي به إلى مجرد ناقل تابع يحاكي التعليمات بحرفية لا روح فيها » [36] .

لم يعد التعليم فنا يعتمد على أذواق المعلمين ، بل أصبح علما أيضا لا يتردد في الاقتباس من علوم شتى[37] . فإدراك الخلفيات الايستمولوجية والاختيارات النظرية، التي توجه المناهج المدرسية من قبل المعلم ضرورة ملحة للنهوض بالمستوى التعليمي ، وتطوير طرائق تعليم اللغة العربية .

لقد آن الأوان لتغيير سلوكنا في تكوين المتعلمين، من التركيز على التراكم المعرفي إلى التركيز على القدرات التي تمكن المتعلمين من إنتاج النصوص ، والتي تتيح لنا الوقوف على نقائص المتعلمين وحاجاتهم .

من الواضح أن التحديات التي تفرضها العولمة والتغيرات المحلية والعالمية، اليوم، تفرض « إعادة بناء التعليم الثانوي من حيث أساليبه ورفع مستوى مدرسيه وطلابه ، وفاعليته الإدارية... » [38].

هدفنا اليوم من التعليم« إعادة تشكيل العقل في ضوء ثقافة الإبداع، وتجاوز ثقافة الذاكرة » [39] . وذلك بتغيير سلوكنا في تكوين المتعلمين من التركيز على الكمّ إلى التركيز على الكيف وعلى قدرات المتعلمين التي تمكنهم من الإبداع وتتيح لنا –باعتبارنا معلمين – الوقوف على ثغرات العملية التعليمية والحاجات الحقيقية للمتعلمين .

- الهوامش والإحالات :

---

[1] تقسم النصوص القرائية إلى أنواع منها الأدبية والوظيفية (العادية) والمسترسلة والاستماعية ، ولكل منها أهداف خاصة للتوسع في هذه الأنواع وأهدافها . راجع :

ديداكتيك النصوص القرائية ، ص 68 .

[2] -التعليمية أو التدريسية أو علم التدريس أو التعليمية – التعلّمية أو الديداكتيك مصطلحات مقابل الكلمة الفرنسية (didactique) ، وهي علم يبحث في وضعيات التعلّم والتعليم (apprentissageetenseignement) . وقد استطاعت – التعليمية – عبر سيرورة تشكلها أن تتوفر على الخصائص الأساسية للبناء العلمي ، مثل :

1 – توفرها على حقل الدراسة والاشتغال .

2 – توفرها على مصطلحات وجهاز مفاهيمي خاص بها .

3 – توفرها على منهجية محددة لمقاربة المواضيع المشكلة لحقل اهتمامها .

تستنجد التعليمية بمصادر معرفية مساعدة ، مثل السيكولوجيا ، والبيداغواجيا والسسيولوجيا ، وعلوم اللغة ، وعلوم الأدب ، وعلوم التربية ، ونظريات الاكتساب، وعلوم الإحصاء ... الخ . وتتصب الدراسات التعليمية على الوضعيات التربوية، وعمليات التعليم والتعلّم ، والطرائق ، والأنشطة ، والوسائل ، والمناهج ، والأنظمة، ومفاهيم المادة، وأدوات التقويم . ومن أشهر رواد التعليمية :

دوكورت (De Corte) وفان جلدار (Van Gilder) وأسطولفي (Astolfi) ووليم ف. ماكاي (W.F. Mackey) . ولا ننسى أن التعليمية عرفت أوج ازدهارها على يد الباحث غانيون (J.C. Gagnon) من خلال دراسته التي أصدرها عام 1973 ، تحت عنوان " تعليمية مادة " (Didactique de discipline) .

لمزيد من الاطلاع ، راجع :

معجم علوم التربية (مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك) لمجموعة من المؤلفين ، منشورات عالم التربية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط 2 ، 1998 .

Rieunier (A) et Raynal (F) , dictionnaire des concepts clés: apprentissage, formation, psychologie cognitive, Paris, ESF .

من البيداغوجيا إلى الديداكتيك ، دراسة وترجمة رشيد بناني ، الحوار الأكاديمي والجامعي ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1991 .

[3] -عبد الكريم غريب وآخرون : معجم علوم التربية (مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك) ، ص 350 .

[4] أحمد العمراوي، وخالد البقالي القاسمي: ديداكتيك التربية الإسلامية ، من الإبستمولوجي إلى البيداغوجي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1999، ص 4 .

[5] معجم علوم التربية ، ص 350 .

[6] محمد البرهمي ، ديداكتيك النصوص القرائية ، بالسلك الثاني الأساسي ، النظرية التطبيق ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء، ط 1 ، 1998 ، ص 23.

[7] ديداكتيك التربية الإسلامية ، ص 86 .

[8] ديداكتيك النصوص القرائية ، ص 24 .

[9] ديداكتيك التربية الإسلامية ، ص 92 .

[10] عبد الرحمن الحاج صالح ، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية ، مجلة اللسانيات ، عدد 4 ، الجزائر ، 1973 – 1974 ، ص 62 .

[11] دومنيك بورغان (Dominique Bourgain) ، حول الأسس السيكولوجية والأبعاد الاجتماعية للقراءة ، ترجمة عبد القادر سباغ، مجلة علوم التربية ، المجلد 2 ، العدد 13 ، الرباط ، سبتمبر 1997 ، ص 120 .

[12] المرجع نفسه ، ص 122 .

[13] معجم علوم التربية ، ص 182 .

[14] G. Siouffi - D. Van Raemdonck , 100 fiches pour comprendre la linguistique, 2ème édition , Bréal Rosny, Paris, 1999 , p. 139 .

[15] روبيرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ، ط 1 ، 1998 ، ص 103 .

[16] صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، مكتبة لبنان ناشرون ، الطبعة الأولى ، 1996 ، ص 295 .

[17] الحبيب شبيل ، من النص إلى سلطة التأويل ، صناعة المعنى وتأويل النص (أعمال الندوة التي نظمها قسم اللغة العربية من 24 إلى 27 أفريل 1991) منشورات كلية الآداب، منوبة ، تونس ، 1992 ، ص 453 .

[18] الحواس مسعودي ، النص الأدبي بين التحليل اللساني والمدرسي (قراءة في تحليل نصوص المرحلة الثانوية) مجلة اللغة والأدب ، الجزائر ، عدد 9 ، ص 75 .

[19] يصعب التصنيف أحيانا ، وذلك راجع إلى طبيعة النصوص ، فمن النادر مثلا أن نعثر على نص وصفي محض ، وإلى اختلاف المرجعيات النظرية الإبستمولوجية للنصوص .

[20] ديداكتيك النصوص القرائية ، ص 63 .

[21] فتحي فارس ومجيد الشارني، مداخل إلى تعليمية اللغة العربية، دار محمد علي للنشر، تونس ، الطبعة الأولى ، 2003 ، ص 78 .

[22] معجم علوم التربية ، ص 44 .

[23] المخطط مستوحى من المرجع السابق ، ص 45 .

[24] المختار في الأدب والنصوص للسنة الثالثة ، الشعبة الأدبية ، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية ، الجزائر ، ص 40 وما بعدها .

[25] المرجع نفسه ، ص 42 .

[26] المرجع نفسه .

[27] راجع : Ph. Hamon , Du descriptif , Nathan , Paris 1993 وكذلك :
J.M. Adam et A. Petitjean, le texte descriptif, Nathan , Paris 1989

[28] محمد أولحاج، ديداكتيك التعبير تقنيات ومناهج ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء 2001 ، ص 120 .

[29] المختار في الأدب والنصوص ، ص 41 .

[30] سورة النساء ، آية 10 .

[31] المختار في الأدب والنصوص ، ص 41 .

[32] أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، د. ت ، ص 245 .

[33]3 3 - J.M. Adam , la description , que sais-je ? , PUF, Paris, 1993, p. 89 .

[34] معجم علوم التربية ، ص 54 .

[35] سلسلة التكوين التربوي ، الكتاب الثاني ، المغرب ، 1998 ، ص 30 – 31 .

[36] مداخل إلى تعليمية اللغة العربية ، ص 79 .

[37] Denis Girard, linguistique appliquée et didactique des langues, Armand Colin, 1972.

[38] أميرة عبد السلام عبد المجيد زايد، التعليم في المرحلة الثانوية وإعادة تشكيل العقل في ضوء ثقافة الإبداع ، المجلة العربية للتربية، مجلد 21 ، العدد 1 ، يونيو 2001 ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ص 236.

[39] المرجع نفسه ، ص 237 .

من المفهوم إلى المصطلح
"نحو قواعد للمعطيات المفهومية"

د. محمد العربي ولد خليفة

(جامعي)

يسعدني أن أقدّم أمام حضراتكم ورقة، تعرض إشكالية المفاهيم وعلاقتها بالمصطلح العلمي، وخاصة في علوم المجتمع، مستجيبا للدعوة الكريمة التي تلقيتها من معالي الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع الذي يحتفظ له الكثير من الجزائريين بأطيب الذكر وجزيل الثناء، على ما بذله من جهد خلال تواجده في بلده الثاني دبلوماسيا مرموقا، ومثقفا وعالما من أعلى طراز.

ساهم معالي الدكتور الفحام في توطيد أواصر الأخوة والتعاون بين سوريا حصن العروبة وقلعة الصمود، والجزائر المناضلة من أجل الحرية وهي تشرع إذاك في خطواتها الأولى نحو إعادة تأسيس الدولة وبناء المؤسسات على كل

المستويات، بعد أن انسحب منها عتاة الاستعمار في الشهور الأولى من الاستقلال مهزومين، وكان هدفهم المعلن التعجيز والانتقام.

كيف لا نشدّ الرحال لدمشق الفيحاء، وقد شرّفنا مجمعها العامر بالانتساب إلى محفله العريق، ولنا فيه أصدقاء من السابقين الأولين الذين أمّوا الجزائر وساهموا في بناء جامعتها الحديثة التي لم تكن تحمل من وصفها بالجزائرية سوى المكان الذي شيّدت فيه في بداية القرن الماضي، من بين أولئك العزيزين علينا الأستاذ الدكتور إحسان النص الذي له من التلاميذ والمريدين في الجزائر ربما بقدر ما له في جامعات سوريا العتيدة.

أولا: المصطلحات ومنظوماتها المفاهيمية

قد يكون من المفيد في أية مداولة حول قضايا المفهوم والمصطلح في العلوم الدقيقة وعلوم الإنسان أن نستحضر الجوانب التالية:

1- تتصف تلك العلوم بالخصوصية، بسبب ارتباط أطرها النظرية وأنساقها المفهومية بالبيئة التي نمت فيها، والحقبة التاريخية التي حددت موضوعاتها ومناهجها، ونوعية اللغة الفنية المستعملة فيها. فلو تفحصنا النظريات الكبرى التي هيمنت على الإنتاج المعرفي في القرن الماضي، مثل الوظائفية والتفسيرية والبنيوية والسيميائية لوجدنا أن لكل منها منظومة مفاهيمية، وما يقابلها من المصطلحات. فإذا كانت الأصول **(Paradigmes)** المنهجية لإنتاج المعرفة واحدة فإن التغيرات التي عرفتها العلوم الإنسانية، خلال مراحل تطورها، لا تشير فقط إلى حدوث قفزات علمية في مضامين المعرفة ومناهج البحث، بل إنها تعكس أيضا تغيرات نوعية في البيئة التي يحدث فيها البحث العلمي (كون **KHUN 1970**).

2- إن الثروة المصطلحية في كل لغة هي مرحلة تالية لازدهار البحث العلمي، وليست سابقة له. ولاشك أن معظم الإنتاج العلمي في علوم الدقّة والتقانة وعلوم الإنسان يحدث خارج منطقتنا حيث يتسابق التنظير (**Théorisation**) مع التطبيق.

يكفي لإدراك حجم التراكم المعرفي في فرع واحد من العلوم الأداتية وعلوم الطبيعة والمجتمع القيام بجرد أولي لسنة واحدة مما تنشره الدوريات والحوليات الأكاديمية والجامعية من ملخصات تعجّ بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة، وما يعرف بالكلمات الفنية **key words, mots clés)** الخاصة بكل مبحث داخل التخصص الواحد.

ساعد ذلك الإنتاج العلمي الغزير على إبراز حقيقتين:

<u>أولاهما</u>: أن علوم الإنسان والمجتمع، لم تعد مجرد ضيف يستأجر غرفة صغيرة في "حوش"العائلة المعرفية الكبيرة، فقد انتهى منذ زمن بعيد تصنيف العلوم إلى نفيسة وخسيسة، فهي تتبادل المناهج والمفاهيم والمصطلحات. وأصبح أي ابتكار في ميدان من عالم الوجود (الأنطولوجيا)، أو عالم المعرفة (الإبستمولوجيا) يتطلب تظافر جهود عدد من المختصين في علوم مختلفة. وكثيرا ما تحدث الاكتشافات المهمّة في نقاط التقاطع بين عدة علوم طبيعية وإنسانية، كما هي الحال في اللسانيات، والعلوم السلوكية، والاقتصاد، والكيمياء الحيويّة إلخ...

(R.P Monge : quartly vol.25,n:1,1977)

<u>ثانيتهما</u>: إن التقدم العلمي عملية كلية ومترابطة، قد يأخذ فرع من المعرفة موقع القاطرة في فترة معينة، وقد يكون محركها النفاث، كما نلاحظ

اليوم في المعلوماتية والهندسة الوراثية والاقتصاد. ولكن المعرفة نابعة من أقيانوس واحد، يستفيد كل فرع منها، مما حققه جيرانه من ثروة، في المفاهيم والمناهج والمصطلحات.

3-تشترك العلوم في أصول معرفية واحدة، إلا أن علوم الإنسان والمجتمع لا ترقى من ناحية ثبات ظواهرها ويقينيّة نتائجها، إلى مرتبة علوم الدقة والعلوم الطبيعية. ولذلك فإن الاهتمام بالتعريفات الإجرائية للمفاهيم، وما يقابلها من مصطلحات، مسألة على درجة كبيرة من الأهمية. فإذا كانت الألفاظ "حصون المعاني" فيما يتداوله الناس من خطابات عادية فإن اختيار تلك الألفاظ وتحديد حقلها الدلالي هو حجر الأساس في بناء العلم بوجه عام، ولا تقتصر فائدته على العلماء وحدهم، بل يفيد المتعلمين، غير أن تقنين المصطلحات، والاجتهاد في وضع كلمات عربية، أو معرّبة بدل المفردات الأجنبية المهيمنة على لغة العلم منذ بضعة قرون، (ولا يستثني من ذلك الآداب وعلوم الإنسان) يبقى مطلبا عسير المنال، بسبب عدد من الصعوبات العملية نذكر منها:

1- يتكوّن المفهوم عبر ثلاث عمليات ذهنية معقّدة، هي التعميم والتخصيص والتجريد، ويبقى في حالة فكرة حتى يجد طريقه إلى شكل من أشكال التعبير اللغوي أو الرمزي. وبما أنه حاصل خبرة معرفية مكثفة فإن مفردات اللغة قد لا تستوعب أحيانا ما هو جوهري من المعاني والأفكار. فهي لا تحيط به -كما يقال- إحاطة السّوار بالمعصم. إن الألفاظ قد تدل على معنيين أو أكثر، أحدهما هو الذي يريد الباحث إيصاله إلى المتلقي، ولكنه لا يستطيع أن يحّيد ذاكرته الخبروية ويمنع المعاني الأخرى من التوارد في

خاطره. ولذلك فإن أهم ما يرسخ المصطلح بعد توليده واختراعه هي إشاعة استعماله وتقبُّله من طرف المختصين في نفس المجال.

(د. حنفي بن عيسى 1987، د.ع.العروي 1983).

وقد أشار أبو سعيد السيرافي (ت 386هـ) إلى هذه المسألة المهمّة بعبارات تقترب من علم اللسانيات والمعجمية المعاصرة فهو يقول:

"بدا لنا أن مركب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل، والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبسطة تامة، وليس في قوّة اللفظ من أيّة لغة كان،أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به وينصب عليه سورا، ولا يدع شيئا من داخله أن يخرج، وشيئا من خارجه أن يدخل" (نقله التوحيدي ط.القاهرة **1939**).

وفي انتظار حوسبة اللغة العربية، وإحصاء الحقول الدلالية للمفاهيم والمصطلحات، فإن الإشكالية التي أثارها أبو سعيد السيرافي، منذ أكثر من ألف عام قائمة إلى اليوم.

2 – يستمد الفكر العربي رصيده من المصطلحات العلمية في مجالات المعرفة بوجه عام، والاجتماعية بوجه خاص، من طريقين، أولهما داخلي ويتمثل أساسا في التوليد الدلالي بواسطة الاشتقاق وثانيهما خارجي التعريب. ولكنّ الصعوبة لا تكمن في إيجاد المقابلات المصطلحية للمفاهيم المستجدة، بل في نقص البحث الأساسي والاعتقاد الساذج بأن التطبيق هو الأهم ولا حاجة إلى التنظير الذي تولاه كبار العلماء الغربيين ومدارسهم بالنيابة عنّا. ولذلك فإنه على الرغم من محاولات التأصيل أو إعادة التأسيس لأنساق ونظريات العلوم الاجتاعية، فإن قسمها الحديث بقي غريب المنشإ ومرتبطا بقضايا وإشكاليات تخصّ مجتمعات مغايرة.

إن توطين تلك العلوم يتطلب البداية بصياغة فكر معرفي جديد، يقوم على تقويم ونقد الأطر المفهومية ومناهج البحث، وتكييف أدواتها ببيئتنا الخاصة، وحاجاتنا الراهنة، ومشاريعنا المستقبلية، ومن الضروري أن تتزامن هذه العملية التأصيلية مع جهد يقع في صميمها، وهو اختراع المصطلحات، ووضع المعاجم التقنية المتخصصة، وتطوير الدراسات المعمقة في حقول فقه اللغة واللسانيات.

يتمثل الطريق الثاني في التعريب، والمقصود به هنا هو نقل الكلمة الأعجمية إلى العربية بعد تكييفها من الناحية الصوتية والصرفية حتى تلائم الخصائص اللغوية للناطقين بالعربية، ولهذا التوضيح أهميته في وطننا العربي فهو مورد هام لإثراء القاموس المصطلحي ونشر اللغة الوسيطة لكل علم وأدب وفن، وإحداث تراكم معرفي يخرج المفاهيم والمصطلحات من حالتها المعجمية إلى الاستعمال والتداول.

ثانيا: اللغة أداة لإنتاج المعرفة وموضوع لها:

اللغة ليست مؤسسة منفصلة عن المجتمع، إنها في الحقيقة سجّل حاله والصوره الناطقة عن واقعه، ولذلك لا تُوجد لغة متقدمة في مجتمع متخلف، والعكس أيضا صحيح. إن اللغة هي في آن واحد أداة لإنتاج المعرفة وموضوع لها، وتتضح هذه المسألة على ضوء الملاحظات الأربع التالية:

1- لا توجد لغة علمية كاملة ونهائية، في أي فرع من فروع المعرفة، فهي تتزوّد بالمفردات، وتعابير اللغة الوسيطة من وتيرة الإنتاج العلمي، والترجمة. وهذه الأخيرة مصدر لا يستهان به، فهي منذ أمد بعيد مورد ثريّ للمفاهيم والمصطلحات، حيث يترجم الإنتاج الفكري والعلمي والأدبي، بعد

فترة وجيزة من نشره في لغته الأصلية، كما هي الحال في غرب أروبا، والولايات المتحدة واليابان. ولعل ثراء اللغة الإنكليزية، في التعابير والمصطلحات، يرجع جانب منه إلى قيام الباحثين (غير الناطقين بالإنكليزية) بوضع خلاصات لأبحاثهم باللغة الإنكليزية، ونشرها في الدوريات المتخصصة، للتعريف بإنتاجهم واكتساب المكانة والشهرة.

2- تتوقف دقة المصطلح العربي الموضوع بالنحت أوالاشتقاق أو التعريب على ضبط حقله الدلالي، واقتصار اللفظ على المفهوم، أي تحاشي استخدام نفس اللفظ للتعبير عن دلالات أخرى في نفس المجال المعرفي، مما يسبب للدارس والباحث الغموض والارتباك. ولا شك أن الطريقة المثلى هي اختراع مصطلح واحد مقابل مفهوم واحد.

وتساعد الحوسبة على جرد الحقول الدلالية والمفاهيم المتداولة، ووضع مصفوفات للمفردات، وتصنيفها من حيث المعنى والمبني في اللغة العربية واللغات التي ينقل منها المصطلح، فضلا عن إمكانية برمجة الأوزان، والجذور، والاشتقاقات الصرفية، واختيار أنسبها للمفهوم. وتُحقق هذه الآلية اقتصادا كبيرا في الوقت والجهد، وتسمح بالإسراع في تكوين رصيد مصطلحي يمكن أن يتحول بالتدريج إلى مسارد معلوماتية، وبنك للمعطيات، يسهل وضع المعاجم اللغوية العامة، والتقنية المختصّة، كما سنوضح ذلك.

3- نظرا إلى العلاقة الوثيقة بين علوم الإنسان وفنون الإبداع الفني والأدبي فإنه من المفيد الاتفاق على مصطلحاتها المشتركة، سواء كانت موضوعة أصلا بالعربية أمْ معربة. وقد أقر هذا المطلب مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الخامسة والأربعين.

ولا شك في أن العُمْلة المصطلحية المشتركة، تساعد على توحيد اللغة العلمية العربية عند الباحثين والدارسين والمترجمين الذين ينقلون من لغات أخرى إلى العربية ما يصدر من أبحاث، ومخترعات في العلوم والفنون والآداب.

والملاحظ اليوم أن المعاجم المختصة، القليلة نسبيا، التي صدرت في فروع المعرفة المختلفة ونظيراتها المترجمة، تقترح وتستعمل مصطلحات متباينة، مما يجعل حقول المعرفة العلمية والأدبية أشبه بسوق تستعمل أنواعا كثيرة من العملة، لها قيمة لا يعرفها إلا صاحبها.

4- على الرغم من تزايد الترميز والتكييم (واعتماد الْكَمِّ) **(Quantification)** في مختلف فروع المعرفة، واختزال المصطلحات المركبة في حروفها الأولى لتسهيل الانتشار والاستعمال، فإن اللغة تبقى الناقل الأول للمعرفة، وبِخاصةٍ في الآداب وعلوم الإنسان التي تطلب أكثر من غيرها تحكّما في آليات اللغة بوجه عام، ولغة التخصص بوجه خاص. وهذه الأخيرة عبارة عن مجموعة متناسقة من مفاهيم ومصطلحات تُكّون اللغة الخاصة بفرع معين من المعرفة.

ولكي تصبح الكلمة أو العبارة مصطلحا ينبغي أن تتوفر فيها شروط من أهمها:

أ – أن تكون موضوعة في مقابل معنى أو مفهوم خاص غير المعنى اللغوي المتداول في الاستعمال العادي، وإلا أصبحت مفردة لغوية، لا علاقة لها بالمفهوم المراد تسميته.

ب – أن يشيع استعمالها بين أهل الاختصاص، وإلا فقدت دلالتها وفائدتها الاصطلاحية. فَصُنْعُ كلمة، أو اقتراح مقابلٍ للمصطلحِ الأجنبي،

يبقى مجرد مشروع مصطلح، حتى تصادق عليه الهيئات المختصة في مجامع اللغة والأكاديميات، ويتداوله أصحاب الاختصاص.

ج – إن اقتراح مصطلح، يعني إضافة فكرة أو مفهوم جديد، واللغة وسيلة لذلك، وليست هدفا في حد ذاته. ولذلك ينبغي أن تتم صياغة المصطلح بعد دراسة وافية للمسارد المصطلحية الخاصة بعلم معين، وتشاور مع أهل الاختصاص، ليكون المصطلح الوليد منسجما مع النسق المفهومي للعلم، ومعبرا بدقّة عن منطقه الداخلي.

في العالم الغربي شهدت سنوات الثمانينات تطورا سريعا لبنوك الاصطلاح الآلي، وبروز ما يسمى بالاصطلاح المعلوماتي (Terminotique). ويرجع إنشاء أول بنك اصلاحي معلوماتي إلى سنة (1963)، إذ تمّ انشاء المعجم الآلي (Dicautom) في الليكسمبورغ الذي أصبح في سنة (1973) المعجم الآلي الأوروبي (Eurodicautom). وقد نشأت ليكسيس (Lexis) في ألمانيا سنة (1966)، ونورماتيرم (Normaterm) أنشأتها المنظمة الفرنسية للمقاييس (L'AFNOR) سنة (1973). وقد أقام الكنديون تباعا تيرميوم (TERMIUM) سنة (1970)، والبنك الإصطلاحي الكندي (BTQ) سنة (1973). لكن لم تعرف هذه البنوك كامل انطلاقتها إلا في سنوات الثمانينات مع بروز المعلوماتيات الدقيقة (MICRO-INFORMATIQUE) والمعلوميات البعدية (Télématique).

ورغم تضاعف عدد البنوك ظلت البنوك المشار إليها الأكثر شهرة واستعمالا، وهي تشكل نظام بنوك الإصطلاح للجيل الأول. ولكنها، مع ذلك، تشكو كثيراً من السلبيات من حيث:

أ) بنيتها وتصورها لكيفية تدبير المعطيات.

ب) قصديتها.

ج) تغذيتها.

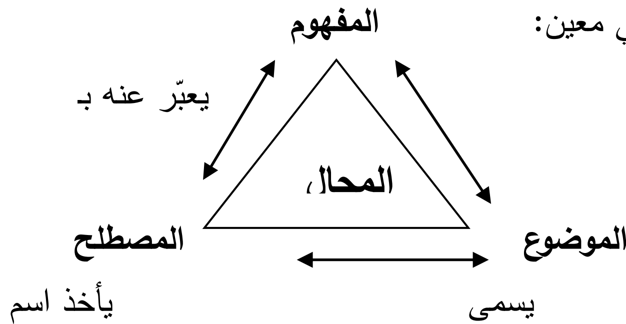
د) تحيينها.

هـ) تصفيتها.

و) غياب بنية متعددة العلاقات (multirelationnelle).

(الأشهب (خ.)، مجلد 7، عدد 1، 2002).

يقدّم الأستاذ الأشهب المفاهيم الأساسية للمصطلاح على النحو التالي: المفهوم (concept)، والموضوع (objet)، والمصطلح (terme). ويوضح الشكل التالي، العلاقات التي تقوم بين هذه العناصر الثلاثة داخل مجال معرفي معين:



ويوضح مدلول تلك العناصر كما يلي:

المجال "مجموعة من المفاهيم المرتبطة فيما بينها بعلاقات دلالية".

المفهوم "وحدة تفكير مكونة بالتجريد انطلاقا من خصائص مشتركة لمجموعة موضوعات. فالمفهوم "نبات" مثلا يعد مفهوما عاما يصلح لتسمية كل النباتات. ويمكن للمفهوم أن يكون مفردا أو مركبا".

الموضوع "عنصر حقيقة مدرك أو متصور، يمكن أن يكون ماديا مثل: نبات، أو غير مادي مثل: ذكاء. ويعتبر تمثيلا محققا للمفهوم"

المصطلح "وحدة لغوية تشير إلى المفهوم المحدد في لغة اختصاص مُعين، ويمكن أن يكون كلمة أو كلمات مثل سوسن أو سوسن مذهب، على التوالي".

الخاصية "هي خاصية مفهوم ما. فمفهوم نبات يمكن أن تكون له الخاصيات التالية: أسرة، ومدة الحياة، ورقة... إلخ.

تتكون قاعدة المفاهيم، إذن، من ثلاثة مستويات تجريدية:

أ) مستوى اصطلاحي.

ب) مستوى الخاصيات الحدية أو التعريفية.

ج) مستوى التمثيل.

ولعلّه من المفيد والمستعجل متابعة وتنسيق الجهود لتوفير بنية معلوماتية تسمح بإنشاء قاعدة المفاهيم ومقابلاتها من المصطلحات ودلالاتها المعرفية.

لقد بذل علماؤنا جهودا كبيرة في الجامعات ومجامع اللغة العربية ومؤسسات البحث، كما ساهمت الجامعة العربية عن طريق منظمتها للتربية والثقافة والعلوم ومكتبها النشيط لتنسيق التعريب في الرباط، والمعاهد المختصة في المصطلحات والتقييس، ساهمت كلها في إثراء لغتنا الجميلة بالكلمات الفنية، وحلّ بعض المعضلات التي تواجه الباحثين والدارسين، في العلوم الدقيقة والتجريبية والآداب وعلوم الإنسان.

حققت تلك الجهود إذا نظرنا إليها مجتمعة، وخلال ما يزيد على نصف قرن إنتاجا معجميا لا بأس به، إذا قَوَّمْنَاهُ على ضوء الظروف الصعبة التي تجتازها أمتنا، في كل أقطارها، وإصرار الدول المتقدمة في الغرب والشرق السابق، على احتكار العلم والخبرة والتقانة، واعتبار ذلك جزءا من أسرارها الأمنية، وضمانة لتفوّقها الدائم.

أسفرت تلك الجهود على وضع ما يزيد على 150 عملا معجميا، في شتى فروع المعرفة، حظي الطب والأحياء والقانون وعلوم الطبيعة والكيمياء فيها، بالنصيب الأوفر. ولا توجد سوى مدونات قليلة للمصطلح في الآداب وعلوم الإنسان، موجهة، في أغلب الأحيان، إلى مراحل التعليم الثانوي العام والفني. والقليل منها مخصص للطلبة الجامعيين. وقد اقترح مجلسنا دليلا معجميا لنشر المصطلح العربي المستعمل في مختلف مرافق الإدارة بالتعاون بين الخبراء والعاملين في الميدان. وهو يعد الآن وَضْعَ دليل مُيسّر للمشتغلين بالتمريض في مختلف اختصاصات الاستشفاء.

ملخص البحث ومقترحات

من الواضح أن إشكالية وضع المصطلح لا تقتصر على اللغة العربية بل هي فيها أقل مما في غيرها من شجرتها الساميَّة الحاميَّة وحتى في المئتي لغة علمية (200) معروفة في العالم (سالم العلوي 1994) بسبب قدرتها الفائقة على الاشتقاق، على العكس من اللغات الهندوأوربية التي تلجأ إلى التركيب.

وقد بدأ ابن جني (توفي سنة 392هـ-1002م) في كتابه الخصائص تقعيد هذا المبحث الهام قبل حوالي ألف عام وعرف باسم " الاشتقاق الأكبر" (ابن جني ط مصر 1325...).

إن إشكالية المصطلح العلمي لا ترجع إلى مدى مطاوعة اللغة العربية، وقدرتها على تسمية الأشياء، وضبط المفاهيم فيما يعرف بالمفردات النمطية الموحّدة (Lexical typology). إن الأمر يتعلق بواقعنا المعرفي الراهن، فمن المعروف أن حصيلة الإنتاج العلمي، في وطننا العربي بما فيه براءات الاختراع التقني، ضئيلة جدا حتى مقارنة ببعض البلدان التي خرجت لتوها من غياهب التخلف والاستعمار، وتحررت قبل حوالي نصف قرن أو أقل من الهيمنة الأجنبية المباشرة، مثل الهند والصين وكوريا والفيتنام، وكوبا المحاصرة منذ أربعة عقود من قبل العام سام، جارها المستبد.

إذا اعتمدنا مدخل مكاشفة الذات، رَأَيْنَا أن لنا موقعا صغيرا جدا، حتى بالنسبة إلى عدد من بلدان العالم النامي الذي ننتمي إليه. ولا يعني ذلك الاستهانة بمؤهلات أمتنا، وقدرتها التي تمر بمرحلة كمون، لا نشك في أنها

سوف تلد العزيمة والهمّة وتعيد أمتنا في المدى المنظور إلى موقعها الطبيعي في موكب المقدمة.

إن المصطلحات العلمية ليست مجرد كلمات، أو تراكيب تخزّن في القواميس المختصة، أو ملاحق البحوث، وتصنّف منها الموسوعات، بل هي -كما أشرت- العملة الصعبة في بنوك العلوم والمعطيات لكل علم فيها " حساب جارٍ" ينبغي تغذيته باستمرار من المخابر ومراكز البحث.

بعد هذه التوضيحات السريعة، نجمل وجهة نظرنا المتواضعة في صورة ملاحظات واقتراحات وذلك على النحو التالي:

1- إذا كان الواقع المعرفي في منطقتنا العربية الإسلامية، يعاني حاليا من فجوة التخلّف، ولا يحتل مكانه الطبيعي في موكب المقدمة، فإن ذلك ليس مصيره النهائي، ولا قدره المحتوم، فالمعرفة الإنسانية في أية نقطة وصلت إليها، هي متّصل (Continuum) يتوالى فيه صعود الأمم وهبوطها، فهي أشبه بأمواج البحر، لا تتحرك موجة إلا بدفع من التي سبقتها.

2- من الإنصاف أن نذكّر بأن جزءا من معاناتنا الراهنة يرجع إلى ما تعرضت له ذخائر الحضارة العربية والإسلامية من نهب وتدمير، على يد جحافل متوحشة من الصليبيين الذين شوهوا المسيحية السمحاء، والتتار والمغول المعادين للحضارة والعمران. وقد أجهزت الكولونيالية الإجرامية في القرنين الماضيين، على ما أفلت من نفائس المخطوطات، فنحن من الأمم القليلة التي تطّلع وتدرس تراثها الثقافي، والعلمي منه، بوجه خاص، في خزائن الأسكوريال وليدن ومدريد وباريس ولندن وغيرها...

3- إن وضع المصطلحات عن طريق التعريب، أو النقل أو الترجمة في العلوم الدقيقة والتجريبية، أسهل من وضعها والاتفاق عليها في العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تستخدم منذ أمد طويل المناهج التجريبية ولكنها تتطلب في كل اللغات، امتلاك رصيد لغوي، واطلاعاً عميقًا على علوم الدلالة والبيان، فضلا عن الإلمام بقواعد اللغة وفنون التعبير.

4- إن سهولة وضع المصطلح العلمي وتعميمه، وعدم حاجة العلماء إلى تحصيل لغوي وفير، لا يعني إعفاء الطلاب المتخصصين والباحثين في العلوم الدقيقة والتطبيقيّة من إتقان اللغة. فقد شاع عندنا مشرقا ومغربا، أن إتقان اللغة واحترام بنيتها وجماليتها هو من الحذلقة، أو البلاغة الكمالية، وهي من اختصاص الأدباء والخطباء والشعراء وأن تدريس العلوم الطبيعية والطبية والرياضيات يمكن أن يكون بالعاميات المحلية، وهذا بالطبع غير صحيح، فدقّة التعبير وسلامة التبليغ مطلوبة من الجميع، وهذا ما نلاحظه في كل البلدان غير التابعة ثقافيا، حيث يتباهى ويتأنق الساسة والإداريون حتى في خطاباتهم اليومية والمكتبية.

إن أعظم العلماء في القديم والحديث، كانوا من النابغين في اختصاصاتهم التي أغنوا من خلالها لغاتهم، وتوَّجُوا أعمالهم بمؤلفات نفيسة، في الفلسفة والأدب وقصص الخيال العلمي، وقد ساهموا عن طريق وسائل الاتصال السمعي والبصري والمقروء فيما نسميه تعميم الفصحى، وتفصيح العامية، أي التثقيف العام وإثراء رصيد المجتمع من المصطلحات والأفكار. وقد كان العلماء العرب من السباقين إلى نظم المتون والأراجيز

في مختلف العلوم والفنون والآداب، ولأسلافنا في المغرب العربي باع وأي باع!

5- تتوفر اللغة العربية على الشروط الأساسية لعلميّة اللغة وعالميتها، وهي:

أ- العمق التاريخي الجغرافي: فهي من أقدم اللغات المكتوبة والمنطوقة منذ مئات السنّين، في قسم كبير من آسيا وإفريقيا، وعن طريق الإسلام (القرآن) في القارات الخمس. كما أنها بقيت على العموم نفسَ اللغة التي كتبت بها علوم المقدمة (sciences de pointe)، حتى القرن السابع الهجري، (14م). فلم تمنع الفتن، والتفكك السياسي، والعدوان الخارجي، من ازدهار العلوم والفنون في المغرب والمشرق الإسلاميين.

ب- استقلالية اللغة العربية من ناحية اللسان، (Langue) والكلام (Parole) سواء نظرنا إليها على ضوء علم النص، أمْ علم اللغة الاجتماعي، أمْ قارناها بلغات أخرى من شجرتها اللغوية، أو خارج تلك الشجرة (علم اللغة التقابلي أو المقارن)، فقد استمدّت الكثير من مفرداتها من لغات أخرى، مثل العبرية والفارسية والهندية كما استعانت بها نفس تلك اللغات، وخاصة في لغة العلم والفلسفة والفقه وأصوله، وامتزجت بها كما هي الحال في الفارسية، والتركية، والمالطية. ولكنها حافظت لأمد طويل على خصائصها، وثرائها الكبير في الاشتقاق والمترادفات حتى قال (آدم ميتيز): إن العرب اهتموا كثيرًا بالنّثر " وفاقوا في ذلك جميع الشعوب "(آدم ميتز، ترجمة: أبو ريده، ط-ج-1-1967).

ج- التنميط أو القابلية للتعبير (Normalisation)، أي اختيار مفردات معيّنة، بسبب تواترها، وملاءمتها للمفهوم المراد تعريفه، لما فيه من خصائص تقرّب الدال من المدلول.

لم يهتم اللغويون العرب في القديم، بقضايا التنميط في المصطلح العلمي، لأنهم كانوا كما أشرنا ينتجون العلم، بما فيه فقه اللغة، والمعاجم التي وصلت أوجها في نهاية القرن الرابع الهجري، على يد علماء من أعلى طراز، مثل ابن فارس (395هـ)، وحمزة الأصفهاني (350هـ)، والحسن العسكري (395هـ) و الجوهري (392هـ) إلخ...

والملاحظ أن وفرة النشاط العلمي، وتعدد المدارس والاجتهادات في وضع المفاهيم، تقلل من مصاعب التنميط في اللغة الواحدة، كما حدث أثناء ازدهار الحضارة العربية في الفلسفة مثلا، حيث لا نجد سوى القليل من الخلافات في المصطلح، ما بين الكندي وابن سينا وابن رشد ويفصل بينهم زمن طويل.

6- وصفنا اللغة العربية بالمطاوعة والمرونة التي تشاركها فيها كل اللغات السامية بما فيها الأمازيغية المتداولة في شمال غرب إفريقيا، (وخاصة الجزائر والمغرب)، غير أن العربية تتميز باستمرارية تاريخية، وعمق حضاري زاخرٍ وثراء قلّ نظيره في أسرتها اللغوية، وقد أوصلها القرآن الكريم إلى أعلى درجات البيان والإتقان، وهو الإعجاز.

7- إن ثراء اللغة العربية وتمتعها بالمطاوعة وميزة الاشتقاق والنحت، لا تقلل من المصاعب الموضوعية التي يعاني منها الخبراء والباحثون، في كل حقول المعرفة العلمية سواء تعلق الأمر بالتأليف أم تعلّق بالترجمة وذلك لعدة أسباب نذكر منها:

– الفجوة المهولة بيننا وبين ركب المقدمة الذي يدفع يوميا، بآلاف المصطلحات والرموز والتراكيب التي تفرض نفسها على المجتمع العلمي، وحتى على المجتمع بمعناه الواسع، ويضطر علماؤنا إلى التعامل معها، وملاحقتها قبل الاهتمام بنقلها معربة، أو مترجمة إلى العربية.

– اتجاه العلوم كلها، منذ بداية القرن العشرين، إلى استخدام الرموز والإشارات الحرفية والرقمية، فَأصبح الاختزال لغة اصطناعية يتعامل بها الناس، ابتداءً بإشارات المرور حتى مخابر الفضاء والهندسة الوراثية والمعلوماتية.

بعد هذه اللمحة المتعلقة ببعض إشكاليات علمية اللغة العربية، أتقدم بالمقترحات العامة التالية:

1- إن إثراء لغتنا الجميلة بالابتكارات المصطلحية، ليس مسألة تقنية بحتة، إذ لا بد أن تتوفر الإرادة السياسية بتجسيد المبدإ الوارد في دساتيرنا، ومؤداه أن العربية هي اللغة الوطنية والرسمية، وبالتالي تحشد الجهود والإمكانات، وتوظف وفق منظور منسّق، بعيد المدى، بإشراك الكفاءات العربية الموجودة داخل أوطاننا وخارجها. فقد أثبت تفوقُ علمائنا في الجامعات ومراكز البحث الأروبية والأمريكية أن العقل العربي لا يقل عبقرية عن غيره. فالعجز والقصور الحالي راجع في كثير من علله إلى "المناخ العام"، وضعف الإرادة السياسية.

2- ينبغي أن يتجه العمل المشترك والتنسيق بين المجامع إلى التوحيد، فاللغة الواحدة لها مجمع واحد، يمكن أن تكون له مجامع قطرية، أو مراكز

جهوية تخدم سياسة واحدة لترقية اللغة العربية، ويختار كل واحد منها مجالا من المعرفة حسبما يتوفر لديه من مجمعيين وخبراء.

3- انطلاقا من أهمية العمل المشترك، فإنه بالإمكان أن يصبح الاتحاد أشبه بالبرلمان اللغوي الذي يعمل وفق قواعد الديمقراطية، ويسهر على تشجيع الاجتهاد، ويحتضن الإنتاج العلمي الراقي.

4-من الناحية العملية، من المفيد أن تسرع مجامعنا وجامعاتنا ومراكز البحث بوضع خطة على المديين المتوسط والبعيد، لترجمة القائمة الطويلة، من الأبحاث والأطروحات التي أنجزها الباحثون العرب بلغات أخرى في كثير من بلدان العالم. سوف يسفر ذلك عن تحقيق هدفين يتمثل أولهما في إثراء اللغة العربية بمضامين واجتهادات مصطلحية استفادت منها لغات أخرى، ويساعد ثانيهما على معالجة مسألة المصطلح في سياق المجالات العلمية والأدبية المتخصصة. ويمكن اعتبار ذلك خطوة نحو توطين العلم والتكنولوجيا في بلداننا بدل تصدير العقول إلى الخارج واستيراد الجاهز من المعرفة بثمن باهض.

مراجع بالعربية

- **الأشهب (خ)** = المصطلح المولّد، نحو تصور جديد لقاعدة المعطيات الإصطلاحية- ندوة الترجمة والاصطلاح والتعريب، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط 1999.

– إنشاء عدة معطيات مفهومية...أبحاث لسانية، مجلد 7، عـــدد1، سنة 2002.

– **التوحيـدي(أبوحيان)** = المقابسـات، نشـر حسـن السدوسـي، القـاهرة 1929.

– **العـروي (ع.)** = التعـريب فـي ثقافتـنا علـى ضـوء التـاريخ، دار التنوير، بيروت، 1983 .

– **العلوي (سالم)** = ابن خلدون وعلوم اللسان العربي، حوليات جامعة الجزائر، عدد8، 1994.

– **بـــن عيســـى (حنفـــي)** = معضــلة المصــطلحات التقنيــة وحيـل المتـرجمين، مجلـة الثقافـة عـدد 99، الجزائـر، 1987. – **فهـــي حجـــازي (محمـود)** = الأسـس اللغويـة لعلـم المصـطلح، دار غريـب للطباعـة، القـاهرة 1995.

مراجع بلغات أخرى

- Benachenhou (y) = Création d’une base terminologique arabe- langues européennes Doc. Web. File c yaline % 20 Bench.h t m.
- Bénéton (P.) = Histoire des mots: Culture et Civilisation FNSP, Paris 1975.
- Braudel (F.) = Grammaire des civilisations Arthaid, Flammarion, Paris, 1987.
- Helias (P.-J.) = Le Cheval d'orgueil mémoire d'un Breton du pays Bigourdan, Peon, Paris, 1975 .
- Khun (S.T.) =The structures of scientific revolutions

S[ed] -Ed., Univ . of Chicago press, 1970.

- Lerat (P) = les langues spécialisées PUF, PARIS 1995.

- Sauzet (P.) = langues, Le monde de l'éducation, Février, 1998.

- Sebaä (R.) = La parole, otage de la langue,
Al-watan 1[ere] partie, 20-11-1996.

- Sedrati (Y.) = L'histoire politique de l'arabisation (1962-1988) Al-watan, 10 juin, 1998.

- Zghidour (S.) = Au Commencement était la langue N.obs. N°9, Paris 1992.

آراء وأفكار حول الجملة الشرطية في العربية

أ.عبد العليم بوفاتح

جامعة الأغواط

*** الجملة الشرطية بين الاسمية والفعلية :**

لم يعرف النحاة الأوائل إلاّ نوعيْن من الجملة هما: الجملة الاسمية والجملة الفعلية. ولمّا جاء بعض المتأخرين أضافوا نوعيْن آخريْن. فقد أضاف الزمخشري الجملة الشرطية، بدعوى أنها تختلف في مواصفاتها عن الجملة الفعلية والاسمية كلتيهما ... وأضاف ابن هشام الجملة الظرفية لتكون أنواع الجمل أربعةً عند بعض النحاة. ثمّ جاء بعض المحدثين بتقسيمات جديدة لتتعدد عندهم أنواع الجمل، وذلك انطلاقا من تعدد أقسام الكلِم عندهم.

والحقيقة أنّ القدماء لم يجانبوا الصواب عندما اقتصروا على النوعيْن المذكوريْن للجملة. ذلك أنّ البقية إنما هي أنماط مختلفة للنوعيْن الرئيسيْن السابقيْن. ولقد استعمل النحاة الأوائل كلّ هذه الأنماط لكنهم لم يجعلوا كل نمط منها جملة قائمة بذاتها، لأنّ هذا التفريع يوقِعُ الدارس في إشكالات عديدة لا تُفْضي إلى نتيجة علمية . والأنسب – كما يرى الدكتور محمود

أحمد نخلة – هو أنْ يتمّ " استخدام أقلّ قدر من الرموز لإيضاح أكبر قدر من المادة اللغوية ، وهو أمر يطالب به اللغويون المحدثون ، أما التحليل التفصيلي للأنماط فسيأتي بعد الانتهاء من سردها .. " **(1)**

وبناء على ما بيّنّا فإنّ الجملة الشرطية تُعَدُّ نمطاً من أنماط الجملة الاسمية أو الفعلية. فيكون لديْنا إذاً الجملة الشرطية الاسمية والجملة الشرطية الفعلية . ومثال الأولى قول المتنبي :

لولا المشقّة ساد الناس كُلُّهُمُ ** الجود يُفْقر والإقدام قتّال . [البسيط]

إذ الجملة بعد أداة الشرط هي جملة اسمية في الأصل حُذف خبرها لوجودها في سياق الشرط . ومثال الثانية قول الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا (الآية) " [الحجرات / 6] هذا مع حروف الشرط ..

أمّا إذا كانت الجملة الشرطية مصدّرة بأسماء الشرط ، فإنْ كان اسم الشرط لمسمّى عاقل أو غير عاقل ، كما في : مَنْ و ما و مهما ، فالجملة الشرطية اسمية ، ذلك لأنّ دلالة اسم الشرط ههنا هي على أصلها. ومنه قول المتنبي :

مَنْ يهنْ يسهل الهوان عليه ** ما لجرح بميّت إيلام . [الخفيف]

1) – د / محمود أحمد نخلة : نظام الجملة في شعر المعلقات . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية .(1991) . ص91

وإنْ كان اسم الشرط منقولاً من الظرفية أو الحالية – مثلاً – للدلالة على الشرط ، فالجملة الشرطية عندئذ فعلية، لأنّ ما يأتي بعد هذه الأسماء لا يكون إلاّ فعلاً ، وذلك لأنّ أداة الشرط ههنا ليست على أصلها ، إذ أصلها ما وُضِعَتْ للدلالة عليه كالمكان والزمان والحال وغير ذلك. ومن ذلك قول أبي تمام :

متى تأتِه تعشو إلى ضوء ناره ** تجدْ خيْر نار عندها خيْر مُوقِد [الطويل]

والخلاصة أنّ الجملة الشرطية ما هي في الأصل إلاّ جملة فعلية أو اسمية حدث فيها ما يسمّى في النظرية التوليدية التحويلية بعملية التحويل ، إلاّ أنّه تحويل على مستوى الجملة لا على مستوى المفردات . فأدّى هذا التحويل إلى نمط مختلف عن الأصل. وهذا النمط هو ما يسمى بالجملة الشرطية . وبهذا يمكن القول بأنّ الجملة الشرطية هي فرع عن الأصل الذي تمثلة الجملة الاسمية أو الفعلية. وما التحويل إلاّ تفريع للأصل الواحد...

وعلى هذا يكون تحديد النحاة للجملة بناءً على ما تبدأ به تحديداً لفظيّاً منطقياًّ في حقيقته، وهو مما تقتضيه الدراسة اللّغوية وفق منهج علميّ منظم دقيق يسهّل على الدارس تعامله مع اللغة وفهمه لها، واستعماله لها مضبوطة محددة، ولا سيما في المراحل التعليمية. وهذا لا يمنع من تعميق البحث والدراسة انطلاقا من هذا الأصل إلى فروع أخرى متعددة ... بل إنّ هذا المنهج يفتح المجال لمواصلة البحث وتوسيعه في مختلف الأبواب والمسائل النحوية واللغوية وغيرها، من غيْر أنْ يتمّ إهمال جانب المعنى

والدلالة، فالذي نريد التعبير عنه هو سلوك منهج اللفظ للوصول إلى دراسة المعنى، وذلك في القضايا اللغوية والنحوية على الخصوص .

*** تقديم الجواب على الشرط :**

اختلف النحاة في مسألة تقديم الجواب على الشرط في الجملة الشرطية ، ففي قولهم (أقومُ إنْ قمتَ) اعتبر البصريون الجواب محذوفا ، وما هو مذكور قبل الأداة إنما يدل عليه وليس هو . أمّا تقديم الجواب فقالوا بأنه لا يجوز ، ذلك " لأن الشرط بمنزلة الاستفهام له، صدر الكلام فلا يجوز أن يقال « زيدا أضربت ؟ » فإذا ثبتت المشابهة بينهما ينبغي أن يُحْمَل أحدهما على الآخر ." **(1)** فالجواب عند البصريين إذًا محذوف وليس متقدما . وذهب الكوفيون إلى " أن الأصل في الجزاء أن يكون مقدما كقولك : " أضرب إنْ تضرب ".**(2)** وشاهدهم من كلام العرب قول الشاعر **(3)** :

يا أقرع بن حابس ياقرع ** إنك إنْ يصرعْ أخوك تصرعُ

[الرجز]

والتقدير عندهم : إنك تصرعُ إن يصرعْ أخوك ، لأنّ الجواب (تصرعُ) مرفوع . وهذا دليل تقدُّمه في الأصل عندهم، إذْ لو لم يكن مقدّما لكان

---

1) – الإنصاف في مسائل الخلاف : 627/2

2) – المصدر نفسه : 623/2 . وتناول هذه المسألة الرضيّ الإستراباذي في شرحه على كافية ابن الحاجب : 238/2

3) – هو جرير بن عبد الله اليحلي ، وهذا البيت من شواهد سيبويه : 436/1.وهو في خزانة البغدادي396/3- 643 وشرح المفصل لابن يعيش : 12/7. ومغني اللبيب لابن هشام تحت رقم : 807 . وشرح ابن عقيل تحت رقم : 342 وغيرها.

مجزوما." (1) لكنّ هذا الشاهد من القليل في هذا الباب..وقد استدلوا على ذلك أيضا ببيت زهير:

وإنْ أتاه خليل يوم مسألة ** يقول لا غائب مالي ولا حرِم (2).
[البسيط]

فرفع : يقولُ دليل على أنه متقدّم في الأصل ، إذْ لو كان في مكانه الأصلي لجاء مجزوماً، لكنّ بعض النحاة البصريين أجازوا رفع الجزاء إذا كان فعلاً مضارعاً وكان فعل الشرط ماضياً .. وهذا ما نراه في بيت زهير ، ومثله كثير في الاستعمال.

وفي كلام البصريين عن حمل الشرط على الاستفهام ما يشير إلى حمل الأصل على الفرع . فالاستفهام أصل لأنه لا ينفك عن الصدارة ، والشرط فرع لأنه يفقد الصدارة أحيانا .

أمّا ابن جني فيرى أن الجواب لا يتقدم على الشرط إذْ يقول: " لا يجوز تقديم الجواب على المجاب ، شرطًا كان أو قسَمًا أو غيرهما : ألا تراك لا تقول : أقمْ إن تقمْ . فأمّا قولك : أقوم إنْ قمت . فإنّ قولك أقوم ليس جوابا للشرط . ولكنه دال على الجواب ، أي : إنْ قمت قمت ، ودلّتْ

---

1) - الإنصاف في مسائل الخلاف : 2 / 224

2) – زهير بن أبي سلمى : الديوان – دار صادر – بيروت (د . ت) ص91 . والبيت من قصيدة بعنوان : " الجواد على علاته هرم ". قالها في مدح هرم بن سنان [**الخليل** : الفقير ذو الخلّة (أي الفقر) / **لاحرم** : غير ممنوع مالي عنك]

: أقوم على: قمت . ومثله : أنت ظالم إنْ فعلت ، أي : إن فعلت ظلمت فحذفت : ظلمت ودلّ قولك: أنت ظالم ، عليه ." **(1)**

فابن جني على مذهب أهل البصرة في أنّ المتقدم ليس جواب الشرط، بل هو ما يدل عليه، وحجّته هي عدم جزم هذا المتقدم في بداية الجملة على الرغم من كون الشرط جازما. فعدم جزمه دليل على أنه ليس الجواب. كما أن تغيير صيغة الجواب في التقدير الأصلي تبين اختلاف هذا المتقدم على ما بعد الأداة . وهذا أيضا دليل على أنه ليس الجواب الحقيقي للشرط وإنما هو دال عليه فقط . وعلى هذا فالجواب الحقيقي عنده – كما قال البصريون – غير مذكور في الجملة . ولكن أنّى يريد أبو الفتح أنْ يُجزَم الجواب وقد تأخّر عامل الجزم فيه وهو (إنْ) الشرطية ؟ في مثل : أقوم إنْ تقمْ .

أما ابن القيم فيخالف البصريين وابن جني فيما ذهبوا إليه ويؤيد مذهب الكوفيين في أنّ المتقدم هو الجواب . وهو ما يراه الجرجاني أيضا . وفي هذا يقول ابن القيم : "... وقال الكوفيون المتقدم هو الجزاء والكلام مرتبط به ، وقولهم في ذلك هو الصواب وهو اختيار الجرجاني ، قال (يعني الجرجاني) : الدليل على أنك إذا قلت : آتيك إنْ آتيتني ،كان الشرط متصلا بآتيك ." **(2)**

ويزيد ابن القيم هذه المسألة توضيحا وتعليلا رابطا بين جملتي الشرط والجواب، ومعتبرا إياهما جملة واحدة ومبينا سرّ تقديم الجزاء على الشرط ،

---

1) – الخصائص : 2 / 387-388

2) – بدائع الفوائد : 1/49-50

فيقول : "...الشرط والجزاء جملتان قد صارتا بأداة الشرط جملة واحدة . وصارت الجملتان بالأداة كأنهما مفردان فأشبها الفردين في باب الابتداء والخبر ، فكما لا يمتنع تقديم الخبر على المبتدإ فكذلك تقديم الجزاء . وأيضا فالجزاء هو المقصود ، والشرط قيد فيه وتابع له ، فهو من هذا الوجه رتبته التقديم طبعا. ولهذا كثيرا ما يجيء الشرط متأخرا عن المشروط ، لأنّ المشروط هو المقصود وهو الغاية. والشرط وسيلة ، فتقديم المشروط هو تقديم الغايات على وسائلها. ورتبتها التقديم ذهنا وإنْ تقدمت الوسيلة وجودا ، فكل منها له التقديم بوجه وتقدُّم الغاية أقوى . فإذا وقعت في مرتبتها (يعني التقديم) فأيّ حاجة إلى أنْ تقدّرها متأخرة . وإذا انكشف الصواب ، فالصواب أنْ تدور معه حيث دار." **(1)**

فجملتا الشرط والجواب عند ابن القيم بمنزلة الجملة الواحدة، بسبب الارتباط والتلازم الحاصل بينهما بواسطة أداة الشرط، وبهذا لا يتم معنى إحداهما إلاّ بالأخرى . وهما في ذلك تشبهان ركني الإسناد اللّذ يْن لا يستغني أحدهما عن الآخر . فصارتا كالجملة الواحدة . أمّا قوله (كأنهما مفردان) فيريد أنْ يعبّر به عن قوّة الارتباط بينهما باعتبار أنّ الخبر هو وصف للمبتدإ . فكأنه هو من حيث المعنى . لذا أمكن تقديم الجواب على الشرط قياسا على تقديم الخبر على المبتدإ ، دون أن يؤدي ذلك إلى فكّ الارتباط المعنوي الحاصل بينهما .

ويطلق ابن القيم على الجواب اسم (المشروط) ويجعله الغاية في الجملة الشرطية لأنه هو المقصود، وأمّا الشرط فهو قيد يتوقف عليه الجواب

---

1) – المصدر نفسه : 1/51-52

(المشروط) . فما الشرط إلاّ وسيلة إنْ وُجِدت تحققت الغاية التي هي الجواب . فتقديم الجواب على الشرط إذًا هو تقديم الغايات على وسائلها . وهذه الغايات رتبتها التقديم في الذهن دائما ، حتى وإنْ تقدمت وسائلها وجودا (أي : في ظاهر الترتيب) . فالمسألة عنده إذًا قائمة على المعنى والقصد من الكلام، لا على العمل النحوي مجرّداً من المعنى .. وتلك – في رأينا – هي النظرة الصحيحة للنحو على الخصوص وللّغة بصفة عامة، وهي أنّ العمل النحوي والإعراب يجب أن يُنْظر إليهما متصليْن بالمعنى، بناءً على ما بين الكلِم من العلاقات ..

وعلى رأي ابن القيم يكون لكل من الجواب والشرط تقديم خاص به. فالجواب له التقديم الذهني المتعلق بالقصد من الكلام، والشرط له التقديم الوجودي الظاهر المتعلق بترتيب أجزاء الكلام. فإذا تقدمت الغاية – كما يقول – فما الحاجة إلى تقديرها وعليها مدار الكلام ومراد المتكلم . وهكذا يزيد ابن القيم رأي الكوفيين في هذه المسألة قوة وإثباتا ، ويردّ رأي البصريين ورأي ابن جني في كون المتقدم دالاّ على الجواب فقط وليس هو الجواب. ويلتقي رأيه هنا –كما في مسائل أخرى كثيرة– مع رأي الجرجاني في اعتدادهما بالمعنى، وعدم انسياقهما وراء القاعدة في كل الأحوال . فالقصدُ من الكلام وانسجامُ النّظم وتحقيقُ التخاطب والتفاهم على أساس المعنى المراد ، ذلك ما يجمع بين ابن القيم والجرجاني وإنْ تباعدا زماناً بأكثر من قرنين ..

والذي نرتضيه هو رأي الكوفيين والجرجاني وابن القيم في أن المتقدم هو الجواب.وليس ما يدل عليه. وأن التقديم حاصل ههنا لكون الجواب محلّ

اهتمام المتكلم وعنايته، بقصد التركيز عليه في الكلام . فقولنا مثلا : ستنال البرّ إنْ صدق إيمانك . فيه تركيز على نيل البرّ باعتباره محل الاهتمام وعليه مدار الكلام . وعلى هذا يكون هو الجواب مقدّما على شرطه الذي هو قيده المتعلّق به . ولا داعي لتقدير جواب آخر بعد الشرط ، واعتبار المذكور دالا عليه حالاًّ محلّه . ونحن نعلم أنّ المتكلم المستعمِل للجملة الشرطية بهذا الشكل لا يقصد إلاّ ما نطق به، وهذا المنطوق هو الذي يأخذ به المخاطب في عملية التواصل والتفاهم بينهما . كما أنّ تقديم الجواب على الشرط هو مما يكثر استعماله في اللغة حتى ليكاد يكون أصلا في التخاطب . وهو مما تقتضيه طبيعة اللغة كما نطقها العرب لا بحسب ما تمليه القاعدة المصنوعة ، أو لِنقُلْ: هو ما أرادته اللغة لا ما أراده بعض النحاة فقد تأتي اللغة وفق ما يقرره النحاة ، وقد تخالف مقاييسهم ، وهو ما يجب على دارس اللغة أن يراعيه كلَّه ..

*** إعراب الجملة الشرطية :**

قبْل الكلام عن اختلاف النحاة في إعراب الجملة الشرطية المصدّرة بأسماء الشرط (مَنْ و ما و مهما و أيّ) يحْسُن بنا أن نبيّن سبب اعتبارهم هذه الأدوات الشرطية الجازمة أسماءً **(1)** . فلقد ميّزوا الاسم بأنه ما دلّ على معنى في نفسه وفي غيره. وميّزوا الحرف بأنه ما دلّ على معنى في غيره فقط . وأسماء الشرط دالة على معانيها التي في نفسها ، وهي الدلالة على العاقل أو غير العاقل أو الظرفية أو غير ذلك .. ودالة على المعنى الذي في غيرها ، وهو الدلالة على الشرط . وبهذه الدلالة

1) – يُستثْنَى من هذه الأدوات الجازمة (إنْ و إذْما) لأنهما حرفان .

المزدوجة حازت الاسمية دون الأداتيْن (إنْ و إذْما) اللتيْن لا تدلاّن إلاّ على المعنى الذي في غيرهما ، وهو الشرط ، فاعتُبِرتا بذلك حرفيْن.

ولْنعُدْ الآن إلى اختلاف النحاة في إعراب أسماء الشرط . فقد رأى بعضهم أنّ هذه الأسماء إذا وقعت مبتدأ فإنّ خبرها هو جملة الشرط وحدها وهو ما يراه ابن هشام إذْ يقول : " الصحيح أنّ خبر اسم الشرط هو جملة الشرط لا جملة الجواب ، وهذا يتبادر إلى ذهن من لا يتأمل إلى دفعه معتمداً على أنّ الفائدة إنما تتمّ بالجواب الذي هو محطّ الفائدة . وجواب هذا التوهّم أنّ الفائدة إنما توقفت على الجواب من حيث التعليق لا من حيث الخبرية ، لأنّ (مَنْ) اسم للشخص العاقل وضُمِّنَت معنى الشرط . فإذا قيل : مَنْ يقمْ أقمْ معه ، كان (مَنْ يقمْ) مع قطْع النظر عمّا ضُمِّنَتْهُ (مَنْ) مِنْ معن الشرط بمنزلة قولك : شخصٌ عاقلٌ يقوم . وهذا لا شك في تمامه . فلمّا ضُمِّنَ معنى الشرط توقف معناه على ذلك الجواب ، فمِنْ هنا جاء النقص لا من جهة المعنى الإسنادي... "**(1)** وهو ما يؤيّده السيوطي في الهمع **(2)** والصّبّان في اشيته على شرح الأشموني للألفية ، وهو ما يرجحه عباس حسن ، مستعملاً مصطلح (الجملة الشرطية) للتعبير عن جمل الشرط ، ومصطلح (الجملة الجوابية) للتعبير عن جملة الجزاء أو الجواب **(3)** ولكنه يعتبر جملة الشرط خبراً غيْر مُتَمِّمٍ للمعنى ما

---

1) – ابن هشام : رسالة المباحث المرضية المتعلقة بـ: مَنْ الشرطية . تح : د/ مازن المبارك – دار ابن كثير – دمشق – بيروت/ ط1 (1987) . ص 36 وما بعدها . وينظر: المغْني : في مبحث إعراب أسماء الشرط .

2) – ينظر : همع الهوامع للسيوطي : في مناقشة مسألة إعراب أسماء الشرط والاستفهام 2/ 64.

3) – ينظر : النحو الوافي 418/4 .

لم تُذْكَر جملة الجواب . ولستُ أدْري كيف يمكن اعتباره خبراً ما لم يؤدّ وظيفة الإخبار عن المبتدأ ، وما هذه الوظيفة إلاّ إتمام المعنى ، وعليه ، فإنّ القول وصف كلمة ما أو جملة بأنها خبر لمبتدأ ، لا بدّ أن يرَاد به إتمام المعنى لا غيْر . وارتباط الخبر (أي : المخبَر به) بالمبتدإ (أي : المخبر عنه) ناشىء في أصله من ارتباط التعبير بالتفكير . ويأتي هذا الخبر في شكل حُكْم قد يكون مثبتاً وقد يكون منفيّاً وقد يكون مؤكّداً، وقد يكون غير ذلك .

ورأى آخرون أنّ خبر هذه الأسماء هو جملة الجواب وحدها، وهو ما نجده عند الدكتور سعيد الأفغاني الذي يقرر – في كلامه عن (ما ، منْ ، مهما) أنّ هذه الأسماء " تُعرب مفعولاً به إنْ كان فعل الشرط متعدياً لم يستوف مفعولاته، وإلاّ أُعْرِبتْ مبتدأ خبره جملة جواب الشرط ." **(1)**

ورأى آخرون أنّ خبرها هو جملتا الشرط والجواب معاً وهو رأي طائفة من النحويين منهم : الهروي وابن يعيش وغيرهما. يقول ابن يعيش في شرحه على مفصل الزمخشري:" تقول:أيّهم يأتني آته،وأيّهم يحسن إليَّ أُحسنْ إليه. ترفع (أيّاً) بالابتداء وما بعدها من الشرط والجزاء خبر."**(2)**

ويرى الدكتور مازن المبارك ، محقق رسالة المباحث المرضية لابن هشام ، أنّ سبب هذا الاختلاف في اعتبار النحاة جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما معاً خبراً للمبتدإ الذي هو اسم الشرط " هو اختلاف

---

1) – سعيد الأفغاني : مذكرات في قواعد اللغة العربية . ص 43 (عن رسالة المباحث المرضية) . ص 48

2) – ابن يعيش : شرح المفصل : 7 / 44 .

منطلقاتهم وتبايُن آرائهم في تحديد معنى (الجملة) فهم لم يحددوا مفهومها ، ولم يتقوا عليه . وهم لو فعلوا لزال الخلاف فيما بينهم، ولقاربوا الإجماع أو ما يشبهه .. " **(1)** . وقد لاحظ أنّهم أهملوا دراسة الجملة وأحوالها واقتصروا على دراسة المفردات ، فهو يقول بأنّ دراسة الجملة عندهم كانت " موزعة بين علمي النحو والمعاني ، وكان جلّ انصراف النحويين إلى المفردات وأحكامها والحروف ومعانيها والعوامل وما يترتب عليها ، وأما الجملة فلم يمسّوها إلاّ مسّاً رفبقاً ومن ناحية إعرابها وتأويلها بالمفرد أو عدمه ... " **(2)**

وفي كلام ابن هشام عن الجملة ما يدلّ على أنّ هناك جملاً تامّة المعنى ، وجملاً ليست كذلك . فمثال الأولى الجمل المستقلّة عن غيرها فعلية كانت أم اسمية . ومثال الثانية الجمل غير المستقلّة كجملة الصلة وجملة الشرط وجملة الجواب .. فكل واحدة من الصنف الأول هي جملة وكلام .. وكل واحدة من الصنف الثاني هي جملة وليست كلاماً. وانطلاقاً من هذا اعتبر ابن هشام – ومعه جمهور النحاة – أنّ جملة الشرط وحدها هي خبر اسم الشرط (المبندأ) . بينما اعتبر آخرون أنّ جملتي الشرط والجواب معاً هما خبر اسم الشرط (المبتدأ) ، ذلك لأنهم يعتبرون الجملة والكلام شيئا واحداً وهو ما لا نجده عند ابن هشام . وبذلك يصدق رأي

---

1) – رسالة المباحث المرضية المتعلقة بـ: مَنْ الشرطية لابن هشام . تحقيق الدكتور مازن المبارك . ص 48 – 49 .

3) – المرجع نفسه : 49

الدكتور مازن المبارك الذي عزا هذا الاختلاف إلى اختلافهم في تحديد معنى الجملة ..

وعندما نرجع إلى الذين اعتبروا الجملة والكلام مترادفيْن واشترطوا الفائدة والتمام في ذلك – كما هو الشأن عند الزمخشري وابن يعيش وغيرهما – فإننا نجدهم يجعلون جملة الشرط والجواب جملتيْن لا جملة واحدة . فهذا ابن يعيش ينقل لنا رأي الزمخشري الذي يقرّ – في باب أصناف الحرف – أنّ حرفي الشرط (إنْ ولو) " يدخلان على جملتين فتجعلان الأولى شرطاً والثانية جزاءً كقولك : إنْ تضربْني أضربْك، ولو جئتَني لأكرمتك"**(1)** ثمّ يصرّح شارح المفصل – وهو يعلّق على كلام الزمخشري – قائلاً:".. قد تقدم القول أنّ (إنْ) الشرطية تدخل على جملتيْن فعليتيْن فتعلّق إحداهما بالأخرى، وتربط كل واحدة منهما بصاحبتها حتّى لا تنفرد إحداهما عن الأخرى..." **(2)**

فقد لا حظْنا أنّ هؤلاء الذين لا يعتبرون كلاًّ من جملة الشرط وجملة الجواب جملةً لعدم تمام كل منهما ، وعدم حصول الفائدة بإحداهما ، ولا يعتبرونهما – على هذا – كلاماً إذ الكلام هو التام المفيد وهو الجملة عندهم ... لاحظْنا أنّ هؤلاء قد صرّحوا بأنّ جملة الشرط والجواب جملتان لا جملة واحدة . وهم الذين اعتبروهما في مواضع أخرى جملة واحدة تؤدي وظيفة الخبر بعد أسماء الشرط ، كما بيّنّا آنفاً ..

---

1) – ابن يعيش : شرح المفصل : 8 / 155 .

2) – المصدر نفسه : 8 / 157 .

وقد ذكرْنا أنّ ابن القيّم شبّه جملتي الشرط والجواب بالاسميْن المفرديْن في باب الإسناد ، لكنّه لم يقل بأنهما جملة واحدة ، بل هما عنده جملتان .كما أنّ المسند والمسند إليه المفرديْن (المبتدأ والخبر) ليسا اسماً واحداً بل هما اسمان . لكنهما مرتبطان أحدهما بالآخر، ومتلازمان . وكذلك الشأن في جملتي الشرط والجواب ، فبينهما ما بيْن المسند والمسند إليه من الارتباط والتلازم، لكنهما جملتان في الأصل لا جملة واحدة ..

والقول بأصلية الجواب وكونه الغاية من الكلام في أسلوب الشرط هو ما يعبَّر عنه في نظرية تشومسكي بالجملة التوليدية (النواة)، وهي جملة الجواب . أمّا جملة الشرط مع أداتها فتمثل عنصرا من عناصر التحويل يتمثل في الزيادة .وبدخول عنصر التحويل هذا على الجملة النواة التي هي جواب الشرط نحصل على جملة تحويلية. وبتقديم الجواب على الشرط يضاف عنصر ثان من عناصر التحويل في الجملة الشرطية هو عنصر الترتيب .

وإذا اعتبرنا جملة الجواب هي الأصل فإنه يمكننا القول بأنّ الجملة الشرطية هي دائما جملة تحويلية . فإنْ كان ترتيبها على الأصل ففيها عنصر واحد من عناصر التحويل هو الزيادة ، وإن كان الجواب فيها مقدّما ففيها عنصران من عناصر التحويل هما : الزيادة والترتيب ..

والخلاصة أنّ الجملة الشرطية في العربية من الأنماط التركيبية المتداخلة، ولذلك اختلف فيها النحاة منذ القديم، حتّى عدّها بعضهم قسماً قائماً بذاته كما فعل الومخشري. واختلف فيه المحدثون بين سالك مسلك الزمخشري وآخذ بآراء النحاة الأوائل، ومجتهد مخطئ ومصيب ..كما أنّ

الجملة الشرطية من أبرز المجالات التي تجلّى فيها صلة الدرس النحوي العربي بالدراسات اللغوية الحديثة، ولا سيما النظرية التوليدية التحويلية كما بيّنّا في ختام هذا المقال...

من سمات الأداء في ثقافة العرب الأولين *(الإيقاع)*

الدكتور:بلقاسم بلعرج

جامعة قالمة

ملخص الدراسة

تناولت هذه الدراسة سمة من سمات الأداء الكلامي عند العرب القدامى وهو الإيقاع،وبينت أن الحياة تقوم به وعليه ،وأن الإنسان يدركه في كامل مراحل حياته ،حتى وهو جنين في بطن أمه .ومنه فإن الرسالة اللغوية لا تقتصر على ماذا نقول فحسب بل على كيف نقول أيضا.

ولهذا احتفل العرب الأولون بالعنصر الإيقاعي وعدوه وسيلة فعالة من وسائل الاتصال والتبليغ لما فيه من قوة التأثير في المتلقي فظهر في فنونهم التعبيرية شعرا ونثرا، وصار مظهرا من مظاهر حياتهم؛ فهم أمة تعتمد على المنطوق أكثر من المكتوب فصقلت مواهبهم ودقت مسامعهم وأرهفت أحاسيسهم فصاروا بفطرتهم يحسون بموسيقية الكلام أيا كان نوعه، ويتفننون في طرق ترديد الأصوات ،ويتبارون ويتفاخرون فيما هو أكثر تأثيرا في السامع.

ومن ثم جاءت لغتهم إيقاعية تقوم على مبدإ المقاطع التي نلمح من خلالها تناسبا بين الصوامت والصوائت على مستوى الألفاظ وعلى مستوى التراكيب في المنظوم و المنثور .

ولم تخل كذلك من خصائص مميزة تستحسنها الطبائع والنفوس كالتوازي والتوازن والتعادل والتكرار... الخ.

وخلصت الدراسة إلى نتيجة عامة مفادها أن المنشأ النفسي لميل العرب إلى الإيقاع في الفن القولي العام يعود إلى التركيب النفسي للشخصية العربية القديمة التي طبعتها حياة الصحراء القاسية والرتيبة حيث لا جديد في مشاهدها التي تتكرر كل يوم ،فأثر ذلك في حسها وذوقها حتى ظهر في فنها ،ألفاظا ومفردات وتراكيب.

لقد ثبت علميا أن حاسة السمع لدى الإنسان أهم الحواس الخمس في عمليتي الإدراك و التواصل لا مع غيره فحسب و إنما مع الكون كله الذي يمتلئ بآلاف الأصوات ليلا و نهارا ،و أنها الحاسة التي لا تتوقف عن العمل حتى في حالة نوم الإنسان[1].

ومن ثم إنها ليست آلة لإدراك المحسوسات من الأصوات فقط، و إنما لإدراك المعقولات من المعاني أيضا؛ فقد نابت عن العقل في بعض الأحيان في قبول الأشياء و رفضها، نحو قوله تعالى:

"قالوا سمعنا و عصينا و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم"[2].و قوله تعالى:"من إله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون"[3].

تعني كلمة السمع في هاتين الآيتين فهم الكلام و عقله، ثم ما ينتج عنه من تصرف ورد فعل بعد ذلك.و منه يتبين أن السمع ما وقر في الأذن مما يسمعه الإنسان ، و ما وقر في العقل مما يفهمه كذلك ، فصار بذلك الوسيلة الرئيسة لتلقي العلم و اكتساب اللغة ، و لا يخفى أن اللغة العربية

---

[1]- ينظر الدلالة الصوتية لكريم زكي حسام الدين،مكتبة الأنجلو المصرية ط1 ، 1992 ص7 و ما بعدها.

[2]- سورة البقرة: 93.

[3]- سورة القصص: 71.

جمعت سماعا عن الأعراب من قبل الرواة و اللغويين ، و لعله لأ جل ذلك عده –أي السمع–ابن خلدون أبا الملكات اللسانية[1].

إننا بالسمع ندرك الدور المهم و المؤثر للصوت في حياتنا ؛به نعيش و عليه نعيش.و لا أدل على ذلك من المعلمين و المقرئين و المذيعين و الممثلين و المطربين و الباعة الجوالين و من في منزلتهم[2]..

لقد توصل الدارسون إلى أن عملية التواصل التي تعتمد على الكلام تستهلك حوالي 70% من وقت الإنسان الذي يقضيه متكلما و مستمعا[3]. وأن هذه العملية لا تقتصر على ما نقول فقط وإنما كيف نقول أيضا[4]و هو ما يعني أن كيفية الأداء الصوتي الكلامي تسهم إلى حد كبير في تحديد مفهوم الرسالة اللغوية[5]، لأن الأذن تنفعل بكل ما تسمع و تتفاعل معه إن إيجابا أم سلبا،

من ذلك مثلا قول الذلفاء[6] عندما سمعت صوت سنان[7].

ألا رب صوت رائع من مشوه * قبيح المحيا واضع الأب و الجد

يروعك منه صوته و لعله * إلى أمة يعزى معا و إلى عبد[8]

1– ينظر المقدمة، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت 1982ص 1071، 1072.

2– ينظر الدلالة الصوتية، هامش ص10.

3 ينظر –SULGER FRANCOIS , LES GESTES VERITE , SAND PARIS 1986 p :15

4– ينظر الدلالة الصوتية ص 149.

5– نفسه ص 15.

6– هي جارية الخليفة سعيد بن عبد الملك، ثم آلت بعد وفاته إلى أخيه سليمان بين عبد الملك.

7– هو مغني سليمان بن عبد الملك ونديمه وسميره.

8– ينظر العقد الفريد لابن عبد ربه، شرح وضبط أحمد أمين وآخرين دار الكتاب العربي بيروت 1982، 6/66–69.

وأوكد دليل على هذا ما دعا إليه القرآن الكريم في كيفية محاورة الآخرين أو دعوتهم أو مجادلتهم،

قال تعالى:"اذهبا إلى فرعون إنه طغا فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"[1].

و قال تعالى على لسان موسى عليه السلام:"و أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردا يصدقني فأخاف أن يكذبون"[2].

و قال تعالى:" و جاد لهم بالتي هي أحسن"[3] و قال:" و قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن"[4] و قال :" و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن[5].

من كل هذه الأمثلة يتبين جليا أنه إذا كانت اللغة في جوهرها وسيلة من وسائل التواصل المختلفة– وهي أهمها على الإطلاق – فإن حسن الصوت و حسن الأداء يصلان ما بين النفس و الكلمة،و ما بين الإنسان و الحياة[6].

وقد كان المجتمع العربي منذ العصر الجاهلي يتواصل بلغة عربية تجمع بين الشعر و النثر اللذين يمثلان الكلام الذي لا يخرج عن أن يكون تركيبا معينا لنماذج من الأوزان الموسيقية بينها توافق في الجرس و النغمة

---

[1]– سورة طه: 44.

[2]– سورة القصص: 34.

[3]– سورة النحل: 125

[4]– سورة الإسراء:53

[5]– سورة العنكبوت:46

[6]– ينظر الإيقاع الداخلي في القصيدة العربية المعاصرة لخالد سليمان، مجلة الآداب جامعة قسنطينة (الجزائر) العدد 4، 1997 ص258.

و الانسجام أي أنه يتركب من وحدات تتشابه و تختلف ، و تتكرر و تتناظر ، و يتألف من مجموعها ما يمكن تسميته قطعة موسيقية[1].

يقول الجاحظ "علم لو أنك اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مستفعلن مستفعلن كثيرا ، و مستفعلن مفاعلن و ليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا"

و لو أن رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات و كيف يكون هذا شعرا و صاحبه لم يقصد إلى الشعر، و مثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام"[2].

و هو ما يستشف منه أن العرب الأولين كانوا يحفلون كثيرا بالعنصر الموسيقي، و لم يكن ذلك عندهم من قبيل الترف و إهدار الطاقات و إنما عدوه وسيلة فعالة من وسائل الاتصال و التبليغ،

إذ به يؤثر في المتلقي فينفعل و تتحرك مكنوناته فينصاع لذلك العمل الفني و ينجذب إليه.

و ذكر الموسيقى و الوزن يقودنا إلى الحديث عن الإيقاع موضوع دراستنا.

تعريف الإيقاع:

---

[1]– ينظر فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك، دار الفكر بيروت ط7، 1981 ص282، وينظر اللغة الشاعرة لعباس محمود العقاد، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960، ص8،7.

[2]– البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت (دت) 288/1، 289.

يذهب أبو حيان التوحيدي إلى أنه "فعل يكيل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة متعادلة"[1].

أو أنه "... تواتر الحركة النغمية و تكرار الوقوع المطرد للنبرة في الإلقاء و تدفق الكلام المنظوم و المنثور عن طريق تآلف مختصر العناصر الموسيقية"[2].

أو "هو التوازن الناشئ عن تقارب الشبه بين المسافات الفاصلة بين كل نبر و نبر، و هذا التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب و سبب قوي من أسباب ارتياح النفس له"[3].

وتجدر الإشارة إلى أن الباحثين أدركوا وثوق الصلة بين الإيقاع الموسيقي و بين النظام الذي تسير عليه حركة الجسم و الطبيعة[4]. فهو من هذه الناحية سمة من سمات الحياة بل هو الحياة نفسها-كما يقولون-يدركه الإنسان في مهده عندما تأخذه أمه لينام أوترقصه ليكف عن البكاء،

وقد أثبتت التجارب الطبية أن ضربات قلب الأم تمثل أول الإيقاعات التي يسمعها الطفل في بطن أمه،و بعد ولادته على صدرها، و نجد إحساسه بالأنماط الإيقاعية الأخرى تنمو معه تدريجيا قبل ولادته[5].

---

[1]- المقابسات، تحقيق حسن السند وبي، المطبعة الرحمانية، بمصر ط1، 1929 ص 310 وينظر المترع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السلحماسي تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط (المغرب) ص 407.

[2]- المعجم المفصل في الأدب لمحمد التونجي، دار الكتب العلمية بيروت ط2، 1،149/1999.

[3]- الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى لعيد محمد شبايك، دار حراء القاهرة ط1، 1993 ص70.

[4]- ينظر التعبير الموسيقي لفؤاد زكريا، دار مصر للطباعة ط1، 1956 ص 20،21.

[5]- ينظر الدلالة الصوتية ص 151، المتن والهامش.

و كما يشعر الإنسان بالإيقاع و هو جنين يدركه و هو طفل نائم على صدر أمه أو يرضع ثديها، و هو كذلك كبير و في كل زمان و مكان ، إذ كل شيء في الوجود يتحرك، سواء أكان ذلك حول نفسه أم حول غيره،مستقلا أم تابعا، و لننظر إلى الأجرام السماوية و إلى الطبيعة من حولنا و إلى أعضاء أجسامنا و إلى طريقة التنفس و دوران الدم فيها و ما إلى ذلك نجد كلا يتحرك وفق إيقاع معين[1].

و من ثم لا عجب أن يلحظه كل إنسان في فنونه التعبيرية شعرا كانت أم نثرا ، منه كلام العرب الذي إذا استمعنا إليه متصلا أحسسنا بتشابه كميات المسافات بين نبر و آخر، أو بتقاربها، و هو ما يمنح الأذن إحساسا بالإيقاع[2]. ذلك أن العرب أمة شعر بالدرجة الأولى–فهو ديوانهم– و أن الموسيقى و الإيقاع من مقوماته الأساسية و خاصتان تمييزيتان له، بهما يؤثر في نفوس المتلقين و بدونهما لا معنى لوجوده[3]. و لذلك يصعب فصلهما عنه و تناوله بصورة مستقلة عنهما.

إن للإيقاع لذة، و لذته لا تظهر في السمع و الفم بقدر ما تظهر في إحساس المتلقي بتحقق التلاؤم و التطابق بين الأنغام و الكلمات و المعاني التي تنفذ –من دون شك– إلى قلبه، و تهز أعماقه[4].

1– نفسه ص 151.

2– ينظر الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى ص71،70.

3– ينظر على سبيل المثال: عيار الشعر لابن طبا اعلوي تحقيق طه الحاجري،دار سعد زغلول، القاهرة1956 ص3 وموسيقى الشعر لابراهيم أنيس،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط5، 1981ص17.

4– ينظر الإبلاغية في البلاغة العربية لسمير أبو حمدان، منشورات عويدات الدولية بيروت، باريس ط1، 1991 ص66، 68. وينظر الشعر العربي المعاصر، ضاياه وظواهره الفنية والمعنوية لعز الدين إسماعيل دار الكتاب العربي القاهرة 1976 ص67.

يقول أدونيس:"الإيقاع في اللغة الشعرية لا ينمو في المظاهر الخارجية للنغم :القافية،الجناس،تزاوج الحروف و تنافرها،هذه كلها مظاهر أو حالات خاصة من مبادئ الإيقاع و أصوله العامة.

إن الإيقاع يتجاوز هذه المظاهر إلى الأسرار التي تصل بين النفس و الكلمة، بين الإنسان و الحياة"[1].

و ورد عن بيرتون (Burton) قوله:" إن الإيقاع يساعد في إنتاج الانفعال القوي و التأثير المتزايد ، و المتانة و المهابة ، وخفة السمع، و السرعة و الاسترخاء أو أي تأثير آخر يقصد إليه الشاعر"[2].

نستنتج مما ذكر أن الإيقاع مثير للاستجابة للصوت و الصورة و الانفعال و الفكرة،و هو من هذه الناحية ليس مجرد حقيقة سيكولوجية فحسب، و إنما هو عنصر إبداعي كبقية العناصر الإبداعية الأخرى. و ينطوي على بعد نفسي إبلاغي مؤثر سهل المرور إلى الجانب الآخر حيث المتلقي[3].

إنه موجود عند الشاعر و الموسيقي و الراقص و يقوم على مبدإ النظام و التناسب[4]. كما أنه في حقيقة أمره ليس مادة، و إنما هو إحساس تجسده المادة التي يرتبط بها فيتخذ شكلا ماديا ، و هو في الشعر و النثر متمثل في الحركات اللفظية، و في الموسيقى مجسد في الحركات الصوتية، و في الرقص متمظهر في الحركات البدنية، إنه من هذه النواحي كلها

---

[1]- مقدمة للشعر العهربي، دار العودة، بيروت ط4، 1983 ص94.

[2]- إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي لمحمد العبد، دار المعرف، مصر ط1، 1988 ص33.

[3]- ينظر المرجع نفسه ص33، وينظر الإبلاغية في البلاغة العربية ص69.

[4]- أي هو تنظيم زمني للحركة، ومن ثم هو تنظيم زمني لحركة اللحن.

بمثابة الظرف أو الوعاء أو القالب للحركة اللفظية و الصوتية و البدنية ، فيظهر بذلك للحس، و يشعر الإنسان معه باللذة و الجمال، و أي خلل يصيبه يترتب عليه فساده، و يحل محله ما يمكن تسميته بالاضطراب[1].

كما أن أي تغير فيه أو تنوع يترتب عليه تغير العاطفة و الفكرة، بل و الصورة و الإحساس كذلك[2].

و انطلاقا مما توصل إليه العلماء من أن للحياة الاجتماعية و البيئة الطبيعية تأثيرا على لغة الإنسان ، يظهر في ألفاظه و كلماته و أساليبه ، يقتضي منطقيا أن تغير إيقاع الحياة و مقتضيات التعبير تفرض على الشاعر أو المتكلم التأقلم معها صوتا و أسلوبا و معنى .

و المطلع على تراث العرب الأولين يجد أغلب مظاهر عقليتهم محصورا في أدبهم، أي في اللغة و الشعر و الأمثال و القصص[3]، و هي نتيجة منطقية لحياتهم الاجتماعية و صورة صادقة لبيئتهم الطبيعية[4].

وهي –كما يبدو – مظاهر ، للإيقاع فيها حضور قوي ، فهم يعتمدون على المنطوق أكثر من المكتوب نظرا لطابع الأمية المتفشي فيهم من ناحية و بساطة و سائل الكتابة و التدوين و ندرتها من ناحية ثانية، و لذا نقرأ عنهم تميزهم بآذان موسيقية و إحساس مرهف جعلهم بفطرتهم يحسون

1– ينظر الدلالة الصوتية ص 151، 152.

2– ينظر إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ص33.

3– وهذا لا ينفي معرفتهم بالأسباب والأنواء والسماء وبشيء من الأخبار والطب، وهي لبساطتها لا ترقى إلا تمثيل عقيلتهم تمثيلا حقيقيا خلافا للشعر والنثر.

4– ينظر فجر الإسلام لأحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت ط10، 1969 ص 46 وما بعدها. والشعر الجاهلي لعيد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة بيروت 1986 ص 69 وما بعدها.

بموسيقية الكلام أيا كان نوعه، و يتفننون"في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم وسيقى، و حتى يسترعي الآذان بألفاظه، كما يسترعي القلوب و العقول بمعانيه، مما يدل على مهارتهم في نسج الكلمات و براعتهم في ترتيبها و تنسيقها، و الهدف من هذا هو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ في الأسماع، بحيث يصبح البيت الشعري أو الجملة من الكلام أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، و يرى فيها دليل المهارة و القدرة الفنية"[1] و لذلك نجدهم كثيرا ما يتبارون و يتفاخرون في قول الكلام المؤثر في السامع و يمدحون شدة العارضة[2]، و قوة المنة[3] و ظهور الحجة و ثبات الجنان، و التفوق على الخصم و يهجون بخلاف ذلك[4].

و أورد الجاحظ أمثلة شعرية كثيرة يستدل بها في هذا المجال من ذلك قول أحدهم(طويل)

سل الخطباء هل سبحوا كسبحي * بحور القول أو غاصوا مغاصي

لساني بالنثير[5] و بالقوافي * و بالأسجاع أمهر في الغواص[6]

من الحوت الذي في لج البحر * مجيد الغوص في لجج المغاص[7]

1- لغتنا الجميملة لفاروق شوشة، مكتبى مدبولي، القاهرة (دت) ص 165.

2- العارضة: هي هنا القدرة على الكلام.

3- المنة: هي إما القوة وإما القلب، فتصير قوة المنة تعني قوة القلب.

4- ينظر البيان والتبيين 176/1.

5- النثير: الكلام المنثور.

6- لم يرد هذا فيما توفر لدى من معجمات كالعين والجمهرة ولسان العرب ويبدو أن فيه شذوذا تصريفنا حيث صحت الواو، وقد ورد في القاموس المحيط (الغياص) بالياء المنقلبة عن واو لأجل الكسرة التي قبلها، والغياص والمغاص كلا يعني النزول الماء.

7- ينظر البيان والتبيين 179/1.

و هو ما يوحي بأن العرب كانت تنتقي أصوات الألفاظ، و تحسن سبكها و التأليف بينها و كذلك التراكيب ، مراعية التنسيق الصوتي فيها و الانسجام، و ذلك أفاد منه اللغويون و النحاة كثيرا فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي يضبط ألفاظ اللغة – أسماء كانت أم أفعالا– في قوالب صرفية ذات إيقاع موسيقي مضبوط و دقيق لا يحيد عنه متكلم اللغة ،فما دل مثلا على الفاعلية من الثلاثي المجرد يكون دائما على وزن (فاعل) و ما دل على المفعولية من (استفعل) يكون على وزن (مستفعل)، و ما دل على جمع العاقل من (افتعل) هو على وزن (مفتعلون)[1]

ولعل هذا كان من الأسباب التي اهتدى بها إلى ضبط أبيات الشعر بالأوزان متخذا الأساس الصوتي بناء.و لا عجب في ذلك، فاللغة العربية لغة إيقاعية تقوم على مبدإ المقاطع التي نلمح من خلالها تناسبا بين الصوامت و الصوائت ، سواء على مستوى الألفاظ أم على مستوى التراكيب في المنظوم و المنثور.

و قد بلغ أثر العامل الموسيقي فيها أوجه في طورها الجاهلي و في طورها الإسلامي[2] الذي لم تخل قراءة القرآن الكريم من الطابع الإيقاعي و النغمي فيه ، فقد ورد أن هناك أقواما ابتدعوا أصوات الغناء المصحوبة بالتطريب عند قراءتهم للقرآن ، من ذلك أنهم وضعوا بعض المدود في غير مواضعها، و زادوها في أماكن لا يجيزها الأئمة، و من أمثلة ذلك تغنيهم

---

[1]– ينظر الدلالة الصوتية ص 152، وفقه الغة وخصائص العربية ص280.

[2]– ينظر عبقرية اللغة العربية لعمر فروخ، دار الكتاب العكربي، بيروت، 1981 ص107.

بقوله تعالى:"أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر"[1]، نقلا عن تغنيهم بقول الشاعر:(بسيط)

أما القطاة فإني لست أنعتها * نعتا يوافق عندي بعض ما فيها[2]

كما أن العروضيين استعانوا بالطابع الإيقاعي للآيات القرآنية في تعليم بحور الشعر لطلبتهم نحو البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن ، فعولن مفاعلن * فمن شاء فليومن و من شاء فليكفر[3]

و البحر المديد:

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن * تلك آيات الكتاب الحكيم[4]

و البحر السريع:

مستفعلن مستفعلن فاعلن * يا أيها الناس اتقوا ربكم[5]

و امتد هذا الأثر إلى العصر الحديث، و صار سمة أسلوبية في نثر بعض الأدباء الكبار على غرار ما نجده عند طه حسين من ترديد للألفاظ، و تكرار للعبارات تتوازى فيها الكميات الإيقاعية ، و كان يستحسن ذلك و يتلذذ به[6].

---

[1]- سورة الكهف: 79.

[2]- ينظر الدلالة الصوتية ص153، 154

[3]- سورة الكهف: 29.

[4]- سورة يونس: 1.

[5]- سورة النساء 1.

[6]- ينظر نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى للبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1984 ص45 –53.

أنواع الإيقاع:

للإيقاع عند العرب نوعان:إيقاع داخلي و إيقاع خارجي.

-**فالداخلي** يعرف بجرس اللفظ المفرد أو ما يطلق عليه البلاغيون ب (فصاحة المفرد) و له وقع كبير على النفس لما له من ارتباط قوي بالدلالة و الإيحاء.

-**أما الخارجي** فيقصد به الموسيقى الناتجة عن ارتباط الألفاظ و تآلفها و تناسقها.

و من هذين الإيقاعين يتولد الإيقاع العام للنص الإبداعي شعرا كان أم نثرا[1].

1- الإيقاع الداخلي للكلمة:

لم يعن الشعراء بإيقاع القافية و الوزن في قصائدهم فقط بل عنوا كذلك بالإيقاع الداخلي في صياغتهم ، فجاءت ألفاظهم منسجمة و متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض، و لم يكن ذلك سهلا عليهم مثلما قد يتصوره بعض الناس، و إنما كان يستهلك من أعمارهم أياما و شهورا،و كان منهم من لا يخرج قصيدته إلى الناس حتى يحول عليها الحول و هو يجتهد في تصحيحها و تنقيحها و تهذيبها؛ كزهير و الحطيئة مثلا[2].

---

[1]- ينظر الإبلاغية في البلاغة العربية ص 68.69.

[2]- ينظر المعجم المفصل في الأدب لمحمد التونجي، 386/1، 387.

و إذا أنعمنا النظر في مفردات اللغة العربية وجدنا فيها أكثر من عنصر واحد يجعل من الإيقاع الداخلي للكلمة أعمق تأثيرا في النفس من ذلك:

1-الصوت و أثره الموسيقي:

لا يخلو حرف من أحرف الكلمة من صوت و موسيقى خاصة به و هو بهذه الخاصية يأتلف مع أصوات و يختلف مع أخرى، و هو أمر يحتم على المتكلم اختيار المؤتلف و رصفه جنبا إلى جنب سعيا للحصول على لفظ مستساغ يقع من النفس موقعا حسنا[1].

و قد كان للخليل بن أحمد فضل السبق في هذا المجال، إنه اللغوي النحوي العروضي الذواقة،عرض حروف العربية حرفا حرفا و أبنية كلماتها بناء بناء، مشيرا إلى الشروط و الأسباب والمعايير التي بها تعرف الكلمة العربية من غيرها،من ذلك أنه ذهب إلى أن لكل حرف من حروف الهجاء طبيعة نغمية خاصة، بفضلها يحسن بناء لفظة أو يقبح بصرف النظر عن مخرج صوته ، فالعين و القاف على سبيل المثال"لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف و أضخمها جرسا فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حسن البناء لنصاعتهما"[2]. فربط بين الطبيعة النغمية للصوت و بين وقع جرس اللفظة على السمع و النفس معا.

1- ينظر الإبلاغية في البلاغة العربية ص 76.

2- العين، تحقيق مهدي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة ط2 إيران 1409 53/1. وينظر الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية لمجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ط1، 1984 ص47.

و يبدو أنه أثر تأثيرا واضحا فيمن جاء بعده من البلاغيين ، فقد تطرقوا إلى هذا بكيفية مماثلة أو تكاد، كحازم القرطاجني[1]، و ابن الأثير[2]على سبيل المثال.

فلو أخذنا مثلا كلمة (ملع) و جدناها غير منسجمة الأحرف بهذا الترتيب و ينبو عنها الذوق السليم في حين إذا عكسنا أحرفها صارت (علم) و هي كما يبدو منسجمة حسنة لا مزيد على حسنها[3].

و ما قيل عن الحروف يقال عن الحركات المرافقة لأحرف المد (الألف و الياء و الواو) و هي الفتحة و الكسرة و الضمة ، إنها أبعاضها كما يقول ابن جني[4]. و من الطبيعي أن يكون لكل منها جرسها الخاص، و موسيقاها التي تزيد في تحسين جرس اللفظ أو تقبيحه مثلما ذهب إلى ذلك بعض المعاصرين ممن تناولوا هذا الموضوع بالدرس[5]. و لعلهم تأثروا في ذلك بالبلاغيين و النقاد القدامى الذين مايزوا بين الحركات ثقلا و خفة –على غرار فعلهم مع الحروف– فما كان خفيفا على السمع كالفتحة و الكسرة حسن لفظه و ما كان خلاف ذلك كالضمة قبح لفظه[6].

1– ينظر منهاج البلغاء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية تونس 1966 ص222.

2– ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت 1955 ن159/1، 160، 193، 194.

3– ينظر المثل السائر لابن الأثير 159،160/1.

4– ينظر سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1993، 17/1.

5– ينظر على سبيل المثال الإبلاغية في البلاغة العربية ص 77 والأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص 49

6– ينظر بعض الشواهد التي استبدل بها ابن الأثير، في المثل السائر 193/1 وما بعدها.

و ما تجدر الإشارة إليه أنهم لم يتناولوا في هذا الموضوع أجراس الحروف و الحركات و تأثيرها الموسيقي بمعزل عن مخارجها لما لهذه الأخيرة من دور في ثقل الحرف و خفته ، فقد تناول الخليل بن أحمد ذلك بدقة حين تطرق إلى الحروف العربية، وصرح بأن بعضها أسهل على اللسان و النطق من بعض، و ذكر حروف الذلاقة و الحروف الشفوية بأنها سهلة النطق و لهذا كثرت في أبنية الكلام العربي، بل بها تعرف الكلمة العربية من غيرها[1].

وقد أكد هذا ، الدرس الصوتي الحديث حين أشار علماء الأصوات إلى أن الإنسان عند النطق بالحرف يحتاج إلى مجهود عضلي تشترك فيه مجموعة من العضلات و الأوتار و الأعصاب ، و هو ليس واحدا، و إنما يختلف من صوت إلى آخر، فما يخرج من الحلق يتطلب جهدا أكبر مما يخرج من الفم أو الشفتين. و لما كا نت النفس البشرية تميل بطبعها إلى الاقتصاد في المجهود للوصول إلى غرضها ، فإنه متى تحقق لها ذلك شعرت باللذة ، و العكس بخلافه ، فهي تنفر من بعض الحروف لثقلها في النطق، و تحميل المتكلم بعض المشقة.

إننا لو أخذنا الهمزة مثلا وجدناها "من أشق الحروف و أعسرها حين النطق ، لأن مخرجها فتحة المزمار، و يحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق ، و مثل الهمزة في المجهود العضلي ، القاف و كذلك أحرف

---

[1]- ينظر العين، 52/1، 53.

الإطباق و هي :الضاد و الصاد و الطاء و الظاء ، فكل هذه تتطلب للنطق وضعا للسان يحمل المتكلم بعض المشقة"[1].

و في هذا السياق ورد قول الجاحظ:" ... و إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند إنشاء ذلك الشعر مؤونة (...) و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، و سبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان "[2]. و استدل على هذا بأمثلة كثيرة يطول ذكرها في هذا المقام[3]...

وعلى هذا ذم البلاغيون و النقاد الشعر الذي يتضمن ألفاظا غير محببة للنفس لغرابتها أو لوحشيتها أو لثقلها ،من ذلك أنهم أعابوا على المتنبي استعماله مفردات ينبو عنها السمع و لا يستسيغها نحو قوله في مدح سيف الدولة الحمداني (متقارب):

مبارك الاسم أغر اللقب * كريم (الجرشى)[4] شريف النسب.

فكلمة (الجرشى) في البيت من الألفاظ غير المحببة إلى النفس لأن فيها تأليفا يكرهه السمع ، و ينفر منه فجاءت و كأنها غريبة عن البيت و أقحمت فيه إقحاما ، فثقلت و أثرت سلبا على القيمة الإبلاغية فيه[5].

---

[1]– موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1972، ص 23،22.

[2]– البيلن والتبيين 66،67/1

[3]– ينظر المصدر نفسه، 65/1 وما بعدها.

[4]– الجرشى: النفس، وهي من قبيح ألفاظ المتنبي.

[5]– ينظر الإبلاغية في البلاغة العربية ص70.

ومن ثم شبهوا جري الألفاظ من الأسماع مجرى الصور من الأبصار [1] و هو ما يوحي بأن العملية الإبلاغية لا تقوم على السمع فقط، من حيث هو مقياس لتذوق نغم الألفاظ و إيقاعها، و كشف البعد الجمالي و الإبلاغي فيها و إنما تقوم على مشاركة بقية الحواس على اعتبار أنها أساس الذوق الفني ، فكل حاسة تتقبل ما كان موافقا لما طبعت له.

و لذلك لم يجانبوا الصواب عندما قرروا أن "النفس تقبل اللطيف و تنفر عما يضاده و يخالفه، و العين تألف الحسن و تقذي القبيح، و الأنف يرتاح للطيب و ينفر للمنتن و الفم يلتذ بالحلو و يمج المر، و السمع يتشوق للصواب الرائع و ينزوي عن الجهر الهائل ، و اليد تنعم باللين و تتأذى بالخشن"[2].

2- البعد الإيحائي للموسيقى الداخلية للكلمة:

لكل كلمة بعد إيحائي إبلاغي يدل على معنى بذاته ، و طالما هي تعبير عن صورة ذهنية سمعية فإنها بإيقاعها الموسيقي قادرة على إثارة الانفعال المناسب في نفس المتلقي، فيدرك معنى الكلمة من خلال سماع جرسها و إيقاعها الداخلي، من دون أن يكون له علم مسبق به، أي يمكننا معرفة معاني الألفاظ أو الكلمات من خلال موسيقاها، و هو ما يدعى عند البلاغيين بالموهبة الموسيقية للألفاظ[3]. كالحفيف لصوت الأغصان عندما يلامسها الهواء، و الخرير لصوت الماء عندما ينساب في الجدول بين الصخور، و ما إلى ذلك.

---

[1]- ينظر المثل السائر 181/1.

[2]- المرجع السابق ص71.

[3]- ينظر دلالة الألفاظ لإبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط4، 1980 ص 75 وما بعدها.

و إدراك دلالات الألفاظ من خلال أصواتها و أجراسها أمر شائع عند العرب حتى و لو كانت المفردات من الدخيل ، و قد أورد السيوطي في المزهر تحت عنوان"المناسبة بين اللفظ و مدلوله" أن هناك من العرب من كان يدرك تلك المناسبة ، فقد سئل أحدهم –على سبيل المثال– عن معنى (أذغاغ)[1] قال أجد فيه يبسا شديدا و أراه الحجر[2].

و لم تغب هذه الظاهرة عن قدماء اللغويين و البلاغيين و النقاد العرب ، فقد كان لديهم إحساس قوي بإيقاع اللفظ و جرسه و موسيقاه، حتى إن نغمة اللفظ كانت تنقل إلى أذهانهم صورة من الصور التي تتعادل معها ، مما دعاهم إلى التأكيد على الربط بين إيقاع اللفظ و مدلوله و صوره الإيحائية، فالألفاظ عندهم تجري في السمع مجرى الصور في البصر.

و قد استشهد ابن الأثير لأجل هذا بألفاظ أبي تمام و البحتري و عدها عند الأول لقوة جرسها بمثابة المحاربين الأشداء الذين جمعوا أسلحتهم و أعدوا العدة لمواجهة العدو، أما عند الثاني فهي بمثابة نساء حسان عليهن غلائل[3] مصبغات و قد تحلين بأصناف و ألوان من الحلي نظرا للطافة ألفاظه و رقتها[4].

و كل هذا و ما يشبهه ساعد بعض اللغويين القدماء و المحدثين في أبحاثهم عن أصل اللغات ، فابن جني مثلا يذهب في بعض آرائه إلى أن أصل اللغة مستخرج من أصوات موجودة في الطبيعة، كدوي الريح و حنين

---

[1]– هي كلمة فارسية تعني الحجر.

[2]– ينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الجيل ودار الفكر، بيروت (دت) 47/1.

[3]– الغلائل جمع غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب.

[4]– ينظر المثل السائر 181/1، والإبلاغية في البلاغة العربية ص82.

الرعد و خرير الماء و شحيج الحمار و صهيل الفرس و ما أشبه ذلك و هو عنده مذهب صالح و متقبل[1].

ولم يتوقفوا عند هذا الحد و إنما تعدوه إلى الربط بين الصيغة و ما لها من دلالة إيحائية معنوية بغض النظر عن طبيعة الأصوات التي تتألف منها فقد أشاروا إلى أن لكل صيغة من صيغ الزيادة دلالة معنوية إيحائية عامة، تختلف عما للأخرى من ذلك ما ذكره سيبويه من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني نحو:النز وان[2] و النقزان[3]و الغليان و الغثيان و اللمعان و الوهجان ، فهي كلها تأتي للاضطراب و الاهتزاز و الحركة و على وزن الفعلان[4].

وبدهي أن تختلف الدلالة التصويرية الإيحائية للألفاظ عند المتلقي و المبدع على حد سواء ، وذلك لاختلاف الإطار الذوقي العام و الخبرات المكتسبة عند كل منهما[5].

الموسيقى الخارجية:

ما دامت اللغة العربية لغة موسيقية –و ذلك من منظور كثير من الدارسين– و أنها اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم عهودها أو أقدم نصوصها[6] فإن تناول البلاغيين لم يتوقف عند حد الإيقاع الداخلي للمفردة فحسب، و

---

[1]– ينظر الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت (دت) 64/1، 47.

[2]– التروان: الوثب التفلت والسورة

[3]– النقزان: الوثب إلى أعلى.

[4]– ينظر الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب بيروت ط3، 1983، 14/4 15 والخصائص 153/2،152.

[5]– ينظر دلالة الألفاظ لإبراهيم أنيس ص75 وما بعدها، والأسس النفسية للبلاغة العربية ص 55 –56

[6]– المرجع نفسه ص 195.

إنما تعداه 'إلى الإيقاع الخارجي، حالة كونها مع مثيلاتها لتأليف بيت شعري أو مقطع أدبي، و على رأس هؤلاء عبد القاهر الجرجاني الذي لا يرى الفصاحة في اللفظ المفرد بقدر ما يراها فيه، و هو ينتظم في سياق من الألفاظ ، فمنه يستمد –من وجهة نظره–

قوته و فصاحته الفعلية ، بمعنى أن فصاحة اللفظ تكمن في موقعه مع باقي الألفاظ و ليس فيه وحده ، يقول: "... فقد اتضح إذا اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، و لا من حيث هي كلم مفردة ، و أن الألفاظ تثبت لها الفضلية و خلافها في ملاء مة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، و مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك و تؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك و توحشك في موضع آخر"[1].

يعني أن للفظ المفرد فصاحة و تأثيرا إبلاغيا أقل بكثير مما لو كان مع غيره من الألفاظ منتظما في سياق شعري أو نثري حيث تزداد قوة التأثير في نفس المتلقي فهما و طربا و قبولا و بخاصة إذا كان النص شعريا فإن إيقاعه – على رأي ابن طبا طبا– يحل العقد و يسل السخائم،[2] و يشجع الجبان[3] ، و هو ما يعني أنه يؤدي دورا أساسا في الإثارة و الإبلاغية.

و لعله السبب الرئيس الذي نال به حصة الأسد دون سائر الأساليب و الفنون الأدبية الأخرى. يقول ابن طبا طبا :" للشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه و ما يرد عليهم من حسن تركيبه و اعتدال أجزائه، فإذا اجتمع

1– دلائل الإعجاز تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت 1978 ص38.

2– السخائم: جمع سخيمة وهي الحقد والضغينة

3– ينظر عيار الشعر شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت 1982 ص16

للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى و عذوبة اللفظ، فصفا مسموعه و معقوله من الكدر ،تم قبوله و اشتماله عليه"[1].

مضمون هذا الكلام أن الإيقاع الخارجي في الشعر المتمثل في الوزن و المعنى و عذوبة اللفظ ، عامل مهم بل أساس في إعطاء النص الشعري بعدا إبلاغيا يهز النفس و يطربها و يزودها بطاقة تخييلية[2].

و تجدر الإشارة إلى أن الطبيعة الإيقاعية في الشعر ليست واحدة و إنما لكل وزن شعري إيقاعه الخاص الذي يعبر به عن الجو النفسي و يوحي به، يقول حازم القرطاجني:" و أوزان الشعر منها سبط[3] و منها جعد[4] و منها لين و منها شديد و منها متوسطات بين السباطة و الجعودة و بين الشدة و اللين و هي أحسنها"[5].

يعني بهذا أن تعدد إيقاع الشعر يخضع لتعدد أغراضه و تعدد أغراضه يخضع للجو النفسي للشاعر من ناحية و للموقف من ناحية ثانية و لذا نجد من الشعر ما قصد به الجد و الرصانة، و منه ما قصد به الهزل و الرشاقة، و منه ما قصد به البهاء و التفخيم، و منه ما قصد به الصغار و التحقي،ر و من ثم تطلبت تلك المقاصد ما يناسبها من الأوزان و يخيلها للنفوس[6].

1- عيار الشعر تحقيق عباس عبد الساتر ص15.

2* ينظر الإبلاغية في البلاغة العربية ص 83

3- أي خفيف مسترسل غير جعد

4- أي خلاف السب، وهو المتداخل.

5- منهاج البلغاء ص 260.

6- نفسه ص266.

من ظواهر الإيقاع القولي العام:

إذا تصفحنا الإيقاع في كلام العرب شعره و نثره وجدناه لا يخلو في أغلب الحالات من ظواهر تسمه بخصائص مميزة تستحسنها الطبائع و النفوس .من هذه الظواهر التوازي و التوازن و التعادل و التكرار... لما لها من أهمية و دور نفسي ، و لذا شاعت عند الشعراء و الكتاب و من في منزلتهم ، فهي في الشعر تظهر في تكرار الوحدة أو الوحدات الإيقاعية في الفقرتين أو الفقرات الموقعة المتعادلة، أو في أبيات القصيدة الواحدة.

و في النثر تظهر فيما اصطلح على تسميته بالكلام المزدوج و المسجوع و المجنس ، و هي مسائل نجدها في مؤلفات البلاغيين عند حديثهم عن المحسنات اللفظية في علم البديع.

و يبدو أن ظاهرة توازن الفقرات المسجوعة و توازيها أكثر ما تكون في السجع ، و لعلها العنصر الجوهري فيه[1]. إذ الأصل فيه الاعتدال في مقاطع الكلام و هو– أي الاعتدال– مطلوب في كل شيء و النفس تميل إليه بطبعها و تتشوق إليه[2].

يقول ابن الأثير في هذا الموضوع:" و إذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان، و هذا لا مراء فيه لوضوحه"[3].

و يشير إلى أن السجع يكثر في القرآن الكريم كثرة تأتي فيها بعض السور مسجوعة كلها[1].

---

[1]– ينظر الأسسالنفسية لأساليب البلاغة العبية ص60.

[2]– ينظر المثل السائر 197/1 والعر الجاهلي لعبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة بيروت 1986 ص 125 وما بعدها.

[3]– المثل السائر 272/1.

و لأجل ذلك ثبت أن الكلام المسجوع أفضل من غير المسجوع[2].

كما خصص الجاحظ لهذه الظاهرة الشائعة في الأداء الكلامي عند العرب الأولين أكثر من موضع في كتابه البيان و التبيين[3]. نقتطف أمثلة منها لتبيين بعض ما كان يدور على ألسنتهم من أسجاع– سواء لدى الرجال أم لدى النساء –و لا نعدم بقاءه إلى اليوم في كلامنا.

من ذلك أن أعرابيا وصف رجلا، فقال : صغير القدر ، قصير الشبر[4]، ضيق الصدر، لئيم النجر[5]، عظيم الكبر، كثير الفخر.

و سأل آخر رسولا قدم من أهل السند: كيف رأيتم البلاد؟ قال: ماؤها وشل[6]و لصها بطل ، و تمرها دقل[7]، إن كثر الجند بها جاعوا و إن قلوا بها ضاعوا.

و مما أورده كذلك أنه قيل لصعصعة بن معاوية: من أين أقبلت؟ قال: من الفج العميق. قيل: فأين تريد؟ قال: البيت العتيق . قالوا: هل كان من مطر؟ قال: نعم ، حتى عفى الأثر و أنضر[8]الشجر، و دهدى[9] الحجر.

1– نحو سورة القمر وسورة الرحمن مثلا.

2– ينظر المثل السائر195/1، 199.

3– ينظر مثلا:284– 285 – 286 –305.

4– الشبر: قدر القامة.

5– النجر: الطباع

6 - الوشل:الماء القليل

7– الدقل: محركة أراد أنواع التمر.

8– أنضره: أي صيره وجعله ناضرا.

9– يقال: دهديت الحجر ودهدهته: أي دحرجته وقذفته من أعلى إلى أسفل وهو تصوير لقوة السيل حتى جر معه الحجر.

إن هذه النصوص و ما يشبهها تصدع بأنهم كانوا يستحسنون السجع و يفضلونه على ما سواه، لما فيه من مزايا لا توجد في غيره، فقد " قيل لعبد الصمد بن المفضل بن عيسى الرقاشي لم تؤثر السجع على المنثور و تلزم نفسك القوافي و إقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، و لكني أريد الغائب و الحاضر و الراهن و الغابر،فالحفظ إليه أسرع و الآذان لسماعه أنشط، و هو أحق بالتقييد و بقلة التفلت، و ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، و لا ضاع من الموزون عشرة"[1].

وكما ولعوا بتكرار الإيقاع المتوازن في الفن القولي ولعوا فيما سموه بالجناس ، و هو من المحسنات اللفظية، و يقوم على تكرار اللفظة مع اختلاف المعنى[2].

و اهتموا كذلك بما اصطلحوا عليه ب (التصدير أو برد أعجاز الكلام على صدوره) و هو نوع من تكرار النغم الإيقاعي، و ورد في كلام العرب بنوعيه: الشعري و النثري .

ففي الشعر نحو قول الأقيشر الأسدي(طويل)

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه * و ليس إلى داعي الندى بسريع.

و قول الخليع الدمشقي (كامل)

---

[1] -البيان والتبيين 287/1

[2]– ينظر المترع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السلجماني، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعرف، الرباط (المغرب) ط1، 1980، ص482 والمثل السائر 241/1، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي دار الجيل بيروت ط3، 90/6.

سكران: سكر هوى و سكر مدامة * أنى يفيق فتى به سكران.

و قول صمة بن عبد الله القشيري الملقب بالحماسي:(وافر)

تمتع من شميم عرار[1] نجد * فما بعد العشية من عرار[2]

إن ترديد الكلمات :(سريع و سكران و عرار) على مستوى صدور الأبيات و أعجازها يوحي بأن الشعراء و جهوا عنايتهم إلى ترديد النغم الإيقاعي نفسه، وهو ما لا يخلو من موسيقى تطرب لها نفس العربي و تستمتع بها أذنه.

أما في النثر فقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى :" و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه"[3]

و قوله تعالى :" لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب و قد خاب من افترى"[4] و قوله :" انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض و للآخرة أكبر درجات و أكبر تفضيلا"[5].

كما ورد في أقوالهم نحو :" الحيلة ترك الحيلة" و نحو : "سائل اللئيم يرجع و دمعه سائل "[6] .

و لا نعدم في هذا المجال أن الاتباع من الظواهر اللغوية التي لها علاقة بالتركيب الصوت،ي و من ثم هو مظهر من مظاهر تحقيق الإيقاع

1- العرار: وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة

2- ينظر الإيضاح للقزويني 102/6-103.

3- سورة الأحزاب: 37.

4- سورة طه: 61.

5- سورة آل عمران: 187.

6- ينظر ما ذكر منه روفائيل نخله اليسوعي في كتابة: غرائب اللغة العربية، المطبعة الكاثوليكية بيروت ط2 ص54 وما بعدها.

و تجسيده في الأداء الكلامي عند العرب الأولين ،و لذلك كثر في استعمالهم[1]، فقد سئل بعضهم عن سر وجوده في كلامهم، فقال:" هو شيء نتد[2] به كلامنا " نحو قولهم : ساغب لاغب[3] و هو خبّ ضبّ[4] و خراب يباب، و قد شاركت العجم العرب في هذا الباب[5].

الناظر في هذه الألفاظ و مايماثلها يستنتج أن الإتباع إنما استعمله العرب لتوكيد الكلام. و لعله أهم وظائفه.و مثله ما يدعى بالازدواج أو المزاوجة بين كلمات تتجانس مبانيها و تتكافأ مقاطعها و معانيها، من ذلك قولهم: القلة ذلة و الوحدة وحشة، و اللحظة لفظة، و الهوى هوان، و الأقارب عقارب، و المرض حرص، و الرمد كمد، و العلة قلة، و القاعد مقعد.

هذه الأمثلة و ما في منزلتها كانت العرب كثيرا ما تراعيها في العدول بالكلمات عن موازينها المألوفة لاقترانها بما يناظرها في الوزن، ولأجل ذلك اغتفر فيها مخالفة القياس[6].

ومنه نخلص إلى أن المنشأ النفسي لميل العرب للإيقاع المتوازن و شيوعه في الفن القولي بشكل لافت إنما هو التركيب النفسي للشخصية العربية القديمة التي طبعتها حياة الصحراء القاسية و الرتيبة، حيث لا جديد

1– ينظر ما ذكر منه روفائيل نخلة اليسوعي في كتابة: غرائب اللغة العربية، المطبعة الكاثولكيكية بيروت ط2 ص54 وما بعدها.

2– هكذا ورد في المزهر للسيوطي 414/1 بينما ورد في الصاحبي لابن فارس (نتدبر) بدلا من (نتد) ولعله تصحيف.

3– أي جائع تعب إلى حد الإعياء.

4– أي مرواغ.

5– ينظر الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت ط1، 1993ص263.

6– ينظر كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطإ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1976 ص310.

في مشاهدها التي تتكرر كل يوم ، فأثر ذلك في ذوقها و حسها حتى ظهر في فنها[1]، على مستوى الألفاظ و المفردات ممثلا في تناسب السواكن و الحركات،

و الحركات و السواكن ، و الطول و القصر، و ظهر على مستوى العبارات المركبة ممثلا في التناسب الذي يحققه السجع و الازدواج و الإتباع و التكرير... و ما إلى ذلكّ، و كلها ظواهر إيقاعية نالت من اهتمام العرب بها الشيء الكثير.

---

[1]- ينظر فجر الإسلام لأحمد أمين، ص45 وما بعدها.

مصادر الدراسة و مراجعها:

**** القرآن الكريم برواية ورش عن نافع***

** إبراهيم أنيس*

1- دلالة الألفاظ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط 4 ، 1980.

2-موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1972.

3-موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط 5 ، 1981.

*** ابن الأثير**

4- المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية صيدا بيروت 1995.

* أحمد أمين

5- فجر الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت ط 10 ، 1969.

*** أودنيس**

6- مقدمة للشعر العربي ، دار العودة بيروت ط 4 1983.

* البشير بن سلامة

7- نظرية التطعيم الإيقاعي في الفصحى ، الدار التونسية للنشر 1984.

* الجاحظ

8- البيان و التبيين تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل بيروت (دت).

* ابن جني

9- الخصائص تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت (دت).

10- سر صناعة الإعراب دراسة و تحقيق حسن هنداوي، دار القلم دمشق ط 2 1993.

* **حازم القرطاجني**

11- منهاج البلغاء تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية تونس 1966.

* **أبو حيان التوحيدي**

12- المقابسات تحقيق حسن السندوبي ، المطبعة الرحمانية بمصر ط 1 ، 1929.

* **خالد سليمان**

13- الإيقاع الداخلي في القصيدة العربية المعاصرة ، مجلة الآداب جامعة قسنطينة الجزائر العدد 4 ، 1997.

* **الخطيب القزويني**

14- الإيضاح في علوم البلاغة شرح و تعليق عبد المنعم خفاجي دار الجيل بيروت ط 3.

*** ابن خلدون**

15- المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة بيروت 1982 *** الخليل بن أحمد**

16- العين تحقيق مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي ، مؤسسة دار الهجرة ط 2 إيران

1409 هـ .

*** روفائيل نخلة اليسوعي**

17- غرائب اللغة العربية المطبعة الكاثوليكية بيروت ط 2.

*** سمير أبو حمدان**

18- الإبلاغية في البلاغة العربية منشورات عويدات الدولية ، بيروت ، باريس ط 1 ، 1991.

*** سيبويه**

19- الكتاب تحقيق عبد السلام هارون ، عالم الكتب بيروت ط 3 ، 1983.

*** السيوطي**

20- المزهر في علوم اللغة و أنواعها ، دار الجيل و دار الفكر بيروت (دت).

*** ابن طبا طبا العلوي**

21- عيار الشعر تحقيق طه الحاجري ، دار سعد زغلول ، القاهرة 1956.

22- عيار الشعر شرح و تحقيق عباس عبد الساتر ، مراجعة نعيم زرزور دار الكتب العلمية بيروت 1982.

*** عباس محمود العقاد**

23- اللغة الشاعرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1960.

*** ابن عبد ربه**

24- العقد الفريد شرح و ضبط أحمد أمين و آخرين ، دار الكتاب العربي بيروت 1982.

*** عبد القاهر الجرجاني**

25- دلائل الإعجاز تصحيح السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت 1978

*** عبد المنعم خفاجي**

26- الشعر الجاهلي دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة بيروت 1986.

*** عز الدين إسماعيل**

27- الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية ، دار الكتاب العربي القاهرة 1976.

*** عمر فروخ**

28- عبقرية اللغة العربية دار الكتاب العربي بيروت 1981.

*** عيد محمد شبايك**

29- الفاصلة القرآنية بين المبنى و المعنى ، دار حراء القاهرة ط 1 ، 1993.

*** ابن فارس**

30- الصاحبي في فقه اللغة تحقيق عمر فاروق الطباع ، مكتبة المعارف بيروت ط 1 ، 1993.

*** فاروق شوشة**

31- لغتنا الجميلة مكتبة مدبولي القاهرة (دت).

*** فؤاد زكريا**

32- التعبير الموسيقي ، دار مصر للطباعة ط 1 ، 1956.

*** كريم زكي حسام الدين**

33- الدلالة الصوتية مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط 1 ، 1992.

*** مجيد عبد الحميد ناجي**

34- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت ط 1 ، 1984.

*** محمد التونجي**

35- المعجم المفصل في الأدب ، دار الكتب العلمية بيروت ط 2 ، 1999.

*** محمد الطاهر بن عاشور**

36- كشف المغطى من المعاني و الألفاظ الواقعة في الموطأ نشر الشركة التونسية للتوزيع و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع (الجزائر) 1976.

*** محمد العبد**

37- إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ، دار المعارف مصر ط 1، 1988.

*** أبو محمد القاسم السلجماسي**

38- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع تقديم و تحقيق علال الغازي ، مكتبة المعارف الرباط (المغرب).

*** محمد المبارك**

39- فقه اللغة و خصائص العربية ، دار الفكر بيروت ط 7 ، 1981.

***SULGER FRANCOIS**

40- Les Gestes vérité Sand Paris 1966.

عمر بن أبي حفص الزموري لغويا

أ.عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان

التعريف بالشخصية:

هو العلامة عمر بن أبي حفص المعروف بالشيخ عمر بوحفص الزموري القسنطيني الجزائري الإفريقي، الذي يعود نسبه القريب إلى ذرية سيدي عمر العجيسي، توفّي أبوه وتركه يتيماً في سنته السابعة، فكفله أحدُ إخوانه وابن عمه الذي كان معلماً للقرآن، غير أن غالب الكفالة المادية كانت لأخيه، وغالب تعليم القرآن لابن عمه الذي حفظ على يده القرآن.

لما حفظ القرآن الكريم تعلق قلبه بالبحث عن العلم، وفي هذا يقول عن نفسه: "فكنت أسمع من العامة تعظيم شيخنا الكبير العلامة الشهير الحفاظة الفهامة ذي التدقيقات العجيبة، والنقول الصحيحة السيد أحمد بن السيد الحسين بن قدور المتوفّى في أوائل رجب من العام الخامس والخمسين من القرن الرابع عشر من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، من عائلة مشهورة بوراثة العلم، يحفظ مجموع المتون حفظا صحيحا،

وكتب عليه تقريرات كشرح، وكتب أيضا على التسهيل، وكان دائما يطالع كتاب الإمام سيبويه...، وبالجملة فهو في النحو والتصريف لا يجارى بل في جميع العلوم"[1].ويستمر الزموري في إضفاء إرشادات وأوصاف علمية وتبجيلية على أستاذه أحمد بن الحسين بن قدور، لأنه كان سبباً في سعادته، وجعل يلازمه حتى إنه لكان يحفظ متوناً كثيرة وفي شتى العلوم العقلية والنقلية مما كان الشيخ يحرّر بخط يده، ولما وثق بسعة علمه وضلاعة تحصيله أجازه بخطه، وما إن سمع بوفاة أستاذه، وهو بعنّابة حتى صدحت قريحته بقصيدة رثائية نشرها في جريدة النجاح:

دَع العذُول، وَمر عَينَيك أَن تَسْكبا　　　دَمعًا عَلَى مَنبَع العُلوم وَاعِيهَا

بعد وفاة شيخه أحمد بن الحسين رجع إلى قريته ليستقر فيها، خلفا لأستاذه كإمام الجمعة في جامع جده سيدي أحمد المجذوب، غير أن هذا الاستقرار ببلدته لم يكن يعني الجمود أو الإخلاد إلى الراحة، بل لم يغترّ بمنصبه الموروث عن شيخه إطلاقا، حيث انبرى إلى التحرك لجهات مختلفة من شرق البلاد، لينشر معارفه في شتى العلوم النقلية والشرعية والعقلية.

ومما وقفت عليه لدى من عرفه عن قرب واهتم بنشر بعض أعماله اللغوية وغير اللغوية أن الزموري ينتهي نسبه البعيد إلى الحسين بن فاطمة الزهراء، رضي الله عنهما وما إن بلغ العاشرة حتى كان حفظ القرآن، وهذه خصلة ليست غريبة في الجزائريين، وظاهرة كانت منتشرة في الكتاتيب القرآنية القروية قبل ثورة الفاتح من نوفمبر في القرن الماضي، حدث هذا عندنا في الكتّاب الذي كان يشرف عليه المرحوم –برحمة الله– والدي في

قريتنا، ومن ثمّ حفظ شيخنا الزموري القرآن في سنّه العاشرة، كما ذكر الأستاذ بلقاسم آيت حمو[2]، ليست شيئا عجباً.

مهنته بِأمّ الناس لم تصرفه إذن عن ممارسة التدريس في عدّة مدارس ومساجد وزوايا، منها زاوية الجعافرة (ولاية برج بوعريريج)، مسجد توررين ببني عيذّل، وزاوية الحاج حسن الطرابلسي (ولاية عنابة)، وزاوية شلاطة، وزاوية سيدي موسى نَتْنَبْدَارْ (ولاية بجاية)، ووادي زناتى (ولاية قالمة)، وبعين فكرون (ولاية أم البواقي)"[3]، فضلاً عن زاوية زمورة ببلدته، بل درّس حتى بمسجد سيدي رمضان بحي القصبة، ولذا فليتّق الله مُتّقٍ في وصف الزوايا وأصحابها بصفات لا تليق بمقامها، وبتأطيرها لرجالات خطباء مصاقع في الفصاحة وسرّ البيان، ومغاوير قادوا كتائب وفيالق في حرب التحرير، ومسيّرين محنّكين في عهد البناء والتشييد، فهذه الزوايا الجليلة في شرق البلاد وغربها، شمالها وجنوبها هي التي عملت إلى جانب القرآن الكريم مصداقا لقول تعالى: ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ على نشر لغة الضاد، والحفاظ على الحرف العربي في القرى والمداشر والأودية والجبال، ومن ثم فإنّ الالتفاتة الكريمة من فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة إلى هذه الخلايا الحية التي لطالما صانت أركان المجتمع الجزائري ووحدته وهويته، ماهو إلا إقرار من فخامته بأهمية ماضي وحاضر ومستقبل هذه الخلايا، الحية وبرعايتها بما هي أهل له.

ومهما أطنبت في سيرة الرجل اللغوية والفقهية والصوفية والأدبية، فَإِنَنَا نَقْصُر دونَ ذلك، كيف لا يكون الأمر إلا كذلك، والرجل يوصف بأنه "فقيه متضلع، ولغوي بارع، وخطيب مصقع، وأديب مبدع، وربّاني سما بالصوفية

إلى قمة القمم"[4]؟ بل لن نكون أكثر معرفة ولا قرباً من أحد تلامذته الأستاذ أَمْحمَّد سمين الذي وصفه بقوله: "هو العالم العارف بالله، الحائز على المعقول والمنقول، المتبحر في مختلف العلوم اللغوية والدينية إلى أبعد الحدود،...إذا نظرنا إليه من زاوية العلم الظاهر، فإن قارئ كتب الإمام السنوسي في المنطق وفي التوحيد وقارئ كتب اللغة من نحو وصرف وبلاغة وعروض وكتب الفقه والفلك والميراث وما ينطوي عليه من قواعد فقهية وعمليات حسابية، وما إلى ذلك من العلوم الشرعية واللغوية..."[5].

ويجمع الشارحَ أبا حفصٍ وابنَ مرزوقٍ الحفيدَ العجيسيَّ الذي ذاع صيتُه في جميع بلاد العالم الإسلامي، والذي كان يسمّى شيخَ الإسلامِ نسبٌ واحد، فكلاهما ينتهي نسبه إلى القبيلة الجزائرية العظيمة المساة عجيسة، المقيمة بجبال المسيلة، لتنتقل في أواخر القرن السادس الهجري "صحبة العارف الشهير والولي الكبير الشيخ أبي مدين الأشبيلي" .

دوافع شرح الزموري للمنظومة المكودية:

أ– الزمن:

يُسْتَشفّ من كلام المؤلّف نفسه أن "فتح اللطيف في التعريف على البسط والتعريف" ألّف أو أنهى من إنجازه عام 1947، بدليل قوله: "نحيط أعزاءنا القراء علما بأن الانتهاء قد تم منذ نحو أربعين سنة، وقد حاولنا طبعه مراراً، ولكن الظروف لم تساعد على ذلك إلى هذا التاريخ"[6]، وحتى هذا التاريخ الذي تحدّث عنه المرحوم جاء سنة بعد وفاته ما دامت الطبعة الأولى ظهرت سنة 1991 إذ توفي عام 1990.

ب– السبب:

يذكر الشيخ نفسه أنه تمّ حفظ واستيعاب "البسط والتعريف" لأبي زيد عبد الرحمان بن صالح المكودي(807هـ)، وهو غير شرح هذا الأخير لألفية ابن مالك (600−672هـ) الشهيرة، بل هي منظومة صرفية مستقلة، نظمها المكودي على عادة أهل زمانه.

المهم أن العلامة الزموري يعترف بأنه لم يعد إلى المنظومة المكودية نفسها، بل اعتمد على ما سمعه وحفظه عن شيخه أحمد بن الحسين بن قدور (1355هـ) الذي كان يحفظ، فيما ذكر، جميع المتون حفظا صحيحاً، حتى وإن كان الأغلب عليه الكتاب لسيبويه، والتسهيل لابن مالك، وحاول الرجل الإطلاع فيما بعد على ما كتب شيخه من نقول وشروح لغوية، فلم يتمكن من ذلك لكون المكتوب أخذه بعض أقاربه، بمعنى أن شرح الزموري للمنظومة الصرفية شرح فردي أصيل، نابع من ثقافة بوحفص اللغوية الواسعة، ومع ذلك لم يأنف من الرجوع إلى بعض العلماء الجزائريين للاستئناس بهم، والاطمئنان في عمله "وكان يشاركني في هذا النظر −يقصد علم التصريف− بعض الفضلاء والأدباء"[7].

ونحسب أن العامل الديني كان أحد العوامل القوية في إقدام العلامة أبي حفص على إنجاز هذا العمل المضني الذي لا ينهض بمثله إلاّ ذوو العزائم والهمم، والراسخون في علم العربية، ولاسيما التصريف الذي هو فيها فن معقّد ومتشعّب، بل كان الشيخ أبو حفص يرى أن صون هذا الدين الحنيف الذي ارتضاه الله آخر دين سماوي لعباده لا ينفصل عن صيانة هذه اللغة التي شرّفت دون سائر آلاف اللغات واللهجات، وإلا ألم يقل الرجل: "أما بعد، فإن مما يجب حفظه على الأمة الإسلامية القرآن العظيم، إذ هو

البحر المحيط بجميع الواجبات الموصلة إلى دار النعيم، فيُلْزِمُ أهلَ الإسلام فقْهَهُ وفهْمه الذي أراده المنزّل الحكيم، وذلك لا يتم لهم إلا بحفظ وسائله التي هي أبواب لفتح خزائنه،...ومن ذلك حفظ علم العربية الذي هو لسان الرسول (ص) المخصوص بالكمال"[8].

وقرأت فيما كتب الأستاذ بلقاسم آيت حمو أن أحد تلامذه لما اطلع على هذا المؤلّف كتب يقول: "وليس من معنى لإقباله على التصنيف في علمي النحو والصرف بهذا القلم المتخصص، وهو يجيد العلوم الأخرى، بالإضافة إلى براعته فيها، سوى ولعه –رحمه الله– واعتنائه بهما بشكل ملحوظ، يعرف عنه كل من ضمّته مجالسه"[9].

متن الكتاب:

لعل متن الكتاب يظهر جلياً للمتخصصين من عنوانه المسجوع، تماشياً مع زيّ عصر الضعف الذي يعد مؤلفنا خارج زمنه، ولكن جمود الحركة اللغوية بل الثقافة عموماً خلال حقبة الاحتلال الأجنبي والتصدّي منه لكل ما من شأنه أن يحافظ على بصمات هذه الأمة لا يجعلان الشيخ خارج فترة الضعف العلمي، خاصة ما كان يتصل بالعربية وعلومها وآدابها.

فالعلاّمة المكُودي الذي يعدّ آخر من قرأ كتاب سيبويه بفاس، والقائل[10]:

وَقَفْت بِبَابِ الله وَقْفَة ضَارِع   وَقُلْت: إِلَهِي، إِنَنِي لَكَ قَاصِد
وَلَسْت تَرَانِي وَاقِفًا عِنْد بَاب مَن   يَقُول فَتَاه: سَيِدِي اليَوْم رَاقِد

علاوة على ما عنده من شرح لألفية ابن مالك، وشرح آخر لمنظومته في المقصور والممدود، وشرح على الأجرومية التي ذاع صيتها، وانتفع

الناس بها شرقاً وغرباً وحتى لدى الأجانب، لصاحبها ابن آجروم الذي وُلد في السنة التي توفي فيها ابن مالك (600–672هـ) فقيل "توفي نحوي، ووُلد نحوي"، فله هذه المنظومة التي تربو على أربعمائة بيت تحت عنوان "البسط والتعريف"، وهي منظومة تشمل أبواباً صرفية عامة[11]:

- أبنية الأسماء والأفعال
- أحرف الزيادة
- الإلحاق
- همزة الوصل
- الإبدال والإعلال والقلب
- فاء افتعل
- تصريف الأفعال
- صيغة نائب الفاعل
- صيغة فعل الأمر
- صيغة اسم المفعول
- الأوزان السماعية
- صيغة اسم المفعول
- صيغة المبالغة
- صيغة اسم التفضيل.

وحسب الشيخ بوحفص، أن هذه المدونة الصرفية للمكودي لم يفتحها أحد بما يليق بمقامها العلمي منذ نظمها، فجلس هو إليها بعد تردّد، وسمّى شرحه "فتح اللطيف في التصريف"، وهذا عين ما أشار إليه صديقه الروحي العالم الأجل الأستاذ مهري المولود، وهو يصدّر له بمقدمة تحليلية رائعة، ذكر فيها محاسن هذا العمل، وأهمية المنظومة الصرفية، ويذهب المشيد نفسه إلى أنه لم يبلغ عِلْمَه أنَّ هذا المتن النفيس شرح بهذا الشرح الأكاديمي الواسع، إذ يقول: "ولم يكن لهذا المتن النفيس شرح فيما نعلم سوى شرح وجيز مخطوط للعلامة الجليل الشيخ عبد الكريم بن الفقون القسنطيني، فرغ من تأليفه أوائل صفر من عام ثمانية وأربعين وألف، فبقي هذا المتن النفيس غير معروف لكثير من أهل العلم، وإنما يسمع عنه في الكتب فقط، حتى قيّض الله له الأستاذ الأخ الشيخ عمر أبا حفص فشرحه بهذا الشرح الجليل"، ومن الأبيات التي يصدّر بها المكودي منظومته نقف على تعريف دقيق لها:

وبعد، فالقصد بذا التصنيف ... نظمُ قواعدَ من التَصْريف
لأنَه علم عظيم القدْر ... لم يَزَلِ الدّهْر جَليلَ الخطْرِ
جمعْتُه في رَجَزٍ مشطور ... لكونه من أعذب البحور
ضبطْتُ فيه كل ما جلّ وما ... حقّقت من مصنّفات العلما
حرّرت من أصوله وغُرَره ... ما يحمد الوارد عند صَدره
سلكت فيه مسلكا مهذّبا ... بسطًا وتعريفاً فجاء مُعجبا
سمّيته بالبسط والتعريف ... في نظم ما جلّ من التصريف
فجاء تأليفا صغير الحجم ... لكنّه سهلٌ كثير العلم

يُبَصِّرُ البَادِيَ في العلم كما — يُذَكَّر الشادِيَ ما تعلّما
فَهْوَ جدير أنْ تُلبّى دعوتهْ — وتُتَلقّى بالقبول حُجّتهْ
هذا مع الجُهْدِ وشغل البال — والاضطرار واضطراب الحال
وقلَّة المُسعد والمعين — وَحَسَدِ التلميذ والقرين
فجاهلٌ في نقده تعسّفٌ — وعالمٌ في بحثه لا ينْصِف
ولو نَهَوْا عن الهوى النفوسا — وجانبوا التمويه والتلبيسا
لَسَلَّمُوا أَنِّي فيهم مَّاهرُ — وَنُورَ فهمِي في العلوم باهرُ
لَكِنْ كِبَارُ أهلِ هذا العلم — يدرون تحقيقي له وفهمي

فأنت ترى من هذه الأبيات الرجزية أن التصريف قواعد مستقلة عن قواعد العلوم الأخرى، بل هو فن عظيم وجليل، وتحس بالمكودي وهو يخاطبك عن قرب بأنه أقدم على جمع وضبط الأنظمة الصرفية كلها، جاعلاً من تقدمه من العلماء اللغويين مرجعه، لكنه سلك فيها مسلكاً مهذّباً في بسطها وتعريفها، ونظمه وإن كان حجماً صغيراً فهو يحوي المنظومة الصرفية كلها، يهتدي به المُبَرَّز في هذا الفن مثلما يرشد المتعلم الناسي،...إلخ.

أما فائدته التي تعني جعل حروف الكلمة على صيغ مختلفة لضرورة من المعاني أو تغيُّرَ الكلمة "عن أصلها، من غير أن يكون ذلك التغيّر دالاًّ على معنى طارئ على الكلمة، نحو تغييرهم: قَوَلَ إلى قال"[12]، فيقول فيه المكودي:

حقيقة التصريف أن تغيّرا   بناء كلمة لمعنى ظهرا
كمِثل تصييرِك فضلاً أفضلا   وَجَعْلِ عَدْلٍ عادلاً وعدَلاَ
وقائد التصريف للنحويّ   معرفة الزائد والأصليِّ
وعلم ما سُمّي بالإبدال   كالقلب والتصحيح والإعلال
وكلّها يعمّها التصريف   هذا اصطلاح عندهم معروفُ

ويرى بعض النبهاء من ذوي الضلاعة البعيدة في علوم العربية أن التصريف الذي هو علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست إعراباً ولا بناء، وموضوعه الأسماء (أي الأسماء المعرّبة كَعُمَرَ وإِبْرَاهِيمَ) المتمكنة والأفعال المتصرفة، قسمان: قسم تصريف الأسماء وقد تكفّل به علم النحو، وتصريف الأفعال وينحصر في ست ظواهر لسانية: الزيادة، الإبدال، الحذف، القلب، النقل، الإدغام، وسننمذج بهذا الأخير في سطور تطبيقية دلالة للملتقي على مدى تبحّر وعمق هذه الشخصية الجزائرية المنسية في غياهب الزمن، وبساطة المكان، في علوم اللسان العربي.

منهجية المؤلف في دراسته:

ذكر الأستاذ مهري المولود أن أبا حفص سار في شرح هذا العمل "على منهاج قويم استنبطه من عنوان المتن، فقسم الشرح إلى قسمين: القسم الاول توسع فيه توسعاً كبيراً لخّص فيه مسائل هذا الفن، وهذّبها بأسلوب عجيب، وأورد فيه مفردات كثيرة من أصول اللغة وفسّرها، فاتضحت بذلك الأمثال، وتوّجها بنقول صحيحة غالبها من كتاب سيبويه قدوة الأئمة الأعلام، وسمّى هذا القسم بسطاً، والقسم الثاني اقتصر فيه على حلّ ألفاظ

المتن وشرحه بإيجاز مع السبك العجيب، وسمى هذا القسم بالتعريف، فتمّ الانسجام والموافقة بين العنوان والمتن والشرح"[13].

أما الدارس نفسه فيقول بعد الإشادة بالمكودي ومنظومته مشيراً إلى خطة عمله "وقدّمنا الفنّ في العنوان إشارة إلى أنه هو المقصود في الإظهار، ولهذا جعلنا شرحه أولاً ما يتجلّى به المراد من غير نظر لما يليق بالمتن حسب الأنظار، وسمينا هذا المقام بسطاً، فناسب ما يرام من تلك الأقوال، وأوردنا فيه مفردات كثيرة من أصول مواد اللغة وفسّرناها فاتضحت بذلك الأمثال، وصحّحناه بنقول صحيحة عن الأعلام غالبها من كتاب سيبويه الإمام، واستوفينا ما ذكره الإمام من أبنية الأصول والمزيد،...ثم حلّلنا المتن بتحليل اتصل بأجزائه،...وسميناه بالتعريف،...وإنا اقتصرنا في الباب الأول لوضوحه على التعريف، وكذا في الآخر لأنه مقرّر لدى أهل التأليف"[14].

منهجية المؤلف تبدو لك في أول وهلة صعبة أو غامضة، ولكنك لا تكاد تتصفحه بإمعان وتدبّر، وتستوعب خطابه في مقدمة الكتاب حتى تبدو لك أوضح من شمس منيرة في رابعة النهار، ولا تكاد تقرأ تحليلاً من تحاليله في البسط أو التعريف حتى يجذبك إليه جذباً، ويحبّب إليك فن التصريف تحبيباً، على الرغم من جدب موضوعه وعزوف الناس عن فنه، وما كان ليُيسّر لك ذلك لولا الخِطة الإبداعية المحكمة التي انتهجها أبو حفص، بل ما كان ليقيّض له هو شخصياً تلك المرونة التي روّض بها هذا العلم ترويضاً، وقرّبه إلى من يرغب فيه من باحثين مختصين وحتى قرّاء

فضوليين لولا امتلاكه لناصية العربية بجميع علومها وعناصرها وثقافتها التي لا ساحل لها على مدى ألوف من السنين.

وحتى لا يبقى كلامنا مجرداً، فإننا نرتئي أن نقرّب إلى ذهن المتلقي بمقاربة لعلها توضح خطته، وهو يتعامل مع هذه المنظومة المكودية، ولتكن الأبيات الدالة على "أدلة زيادة الحرف:

فَصِّل وَخُذْ أدلّة الزيادة   فستّة تُلفى بلا زيادهْ
أوّلها دليل الاشتقاق   وَهْوَ أقواها لدى الحُذّاق
كَحُسْنٍ إذ دلّ الإحسان   بأنه زيد به حرفان
والثاني منها أيضا التصرُّفُ   كَمِثْلِ ما في تَتْفُلٍ تَصَرَّفُوا
إذ جاء فيه تَتْفُلٌ بالضمّ   وفُعْلُلٌ يوجَدُ في ذا العِلم
لكن أبان فتحه في تتفُلٍ   زيادة التاءِ لِعُدْمِ فَعْلُلِ
الثالث الكثرة مثل أيدعٍ   إذ جائزٌ لمدّعٍ أَنْ يدّعِي
بأنّه كَصَيْرَفٍ وجَيْأَلٍ   لا أنّه كَأَغْيَدٍ وأَحْوَلِ
لَكِنْ يُجَابُ أنّ باب أَفْعَلٍ   أكثرُ في كلامهم من فَيْعَلِ
والرَابعُ العَدَمُ للنظير   وَهْوَ جليٌّ غايةَ الظهورِ
وذاك مثلُ قولهمْ في إمّعَهة   وهو الذي يقول من أمشي معهْ
بأنّ وَزْنَه لديهمْ فَعَّلَهْ   إذ ليس في الصفات وَزْنُ إِفْعَلَهْ
الخامس الأحكامُ نحوُ اسْحَنْكَكَا   وَمَهْدَدٍ كَوْنُهما قَدْ فُكّكا
إذ دلّ أن أحد المضعّفيْنْ   قد زِيدَ في أشباهِ تَيْنِ اللَّفْظَتَيْن
وسادسٌ لَزُومُ حَرْفٍ لِلْبِنَا   فزائد القِنْدَأْوِ قَطْعاً عُلِمَا

وبعد أن يثبت هذه الأبيات التعليمية في أدلّة زيادة الحرف، يجنح إلى التوضيح والتحيلل مبتدئا بالبسط، تماشياً مع الشق الأول لعنوان المنظومة المكودية، حيث يقول: "اعلم أن أدلة زيادة الحرف قسمان: عامة أصلية، وهذه ذكرها المصنف (ص) (تشير هذه الصاد إلى "المصنف")،...وخاصة فرعية تتبني على الأصلية، فإن وجدت اكتفينا بها، إلا أن يدلّ دليل على الأصالة، وإن فقدت رجعنا إلى الأصلية، ولم يذكر المصنّف في هذا الباب الفرعية، وذكر من الأصلية ستة، والأشموني (شم) عدها عشرة، ولكن قد تؤخذ الأربعة التي زادها مما ذكره المصنف، وعلى هذا نقتصر على ما للمتن، ونضيف لكل قسم ما يناسبه، واعلم أن الزائد هو الساقط في أصل الوضع تحقيقاً أو تقديراً، فواو كوكب ساقط تقديراً، وواوُ وعد عند سقوطه في المضارع مقدّر الوجود، لأنه سقط لعلة، وهو في أصل الوضع موجود، وهاهي الأدلة"، ثم يباشر بعد هذا البسط التمهيدي العام، سواء تعلق الأمر بالمنظومة نفسها أو بآراء لعلماء آخرين، يذكر. أضرب الزيادة واحداً واحداً:

1- الاشتقاق، ويقصد به مطلق أخذ كلمة من أخرى، ولو من اسم عين، والاستدلال بالاشتقاق مرهون بالنظر إلى الأصل أي المصدر، فإن سقط منه حرف لغير علة حكم بزيادته، كسقوط ألف ضارب منه وهو الضرب، وأما سقوطه في فرع فمثْلُه سقوط ألف كتاب في جمعه على كتب.

2- لزوم عدم النظير بتقدير الأصالة في نظير الكلمة، مثال هذا ضم التاء وفتحها من "تتْفل" (ولد الثعلب)، على الضم تصحّ الأصالة، ولغة الفتح تنفي الأصالة، لأن "فَعْلُلٌ" بالفتح مفقود، وعبّر المكودي على لزوم عدم النظير بالتصرف.

3- الكثرة، ويراد بهذا ما يصحّ في الكلمة التي لا يعرف اشتقاقها مثل أَيْدَع (صَمْغ أحمر تُدَوي به الجراحات، شجر تصبغ به الثياب...)، فالهمزة هنا أصلية، والياء زائدة.

4- لزوم عدم النظير في نفس الكلمة، ومثّل له المكودي بما يقتضي أن يكون دليل الأصالة لا الزيادة، مثل إِمَّعَة (كلمة منحوتة من أمشي معه)، ومثله إِمَّرَة (من يأتمر بأمر غيره).

5- وجود أحكام في الكلمة تترتب على الزيادة كَمَهْدد (اسم امرأة) لوقوعه غير مدغم، إذا لو كانت الدال الثانية أصلية لوجب الإدغام.

6- البناء الذي لا يقع إلا بحرف زائد، ومثله، قِنْدَأْوٌ (الرجل الخفيف، كِنْتَأْوٌ (الوافر اللحية)، الحِنْطَأْو (العظيم البطن)، كِنْدَأْوٌ (الجمل الغليظ الشديد)، ووزن كل هذه الكلمات فِنْعَلْوٌ.

ويذكر أبو حفص أن النوع السادس عدّه الأشموني قسمًا مستقلاً، واستشكل ذلك على الصبّان مثبتا أنها قسم واحد، واعترض عليه العلامة: "أقول: إنه إشكال، وأن الحق مع الشارح في عدّهما نوعين" مورداً أمثلة لغوية شتى تؤيّد انتصاره للمكودي.

ولعلّ ما لفت انتباهي في نهاية هذا الشرح أو البسط ما ذكره أبو حفص بأن الأشموني من دلالة الحرف على معنى كحروف المضارعة، وألف اسم الفاعل، وهذا لعمري ما تقول به اليوم اللّسانيات الوظيفية حول ما يعرف بالوحدات الدالة.

ولا ينهي البسط حتى ينتقل إلى "التعريف"، موزعا عمله تارة على بيت واحد، ومرة على بيتين، وطوراً على ثلاثة أبيات حسب مقتضى الحال والمقام، فنراه يثبت البيت الأول مشكولاً شكلاً كليا، ثم سائر الأبيات خلافاً لما مر في البسط، وَلْنَتْجَزِئْ بالبيت الأول من الأبيات السابقة، لنقف على طريقة العلامة في تعامله مع "التعريف":

فَصْلٌ وخُذْ أدلَّةَ الزِّيَادَهْ فَسِتَّةٌ تُلْفَى بِلاَ زِيَادَهْ

"فصل، أي هذا فَصْلٌ. والفصل في الاصطلاح اسم الطائفة من الكلام، مخصوصة مندرجة مع ما قبلها في الحكم وفي اللغة القطع... (وخذ) أيها القارئ "أدلة الزياده" أي زيادة الحروف، (فستة) يصحّ أن يكون خبراً لمبتدإ محذوف، والتقدير فهي ستة، ويصحّ أن يكون مفعولاً ثانياً لِيُلْفى مقدمًا، والمفعول الأول ضمير، والتقدير فهي تُلْفى أي توجد ستة، وهذا أقرب، والفاء فصيحة، وقوله: "بلا زيادة" تأكيد للعدّ وتتميم للبيت، هذا بحسب الظاهر، ويُحْتَمَلُ أنه أراد به أنّ الزائد على هذا العدّ غير معتبر لأنه راجع إليها، فكأنه يقول: لا تعتمد على زيادة من زاد، وحافظ على هذه الأصول، فإنها جامعة غير أنّا قد منا قبل الحلّ أن دلالة الحرف على معنى لم يدخل تحت كلام المصنّف، لكن قد يمكن الاستغناء عنه بالاشتقاق، وعدُّه أوْلى لأن دلالته على الزيادة لا تتوقف على الاشتقاق، وإن كان ففي الكلمة اشتقاق، إذا العلامة ما أنبأتْ على المعلَّم، ولا يشترط أن لا يكون له علامة أخرى، والدليل في اللغة هو العلامة على الشيء والمرْشدُ إليه، وهذا هو المقصود للمصنّف، وأما عند المناطقة فهو ترتيب أمور معلومة للتأدّي

بها إلى مجهول، كقولنا: العالم حادث،وكل حادث لا بدّ له من مُحدِث، فالدليل عندهم مركّب من الصغرى والكبرى، وأما عند الأصوليين فالشيء الذي يُتوصّل بالنظر في حاله ووصفه إلى المطلوب، فهو مفرد، فالدليل عندهم في المثال المتقدم هو العالَمُ فقط، يُتوصّل بالنظر في وصفه إلى المطلوب، والدليل عند المتكلمين أعمّ من أن يكون النظر في حاله وهو المفرد أو نفسه، وهو المقدّمتان".

فأنت ترى من خلال وقوفك على شرح وتحليل هذا البيت التعليمي أن الشارح لا تحسبه نحوياً أو صرفياً أو لغوياً وحسب، بل أدخل عوامل خارجية أخرى لم يقلها الناظم إطلاقا، ولتفهم هذا الشرح فينبغي أن تكون متمكناً من اللسانيات العربية، ومن السيميولوجيا، ومن المنطق، ومن علم الأصوليين وفلاسفة المتكلمين، وهذا مالا يتيسّر إلا للشيخ أبي حفص عمر الزّموري.

شخصية أبي حفص اللغوية:

لن تحتاج إلى تقليب صفحات كثيرة حتى تقف على أوصاف الرجل العلمية، وثقافته اللغوية الواسعة، فمنذ أول شرح ودراسة لأبيات المنظومة التي مطلعها:

وَبَعْدُ فالقصدُ بذا التصنيف   نَظْمُ قواعدَ من التصريف

تشعر بنفسك داخل حقول لسانية عامة لإدخال حقل واحد اسمه التصريف، فهذا إعراب عجيب للمنظومة وحدةً وحْدة، وهذا اسلوب أدبي على الرغم من كون النظم شعراً تعليمياً جافّاً، وهذه محسنات بديعية، وصور

بيانية، وهذه تعليلات نحوية لا تغرب عن المتعلم، ولا يعدم المختص جدواها، وهذا عروض حيث يذكر البحر ومرتبته وأجزاءه وتفعيلته ودائرته الرقمية، بله الاشتقاق،والقياس، والمطرد والشاذ، والغريب،...والشواهد القرآنية واللهجات العربية ومذاهب العلماء أمثال الخليل، وسيبويه، وغيرهما من العلماء المتقدمين والمتأخرين.

والقارئ لا يقرأ كثيراً ليقف على شخصية أبي حفص اللغوية القوية، فهو لا يعترض تلذّذاً ولا استعراضاً لمعلوماته اللسانية الخاصة والعامة، بل يقيم الدليل تلو الآخر ليقنعك بأن ما ذهب إليه من تأييد أو اعتراض أو انفراد برأي مرجّح هو المقبول صواباً، فممّا جاء في المنظومة مثلاً حول ما يسمى بالقلب المكاني:

وإنْ تَسَاوى لفظتا المِثْلين في معناهما وسائر التصرُّفِ
فكلّها أصلٌ كَعَاثَ وعَثَا والجذبِ والجبذ ولاث ولثَى

فإنّ أبا حفص يحلّل هذه المسائل اللغوية، بأن عاث وعثى وجبذ وجذب ولاث ولثى متساوية في التصرف، راداً على صاحب المصباح الذي ذكر أن جبذ مقلوب عن جذب، مؤيداً قوله برأي القاموس منبّهاً إلى أنها لغة صحيحة، مستبعدا راي الجوهري القائل: "جبذت الشيء مثل جذبته مقلوب منه"[15]، مردفاً قوله: "ومثل لاث يقال: لاث النبات أي التفّ بعضه ببعض، ولثى بمعنى لاث على حسب المصنّف، ولم يذكرها القاموس ولا المصباح، فَلْيَنْظُرْ فكلّ ما ذُكِرَ من هذه الألفاظ أَصْلٌ بنفسه، اتفق بعضه مع بعض في المعنى والتصرف، فهو من باب الترادف"[16].

وما تقدم لا يعني أن الكتاب سيكون في متناول العامة ممن ليست لهم ضلاعة وعمق بعيدان في علوم اللسان العربي، غير أن هذا لا يمنع أن يُيَسَّر الكتاب تيسيراً تربوياً في مجال "العَصْرَفة" (علم الصرف)، عسى أن يصبح في متناول الباحث غير المختصّ، والطالب الجامعي، كأن يستغني فيه عن بعض التفاسير اللغوية والشروح المعمّقة، ولم لا أن يُفْصَلَ المتن الشعري للمنظومة المكودية اجتزاءً بعمل أبي حفص الزموري شريطة مراجعته وتبسيطه واختصاره؟ ولم لا يصير هذا العمل ذات يوم "قطر النّدى وبلّ الصّدى" ثانيا في "العصرفة" العربية؟

أيّاً كان الأمر، فإن هذا العمل الأكاديمي لعلم لساني عربي يعدّ من أعقد العناصر اللسانية، بالنسبة للغة العربية من أنفس التراث الثقافي اللساني في فترة لغوية حالكة شهدتها بلادنا في ظل رطانة أعجمية دخيلة، فضلاً عن كونه مَعْلَمًا من معالم الفكر اللغوي الجزائري، الذي يشكّل لبنة قوية من لبنات الحركة اللغوية الأصيلة في الجزائر.

الإحالات:

---

[1] راجع فتح اللطيف في التصريف على البسط والتعريف ص: 19 عمر بن أبي حفص الزموري ط: 19991/1 ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر).

[2] أبواب الجنان وفيض الرحمن ص: 18، لعمر بوحفص الزموري، دار الهدى (عين مليلة) تحقيق: الأستاذ بلقاسم آيت حمو.

[3] السابق ص: 19.

[4] – السابق ص: 21.

[5] – السابق ص: 23–25.

[6] – فتح اللطيف في التصريف ص: 3.

[7] – السابق ص: 20.

[8] – نفسه ص: 24.

[9] – أبواب الجنان وفيض الرحمان ص: 29–30.

[10] – شرح المكودي على الألفية ص: 2، مطبعة دار رحّاب للطباعة والنشر والتوزيع.

[11] – التصريف: موضوعاته ومؤلفاته ص: 88، د.مختار بوعناني ط: 1996/1 (جامعة وهران).

[12] – المقرّب: ج2/ص: 78 لابن عصفور ط: 1972/1، مطبعة العاني–بغداد.

[13] – فتح اللطيف في التصريف ص: 5–6.

[14] – السابق ص: 25.

[15] – الصحاح: 561/2، الجوهري ط: 1984/3، دار العلم للملايين بيروت.

[16] – فتح اللطيف في التصريف ص: .396.

أبو العيد دودومؤرخا

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

من الوجوه العلمية و الشخصيات الأدبية و الكفاءات العلمية التي يعتز بها الوسط الثقافي الجزائري وتفتخر بها الجامعة الجزائرية الأستاذ الدكتور ابو العيد دودو، الذي فرض نفسه بعمله الدؤوب و انتاجه الغزير، و اكتسب محبة الآخرين و تقديرهم بنظرته المتفحصة الذكية للواقع الثقافي، و بروحه المرحة في تعاملها مع الحياة، وتفاعلها مع المجتمع و تفهمها للتراث، و موقفها من قضايا الثقافة و شؤون الأدب وأحداث الساعة.

ولعلي لا أبالغ إذا قلت أن الأستاذ أبو العيد دودو جمع أشياء في شخصيته الوديعة البشوشة، قد نجدها متفرقة بين أفراد عديدين و لكن يصعب أن تتوفر في شخص واحد. كيف لا و أبو العيد دودو يجمع القناعة الذاتية مع الطموح المجنح، و التشاؤم من الواقع مع الأمل العريض في المستقبل، و اعتلال الصحة مع إصراره على العمل و الإنتاج. و هذا ما يجعل المتعامل معه يلمس فيه روح الشاعر الحالمة، و نفحة الشباب المندفعة، وخيال الأديب المتمرد على واقع الجزائر الصعب.

هذا الواقع الذي لا يمكن مجابهته و التغلب على احباطاته إلا بالتفاؤل و الصبر و العمل الدؤوب لأنه واقع نتج عن الزمن الرديء الذي لا يعترف إلا بالسلوك الاداري المتحجر و بمواقف الانتهازيين البليدة، وبادعاءات المتلصصين الفارغة التي لا تقوم على أي أساس و لا تستند إلى أي منطق أو قناعة.

إن ما يميز الأستاذ الدكتور أبو العيد دودو هو حسن تعامله مع وضعه الصحي الصعب و استجاباته الموفقة لحاجات واقعه، فهو يمارس الحياة بنظرة تتجاوز احباطات الحاضر، و تستمد نكهتها من مآثر الماضي وحيويتها من الأمل في المستقبل، و هو مع ذلك يتعامل مع من حوله و يؤثر فيهم بخفة روحه و صفاء طويته وطيبة خاطره، و في كل ذلك يمارس هواياته في الكتابة، و يفرض حضوره الأدبي بعمق معرفة و دقة علم وسعة أفق، و هو قبل كل شيء يعبر في كتاباته عن الحاجات الانسانية بريشة الفنان المرهف الاحساس، و قلم الكاتب المبدع، و نظرة المؤرخ المتفحص للأحداث و المستقرئ للأسباب و النتائج.

كل هذه الجوانب تحدد معالم شخصية الأستاذ أبو العيد دودو، وتفرض على نقاد أدبه و المتعاملين مع انتاجه بمختلف أصنافه، من قصص و مسرحيات و روايات و فنون تراثية و انطباعات شخصية و ترجمات أدبية و تاريخية التعرف على نظرته لأصناف الأدب و على جوانب الإبداع من عطائه، مما يجعل الاطار التاريخي لاسهاماته و المادة التاريخية في كتاباته تشكل بحق أساسا لكل تناول نقدي أو عرض أدبي لانتاجه، فالجانب التاريخي في كتابة أبو العيد دودو يشكل مجالا معرفيا خاصا و فضاء فكريا

متميزا يلفت انتباه القراء، و يدفع من لـه اهتمام بالتاريخ إلى التعرض لـه، و لعل هذا أحد الأسباب التي دفعتنا إلى تناول الجانب التاريخي في كتابات الأستاذ أبـو العيـد دودو، فعسـى أن نوفـق فـي إبـراز مسـاهمة هـذا الأديـب الكبير في هذا الجانب المهم في الثقافة والتراث الإنساني.

إن التعريف بالعطاء التاريخي لأبو العيد دودو يتطلب منا في مستهل هـذا العـرض إلقـاء نظـرة سـريعة علـى مسـار حياتـه، و محطـات تكوينـه و مراحل تعلمـه، لارتبـاط ذلك بنوعيـة كتاباتـه و توجهاتـه الأدبيـة ؛ و فـي هذا الإطـار يمكـن تحديـد معـالم حيـاة أبـو العيـد دودو. فقـد نشـأ فـي الريـف، و ترعرع في أحضـان الطبيعـة الهادئـة الحالمـة، قبل أن تدفع بـه تقلبـات الحيـاة ليغـادر مراتـع صـباه نحـو المدينـة بكـل صـخبها و ضـجيجها، ليختبـر حيـاة الهجرة ومعاناتها خـارج الوطن كطالب ثم كأستاذ، ليعود مرة أخرى إلى بلده الجزائر، ويستقر بـه المقام بعد ترحـال وغيـاب طويـل، و تنـتظم حياتـه فـي مهنة التعليم الجامعي، الذي كان خير حافز لـه على مواصـلة نشاطه الثقافي وانتاجه الأدبي.

ولـد أديبنـا المـؤرخ أبـو العيـد دودو – حسـبما تـرجم لنفسـه – بـدوار تمنحر، بلدية العنصر بولاية جيجل في نهاية الشهر الأول من عام 1934، و عرف اليتم و هو ابن الثالثة، و خبر حياة الحرمان و شظف العيش في مسقط رأسه و هو صبي ، قبل أن يتكفل به أحد أقاربه و هو الشهيد أحمد دودو، و هـذا مـا سـمح لـه أن يغـادر كتـاب دشـرته ليـزاول دراسـته بإحـدى المـدارس الأهليـة الإصـلاحية بقسـنطينة مـع نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، حيـث تلقـى تعليمـه الابتـدائي بمدرسـة الشـيخ محمـود حمـاني بحـي سـيدي

بوعنابة، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة الشيخ محمد الزاهي، و أثناء ذلك بدأ ميله إلى الأدب و اهتمامه به على يد أحد أساتذته، و هو المرحوم الشيخ صادق حماني. و مع التحاقه بمعهد عبد الحميد بن باديس الذي فتح أبوابه بقسنطينة كفرع لجامع الزيتونة في خريف عام 1947، اكتسب أبو العيد دودو ثقافة عربية أصيلة المحتوى راقية المستوى، على أيدي الرعيل الأول من مدرسي هذا المعهد العتيد، أمثال الشيخ العباس بن سيدي الحسين و عبد القادر الياجوري، و عبد المجيد حيرش، و عبد الرحمن شيبان، و أحمد حماني. و حظي أثناء ذلك بزمالة الطليعة الأولى من طلبة جمعية العلماء المسلمين، أمثال حنفي بن عيسى و عثمان سعدي.

و بعد أن استكمل أبو العيد دودو دراسته بمعهد ابن باديس بقسنطينة خلال أربع سنوات، انتقل إلى جامع الزيتونة لإجراء امتحان شهادة الأهلية – كما كان متبعا آنذاك – فحصل عليها سنة (1951)، ومكث بتونس بنية استكمال دراسته الثانوية، و انتسب إلى مكتب ابن عبد الله أحد فروع جامع الزيتونة، على أن حصوله على منحة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى العراق مكنه من الالتحاق ببغداد، حيث انتسب إلى قسم اللغة العربية بدار المعلمين، و طاب له المقام على ضفاف دجلة حيث وجد أفقا رحبا و فضاء فسيحا، و قدوة مثلى في أساتذته الذين تأثر بهم أمثال مصطفى جواد و جواد الطاهر و عبد الرزاق محيي الدين ؛ فبرزت ميوله الأدبية و تعمقت نظرته لقضايا الانسان و الأدب و الحياة مع استكماله تحصيله العلمي بنيل شهادة ليسانس في الأدب العربي (1956).

شاءت ظروف الحياة أن تدفع بأبو العيد دودو إلى دار هجرة أخرى، عندما انتقل لمواصلة دراساته العليا إلى النمسا في نفس السنة التي تخرج فيها من بغداد. فحل بفيينا و هو خاو الوفاض من كل معرفة باللغة والأدب الألماني، فانكب بشغف على دراسة اللغة الألمانية، و واظب على التعمق في دراسة الآداب العربية والعلوم الإسلامية بقسم الدراسات الشرقية بجامعة فيينا، فتوجت جهوده بالحصول على درجة الدكتوراه من جامعة فيينا في ربيع عام 1961 عن دراسته وتحقيقه لمخطوط "التاريخ المنصوري" لابن نظيف الحموي.

حرص أبو العيد دودو على مواصلة تكوينه و صقل مواهبه الأدبية و الوصول بمستواه إلى درجة العطاء و منزلة الإبداع، فواظب على البحث عندما كلف ببعض الدروس بالمعهد الذي درس فيه بفيينا في السنة الأخيرة من دراسته. و هذا ما ساعده بعد تخرجه على الانتساب إلى جامعة كيل الألمانية، لتغطية بعض المقررات الدراسية بالمعهد الشرقي تحت اشراف المستشرق فيلهلم هوفرباخ (1961–1964)، بعدها عاد إلى جامعة فيينا بدعوة من أستاذه لودفيغ غوتشالك لتدريس اللغة العربية و آدابها، و عندها بدأ خطواته الأولى في الإنتاج بنشر محاولاته الأولى عن الأدب الجزائري و العربي باللغة الألمانية. و كاد أن يستقر به المقام بألمانيا للتدريس بالمعهد الشرقي بجامعة فرايبورغ لولا شروط المشرف على هذا المعهد المستشرق روبير رومر التي رأى فيها أبو العيد دودو قيودا تحد من نشاطه و تقيد حريته، و هذا ما جعله يفضل العودة إلى الجزائر و الاستقرار بها.

التحق أبو العيد دودو بقسم الآداب بجامعة الجزائر (1966)، فواظب على أداء رسالته التعليمية، ولم يهمل الاشتغال بالبحث و الكتابة، فدرس عليه نخبة من الشباب الجامعي المتميز، أصبح العديد منهم أساتذة للأدب العربي بالجامعة الجزائرية. و مع تعاقب السنين و مر الأعوام درس على أبي العيد دودو مئات الطلبة في مختلف مراحل دراستهم الجامعية، و ظلت في ذاكرة العديد منهم صورة الأستاذ أبو العيد دودو حية في مخيلتهم من خلال المقررات التي كان يدرسها، و التعليقات و المناقشات التي كان يثيرها حول قضايا الأدب المقارن و الآداب القديمة و نظرية الأدب.

و أثناء ذلك لم يتوان أبو العيد دودو عن القيام بالمهام الإدارية، و تولي المسؤوليات البيداغوجية من رئيس قسم اللغة العربية إلى مدير معهد اللغة و الأدب العربي إلى رئيس مجلس البحث العلمي لكلية اللغة العربية. على أن ما يلفت انتباه المتتبع لمسيرة النشاط العلمي لأبو العيد دودو يلاحظ أن مشاغل التسيير الروتينية لهذه المسؤوليات الإدارية لم تحل دون مواصلته للانتاج و لم تعرقل حضوره الأدبي في الساحة الثقافية وفرض مكانته في الفضاء الأدبي الجزائري بما نشره من مؤلفات و ترجمات و بما شارك فيه من مؤتمرات محلية وعربية وعالمية و بما أسهم به من مداخلات جادة و عروض مبدعة و بحوث متميزة.

لقد أغنى الأستاذ أبو العيد دودو رصيد المكتبة العربية، و خاصة ما يتعلق منه بالجزائر، بانتاج غزير متنوع جمع بين الدراسات و الترجمات الأدبية و التاريخية و بين المسرح و القصة و الانطباعات الذاتية، ناهز عددها السبعين عملا بين مطبوع متداول بين أيدي القراء و مخطوط لا زال

ينتظر النشر، فضلا عن المشاريع الأدبية العديدة التي هو بصدد انجازها و الانتهاء منها، و التي كان لي الحظ للاطلاع عليها عند زيارتي له بمنزله، وهي تربو على 21 عملا ابداعيا و32 عملا مترجما عن اللغة الألمانية، و 9 دراسات، و أربعة قواميس مدرسية (عربي-ألماني-عربي) ومسرحيتين و تحقيق واحد، بالإضافة إلى كتب مدرسية لتعلم اللغة الألمانية موجهة للطلاب.

و ما دمنا في عرضنا هذا نهتم بالجانب التاريخي من إسهام أبي العيد دودو، فإنه يتوجب علينا التعريف بأهم أعماله في هذا المجال، و هي :

1. **التاريخ المنصوري المعروف بـ"تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان"** لأبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي (طبع بدمشق 1982، ثم أعيد نشره بالجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، 252 ص.).

يؤرخ للدولة الأيوبية و يتعرض خاصة للأحداث التي وقعت ما بين سنتي 589 و 631 هـ/1193 و 1234م، و قد اعتمد فيه مؤلفه على المصادر المعاصرة و الروايات المتداولة و مشاهداته الشخصية، فكان تسجيلا حيا و وصفا دقيقا لأحداث الفترة التي يؤرخ لها، فقد تولى ابن نظيف منصب كاتب في دولة الملك الحافظ صاحب قلعة جعير، و تعرض للسجن و المصادرة (627-628 هـ/1230-1231 م)، و خدم السلطان الملك المنصور بن المجاهد بعد أن تحول إلى حماة (633 هـ/1236 م)، و أهداه كتابه الذي عرف بالتاريخ المنصوري. و يعتر ابن نظيف من مثقفي عصره فقد قرض الشعر و اشتغل بتسجيل الأحداث، فوضع كتابا مطولا في

التاريخ بعنوان "تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان"، اختصر مرتين بعنوانين مختلفين، أحدهما : "مختصر سير الأوائل و الملوك و وسيلة العبد المملوك" (نسخة المكتبة الوطنية بباريس، رقم 1507)، والآخر "التاريخ المنصوري" أو "مختصر ابن نظيف" (نسخة مكتبة المعهد الشرقي بلينينغراد المسجلة تحت رقم : 1 م 159).

وضع ابن نظيف مختصره "التاريخ المنصوري" سنة 631 هـ، فجعل قسمه الأول في شكل قائمة بأهم الأحداث و الوفيات، بينما توسع في القسم الثاني الذي يبدأ مع وفاة صلاح الدين الأيوبي، فجاء عرضا مختصرا و مركزا و غنيا بالأحداث، فكان مرجعا للعديد من المؤرخين المتأخرين مثل : ابن الفرات (ت. 807 هـ/1405 م) في تاريخ الدول و الملوك، والمقريزي (ت. 845 هـ/1442 م) في كتاب السلوك، و أبو الفرج بن العبري (ت. 1289 م) في تاريخ مختصر دول العالم.

قام أبو العيد دودو بتحقيق "التاريخ المنصوري" في إطار دراسته العليا بألمانيا، فوجد في مدرسة الاستشراق الألماني الإطار الملائم لإنجازه، كما وجد في نصائح أساتذته الألمان (أ. ديتريش، هـ. غوتشالك، ليش وستيبات، راينرت) خير مرشد له في هذا العمل التاريخي، الذي تميز باحترام قواعد تحقيق المخطوطات من حيث التصحيح والمقارنة و استنطاق النص و شرح المصطلحات، و التعليق على الأحداث.

2. **<u>الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان</u>** (الجزائر، الشركة الوطنية للكتاب، ط. 1، 1975، ط. 2، 1990).

عرف فيه أبو العيد دودو بمجموعة من الرحالة الألمان الذين زاروا الجزائر و تعرفوا عليها و كتبوا عنها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهم : 1) فيلهلم شيمنر (1804–1878) : قام برحلة إلى الجزائر سنتي 1831–1832، سجل مشاهداته في شكل مذكرة طبعت بشتوتغارت (1834). 2) فرديناند فينكلمان : نشر كتابا عن تاريخ احتلال الفرنسيين سنة 1830 (نشر إيلمناو، 1832). 3) هرمان هاون : وضع بالاشتراك مع إدوارد فيدرمان كتابا صغيرا عن الجزائر بعنوان "الجزائر كما هي"، نشر بشتوتغارت (1835). 4) موريتس فاغنر (1813–1887) : العالم الطبيعي الألماني الذي زار الجزائر ما بين سنة 1835 و 1837، و وضع تأليفا عنها بعنوان "رحلات في ولاية الجزائر سنوات 1836–1838"، نشر في لايبزج (1841)، في ثلاثة أجزاء، الأول تعرض فيه لوصف لمدينة الجزائر و المدن الأخرى التي شاهدها، و الجزء الثاني خصصه لتاريخ الاحتلال و المعارك التي حضرها، و الجزء الثالث تناول فيه مملكة الحيوان في الجزائر بمشاركة أخيه رودولف. 5) آدولف شترال النمساوي : نشر مجموعة قصص عن الجزائر بعنوان صور شمسية جزائرية نشرت بفيينا (1842). 6) كليمانس لامبينغ : التحق بالفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي (اللفيف الأجنبي) و عمل بها منذ 1839، وضع مذكراته عن الجزائر سنة 1841 و نشرها في أولدنبورغ (1844)، فكانت بحق وصفا حيا لأسلوب الأرض المحروقة التي طبقها جلاد الجزائر بيجو في محاربته للأمير عبد القادر الجزائري. 7) لودفيغ بوفري: أعجب بالمشروع الاستعماري الفرنسي و اعتبره عملا حضاريا في تقاييده عن الجزائر "مستقبل الجزائر في ظل السيادة الفرنسية" و نشر ببرلين 1855 ؛ 8. الأمير النمساوي فريدريش شفارتسنبيرغ

: سجل ملاحظاته عن الجزائر في كتابه "التفاتات إلى الجزائر" (1837). 9) الطبيب الدنماركي شونبيرغ : الذي شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر و وضع كتابا عن مشاهداته بعنوان "نظرات على الجزائر" (1839). 10) الأمير البولوني بوكلر موسكاو سيميلسو : وضع كتابا عن الجزائر بعنوان "الأمير بوكلر موسكاو في إفريقيا"، وصف فيه مناطق الساحل الجزائري و علق على الأحداث التي وقعت أثناء زيارته للجزائر.

3. **ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا** (Drei Jahre im Nordwestern von Afrika) لهاينريش فون مالتسان (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 3 أجزاء، ج. 1، 1976، ج. 2، 1979، ج. 3، 1980).

قدم لنا أبو العيد دودو من خلال ترجمة كتاب مالتسان (1847) أحسن وصف لجزائر منتصف القرن التاسع عشر، من حيث أوضاع الجزائر آنذاك و طبيعتها و سكانها و مراكزها العمرانية. وفقد كان مؤلفه على معرفة تامة بالجزائر، فقد زارها خمس مرات و مكث بها ثلاث سنوات، قبل أن يغادرها نهائيا سنة 1860. فقد استطاع مالتسان في كتاباته عن الجزائر، حسب وصف الجغرافي الألماني الشهير فردريش راتسل له : "أن يتحول من سائح مهتم إلى رحالة عالم يتحرى الحقيقة و الصدق". و هذا ما أعطى وصفه للجزائر قيمة علمية و وثائقية، فجاءت تعليقاته مليئة بالمعلومات التاريخية و الطبيعية و الاجتماعية، فما من قرية يمر بها، و ما من مدينة يحل بها، إلا و يقدم عنها وصفا طبيعيا و نبذة عن تاريخها منذ نشأتها حتى الفترة التي زارها فيه

إن القيمة التاريخية لهذا المصدر المهم عن الجزائر تكمن في كونه كتب بقلم ألماني بعيد عن الروح الاستعمارية و النظرة الاستعلائية التي ميزت كتابات الفرنسيين آنذاك، فجاءت المشاهدات و الملاحظات والانطباعات التي تضمنتها صادرة عن نظرة متفتحة و موقف حيادي و روح نقدية لا تتردد في توجيه النقد اللاذع لموقف الفرنسيين و السخرية المرة من سلوكاتهم الصادرة عن احتقارهم للجزائريين و عن جهلهم لحضارة غريبة عنهم و ادعائهم الوقح بأنهم "الأمة العظيمة وارثة و مجددة مجد الرومان".

لقد تمثل الأستاذ أبو العيد دودو مادة الكاتب و تفاعل مع مؤلفه، فجاءت ترجمته له صورة حية لواقع الجزائر الاستعماري في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، فيخالها القارئ و كأنها كتابة إبداعية معبرة باسلوبها المسترسل و عباراتها التي جمعت دقة الملاحظة و حيوية الوصف مع حياد الموقف ونفاذ النظرة.

4. **مذكرات بفايفر (1806–1883)** (الجزائر، ط. 1، 1975، ط. ، 1999).

مكث بفايفر في الأسر بمدينة الجزائر خمس سنوات (1825–1830)، عمل أثناءها طباخا لدى الخزناجي المكلف بالمالية، قبل أن يصبح بعد سنتين طبيبه الخاص، و هذا ما ساعده على الحصول على حريته قبل الغزو الفرنسي للجزائر بقليل و مكنه من الاطلاع على أوضاع الجزائر و ظروفها قبل أن يغادرها نهائيا في 16 سبتمبر 1830، ليهاجر بعض الوقت إلى البرازيل قبل أن يعود ليستقر بألمانيا، فجاءت تقاييده وصفا حيا لمدينة الجزائر والأحداث التي عاشتها قبل و أثناء الغزو الفرنسي لها.

تميزت مذكرات بفايفر التي وضعها بالألمانية في أحد عشر فصلا، بالملاحظات الدقيقة و الوصف الحي و النظرة لأوضاع الجزائر وملابسات الغزو الفرنسي الذي تعرضت له، فقد قدم وصفا اعتمد فيه على مشاهداته لعملية الانزال الفرنسي بسيدي فرج (14 جوان 1830) و احتلال الجيش الفرنسي لمدينة الجزائر (4 جويلية 1830)، ثم أضاف لمذكراته هذه نبذة مركزة عن عناصر السكان و ما كانت تتميز به حياتهم و تختص به بعض الطوائف منهم، و هذا ما جعلها أكثر دقة و تفصيلا حتى مما كتبه حمدان خوجة في المرآة و أحمد أفندي في تقريره عن الغزو الفرنسي.

نالت مذكرات بفايفر بعد نشرها بألمانيا (1832) اهتمام القراء، و هذا ما شجع صاحبها على إصدار ملحق لها بعنوان "وصف دولة الجزائر و سكانها" (1833)، و إعادة طبعها للمرة الثانية مع ملحقها سنة (1834)، قبل أن تتم ترجمتها إلى الإنكليزية (1836)، و ينقل منها جزء إلى الفرنسية، و يعاد نشره في المجلة الإفريقية (1876) بعنوان "احتلال الجزائر عن رواية أحد الأسرى" (La prise d'Alger racontée par un captif). أما الترجمة العربية فقد تأخرت و لم تر النور إلا بفضل مبادرة أبو العيد دودو، فظهرت سنة 1982 ثم نشرت على حلقات في مجلة الجيش سنة 1986، قبل أن تصدر في طبعتها الأخيرة عن دار هومة (1998) بقسميها : التقاييد الأصلية (ذكريات و أحداث) و الملحق (الجزائر حكومة و شعبا).

5. **<u>قسنطينة أيام أحمد باي (1832–1837)</u>** لفندلين شلوصر (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1976، 119 ص.).

اقتصر أبو العيد دودو في ترجمته لمذكرات شلوصر على ما يهم الجزائر، و هذا ما سمح له بتحوير عنوان هذه المذكرات من رحلات في البرازيل و الجزائر أو مصائر فندلين شلوصر البومباجي إلى "قسنطينة أيام أحمد باي". فأعطى أبو العيد دودو من خلال ترجمته الدقيقة المعبرة صورة حية لمغامرات هذا الألماني الجريء الذي التحق بالجزائر للعمل بالفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي، و وقع في أسر المقاومين الجزائريين عندما غامر بالابتعاد عن قاعدته العسكرية، فأعطى وصفا لمدينة الجزائر و لحوش الحراش (برج الحراش) و لرحلته أسيرا من الجزائر إلى قسنطينة، فسجل ملاحظاته عن أوضاع مدينة قسنطينة المهددة بالغزو الفرنسي آنذاك و تعرض لحالة سكانها و عاداتهم و طريقة عيشهم و أسلوب حياتهم، و لم يفته أن يلاحظ مدى التباين في أسلوب الحياة وطريقة العيش بين سكان المدن و بدو الصحراء، كما لم يفته التعرض للهجوم الفرنسي على قسنطينة (1836) وما شاهده عند اقتحام الفرنسيين لها في 13 أكتوبر 1837، و ما صاحب ذلك من مقاومة باسلة للقسنطنيين في تصديهم للمهاجمين، و محاولتهم الوقوف في وجه المدافع الفتاكة. و قد وجد نفسه بعد استيلاء الفرنسيين على المدينة متحررا من أسره، فانكب على تسجيل مذكراته، و هذا ما جعلها بمثابة وثيقة تاريخية عن أوضاع الشرق الجزائري أثناء حكم الحاج أحمد باي.

6. **الأمير عبد القادر و العلاقات الفرنسية العربية** لـ أ. ف. دينيزن (طبع بالجزائر سنة 1999) (A. W. Dinesen, Abd-el-Kader und

die Verhättniss nördlich Afrika) (دار هومة، 1999، 133 ص.).

سجل فيه مؤلفه بلغته الاصلية الدنمركية مشاهداته أثناء عمله كضابط مدفعية بالجيش الفرنسي بالجزائر (1837–1838)، وعرف فيه بمشاركته في المعارك ضد الأمير عبد القادر. و أصبح في متناول القراء عندما نشر مترجما إلى الألمانية (1840). وقد أبدى فيه تحفظه على السياسة الفرنسية كما عبر عن اعجابه بشخصية الأمير عبد القادر و تقديره لروح المقاومة الوطنية التي كان يتزعمها ولعاطفة الدفاع عن الوطن. كل ذلك في إطار سرد تاريخي و عرض موضوعي و نظرة محايدة للأحداث التي عاشها و الوقائع التي حضرها، مما يجعل كتاب دينيزن رواية شاهد عيان و رأي مشارك في صنع الأحداث لا يمكن لأي باحث تجاوزها أو التقليل من أهميتها خاصة ما يتصل منها بجهاد الأمير عبد القادر.

7. **الأمير عبد القادر ليوهان بيرنت** (Johann Carl Berndt, Abdelkader oder drei jahre eines deutschen under den naur nebst) (ط. 2، الجزائر، دار هومة، 1997، 239 ص.).

وصف فيه بيرنت مشاهداته في الجزائر حيث قضى ثلاث سنوات بين العرب حسبما هو مسجل في العنوان الأصلي للكتاب الذي نشر بالألمانية عام 1840. و قد تضمن معلومات في غاية الأهمية، عرف أبو العيد دودو كيف يقدمها للقارئ العربي في أسلوب يجمع دقة الوصف، و سلاسة اللغة و حسن التعبير، و بذلك زود المكتبة التاريخية بإحدى المصادر الأساسية لملحمة الأمير عبد القادر في تصديه للفرنسيين،و في بناء مؤسسات دولته.

8. **الحمـار الـذهبي** للكاتـب الجزائـري لوكيـوس أبوليـوس (124 أو 125–180 م) (الجزائر، منشورات الاختلاف، أفريل 2001، 292 ص. و قدم للنشر لدار الجمل 12–6–1999).

أفرد لـه أبـو العيـد دودو مقدمـة ضـافية، عـرف فيهـا الأديـب الجزائـري الذي كان يفخر بانتمائه إلى موطنه مداوروش و بثقافته الكلاسيكية اللاتينية الإغريقية بحيث يحلو لـه أن ينعت نفسه بـ"المداوروشي الأفلاطوني"، و هذا مـا سـمح للقـارئ بـالاطلاع علـى سـيرة حيـاة أبوليـوس ومواقفـه و مغامراتـه وأسفاره من أجل الدراسـة وتنقلـه إلـى بـلاد اليونـان وآسيا الصـغرى لاسـتكمال ثقافتـه، و هـذا مـا جعـل منـه خطيبـا بليغـا برومـا و صـاحب مكانـة أدبيـة فـي إفريقيـا الرومانيـة، لكـن ضـياع ثروتـه دفعـه إلـى السـفر نحـو الشـرق، فتوقـف بأويا (طرابلس) عند أحد أصدقائه حيث تزوج الأرملـة الثريـة إيميليا أودانتيا (Emelia udentilla)، و أصبح من الأعيان و الأثرياء، مما أثار حفيظة حاسديه الذين اتهموه بممارسة السحر، فأبطل ادعاءهم بخطبه البليغة، قبل أن يستقر به المقام بقرطاج ليشتغل بالخطابة، و يصبح عضوا في المجلس الاستشاري للمدينـة، و يتوجـه إلـى التـأليف فـي المواضـيع الأدبيـة و الفلسـفية، قبل أن يوافيه أجله حوالي سنة 180 م.

يعتبر أبوليوس في طليعة الأدباء اللاتين بإفريقيا لما تركه من كتب في مسـائل أدبيـة و قضـايا فكريـة مثـل : الـدفاع (Apologia) والأزاهيـر (Floria) و عن الإله سقراط (De Deo Socrates) و عن أفلاطون (De Platone et eius dogmate) و عن العالم (De Mundo) و التحولات (Metamorphoseon) و هو أكثرها شهرة و ذيوعا.

عرفت التحولات بالحمار الذهبي (Asinus Aureus) عندما تناولها القديس أوغسطين في نقده لها بهذا الاسم، و اعتبرها نتاج ثقافة وثنية قائمة على منهاج الأسطورة الإغريقية المنسوبة للوكيوس اليونان،ي التي تحول فيها البطل بفعل السحر إلى حمار. و قد بدأ أبوليوس كتابه التحولات أو الحمار الذهبي عندما كان يشتغل بالمحاماة و يمارس تدريس البلاغة بروما، ثم استكمله بعدما تقدم به السن، فجاء عمله إسهاما أدبيا متميزا يتمثل في قصة شخصية البطل لوكيوس الذي مسخ حمارا بعد أن استبدت به الرغبة في ممارسة السحر مستعينا بعلاقة الحب التي كانت تربطه بالخادمة بامفيلا، و كان يأمل في محاكاته للطقوس السحرية أن يتحول إلى طائر، لكنه تحول لخطأ في الوصفة إلى حمار، لتبدأ معاناته الناتجة عن رغباته كانسان و طموحاته كشاب رقيق و بين واقع المسخ الذي أصبح يعيشه كحمار، و تأخذ القصة صفة الحكاية الطويلة عندما تتشعب بفعل تعدد مغامرات لوكيوس الحمار، تحكي انغماسه في حياة اللصوص والمشعوذين والسحرة، قبل أن يحالفه الحظ أخيرا و يعثر على الوصفة الصحيحة التي تنقذه من المسخ، و تعيده إلى شكل إنسان.

استطاع أبوليوس في قصته "الحمار الذهبي" أن يعالج قضايا المجتمع،و أن يعرض للمسائل الأخلاقية والنفسية من خلال محاكاة ساخرة لمظاهر السلوك الإنساني، فتجاوز بذلك المعاملات المظهرية للإنسان إلى دوافع السلوك الخفي البعيد عن المراقبة لأنها صادرة عن إنسان في مظهر حيوان، و قائمة على تداخل الجانب الواقعي في الحياة بالتصور الخيالي للأسطورة. و هذا ما يجعل من رواية "الحمار الذهبي" رحلة للبحث عن

الذات ومعانقة النفس ينتقل فيها القارئ من الخيال الأسطوري و التعبير الرمزي إلى حقيقة السلوكات الفردية التي تكشف عن الحقائق المعبرة عن العناصر الدرامية في السلوك الإنساني الخفي، فتجاوز بذلك أبوليوس في عمله هذا قصة لقيانوس السميساطي الإغريقي (125–185 ق.م.) إلى بناء جديد لأحداث الرواية التي تعتبر من الطقوس الشرقية المتبعة في عبادة إيزيس و ما كان يختلط بها من ديانة مزدكية، القائمة على فكرة إمكانية تحقيق القداسة في النهاية و تجاوز الخطيئة المرتكبة، و بذلك هيأ الفكر اللاتيني لتقبل دعوة المسيحية، رغم أن القديس أوغسطين أنكر عليه ذلك و اعتبره مجرد فيلسوف أفلاطوني، و راهب وثني.

لقد عرف أبو العيد دودو في ترجمته و تقديمه لرواية الحمار الذهبي لأبوليوس كيف يقدم للقارئ العربي هذا الإبداع الأدبي القديم في نصه الكامل، اعتمادا على النسخ الألمانية و الفرنسية المترجمة عن النص اللاتيني، وهذا ما يسمح لدارسي التاريخ و المهتمين بالأدب بالتعرف على القيم و الميول التي أثرت في التراث الكلاسيكي و تحكمت في ذاكرة عالم البحر المتوسط القديم.

9. **<u>اليوميات و المذكرات الشخصية</u>** : و هي تقاييد و ضعها أبو العيد دودو في شكل يوميات سجل فيها تعليقاته على الأحداث و انطباعاته عن الاشخاص، و استعرض فيها أمورا خاصة و ما يعانيه من هموم اجتماعية و قضايا أدبية و ثقافية، بدأها متقطعة سنة 1978، ثم واظب على تسجيلها ابتداء من عام 1992، فألزم نفسه يوميا بتسجيل ما يخطر له من آراء، وما يعرض له من أحداث و لقاءات و نشاطات. فجاءت حسبما أطلعني على

بعض أجزائها و ما قرأ علي من فقراتها تسجيلا حيا عن حياة الكاتب و تعبيرا صادقا عن نظرته لواقع مجتمعه و قضايا عصره، و متطلبات بيئته.

لا تزال مذكرات أبو العيد دودو حتى الآن مخطوطة موزعة على العديد من الكراسات، تحتل إحدى زوايا مكتبته الغنية بسكنه بحي ابن عكنون، تتصل الكراسات الخمس الأولى بحياة أبو العيد دودو في المهجر، بينما باقي الكراسات ترصد حياته و تسجيل انطباعاته لما شاهده أو عاشه أو تأثر به أثناء زياراته لبعض البلدان العربية و الأقطار الأجنبية. و هذا ما جعل الحجم الإجمالي لهذه اليوميات و المذكرات يتجاوز 2500 صفحة، موزعة على عشرة دفاتر كبيرة لم ينشر منها سوى دفتر واحد في عدة حلقات بمجلة المجاهد الأسبوعي (سنة 1990) بعنوان "كتابات مهمة"، و بعض التقاييد الخاصة في ست حلقات في مجلة الشروق الثقافي بعنوان "خفقات قلم"، بالإضافة إلى بعض الحلقات الأخرى في جريدة الحياة العربية (26-8-1993/28-10-1993) بعنوان "المحقق السري". هذا و يمكن أن تضاف إلى المذكرات الشخصية هذه ما كتبه أبو العيد دودو من انطباعات خاصة بعنوان "صور سلوكية" (صدرت في ثلاثة أجزاء)، و من "من أعماق الجزائر" (صدر عن دار الأمة، 1993)، و تعاليق أو ملاحظات خاصة بعنوان "ظواهر اجتماعية" (تحت الطبع).

***

كل هذه الأعمال التاريخية، التي أغنى بها الأستاذ الدكتور أبو العيد دودو الثقافة العربية و أتحف بها المكتبة الجزائرية، هيأت له مكانة خاصة بين العاملين على إحياء التراث و المساهمين في تطوير الدراسات التاريخية

بالجزائر، فرغم ارتباط أبو العيد دودو بالابداع الأدبي إلا أن الحضور التاريخي فيما كتبه أو حققه أو ترجمه أو قدم له يظل في نظرنا حجر الأساس في رصيده و عطائه الثقافي، و هذا ما يدفعنا في ختام هذا العرض إلى محاولة تحديد المواصفات الأساسية للجانب التاريخي في إسهام أبي العيد دودو، في الملاحظات التالية:

1. إن أبا العيد دودو بدأ مشواره الثقافي أديبا بعيدا عن قيود و ضوابط منهجية التاريخ ليجد نفسه في الأخير في حلبة المؤرخين المجددين الرافضين لقيود الإطار الزماني و المتجاوزين لأسلوب المعالجة الحرفية، فأعطى لكتاباته التاريخية محتوى يتجاوز العرض الزمني و الدلالات الوصفية، إلى طرح الإشكالية الأساسية في الفكر التاريخي المتمثلة في معالجة الوجود الإنساني المتأثر ببيئته، و المتفاعل مع مجتمعه و المعبر عن حاجات عصره.

2. لقد فتح أبو العيد دودو بما نقله من الألمانية بابا ظل مغلقا و مصدرا ظل مهملا، و هذا ما سمح للقارئ الجزائري أن يتجاوز – في قضايا مهمة تتعلق بتاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر – دائرة الثقافة الفرنسية المعبرة عن الواقع الاستعماري الفرنسي بالجزائر و الرجوع إلى إسهام جرماني ظل إلى تلك الفترة غير مرتبط بالمصالح الاستعمارية الضيقة، و في معزل عن الميول الفكرية المتحيزة التي تتجاهل الحقيقة و تجانب الموضوعية، من أجل أهداف توسعية، و مخططات استعمارية.

3. كان أبو العيد دودو من خلال انتاجه الأدبي و إسهامه التاريخي الصورة المعبرة عن المثقف الجزائري الأصيل، الذي جمع الجانب الأدبي

المعبر عن الأحداث بالجانب التاريخي المسجل لتلك الأحداث، فكان بحق في طليعة كوكبة من الكتاب جاد بهم رحم الجزائر المستقلة، فرضوا أنفسهم على الساحة الجزائرية و العربية بما يملكون من أسلوب عربي راق، و ما تفاعلوا معه من كنوز التراث الإنساني، و عملوا على نشر ثقافة الوعي التاريخي والإبداع الأدبي، في الأجيال الجامعية الناشئة.

4. إن أبو العيد دودو فيما أسهم به من كتابات تتعلق بالجانب التاريخي لم يقفع عند النص المترجم بل تعداه إلى الإبداع الأدبي و العرض التاريخي، مما يجعل ترجماته بمثابة كتابات جديدة لا أخال أي قارئ لها يظل بعيدا عن التأثر بها، و تذوقها، سواء من جانب اللغة و الأسلوب أم طريقة العرض و التناول و المعالجة.

5. إن الجانب التاريخي ظل حاضرا في كل أعمال أبي العيد دودو بمختلف أصنافها و تعدد أنواعها، سواء بطريقة ضمنية أم مباشرة، فالجدلية التاريخية القائمة على البعد الزمني و الوضع الاجتماعي و الشعور الإنساني هي التي تحدد ملامح الصورة التاريخية في كتابات أبي العيد دودو. مما يجعل التاريخ بحق أحد روافد الإبداع الأدبي الذي يبث في الأحداث شحنة من الحيوية، تجعل التاريخ حدثا إنسانيا، و تجربة بشرية، وليس مجرد ذكريات مضت و أحداث انقضت.

6. إن أبا العيد دودو فيما عرض من مواضيع لها بعد تاريخي، لم يتوقف عند الحدث في حد ذاته، بل تعداه إلى أثره و مكانته في حياة المجتمع، فتجاوز بذلك عقلية الباحث المشدود إلى الفعل المنعزل إلى نظرة المؤرخ التي تتجاوز الأحداث المتفرقة، و المواقف الآنية، إلى تشكيل صورة

حية للماضي، و هذا ما جعل كتابات أبو العيد دودو تجمع صدق العاطفة، و خفة النفس، و طرافة الموضوع، إلى دقة الوصف، و موضوعية العرض،و عمق التحليل.

7. كانت مساهمة أبو العيد دودو في محتواها التاريخي كما كانت في مظهرها الأدبي صورة لواقع مجتمعه وعرضا لحالة بلده، ورصدا للتطورات الخطيرة التي عرفتها الجزائر في النصف الثاني من القرن العشرين. و ما كان له ذلك لولا نظرة المؤرخ و شعور الأديب، فقد هزته شعارات وآمال الثورة الجزائرية، و خدعه سراب مشاريع الاستقلال التي أعمت العيون عن مخاطر المستقبل، كما أشعره بالإحباط و النكسة واقع الجزائر المستقلة المعادي لكل إبداع أو تجديد، يتجاوز مخططات الإدارة وإرادة الحاكمين، فلم يجد ملجأ يقيه من الاحباطات التي يعيشها سوى الانكباب على الكتابة، و الاهتمام بكل ما يعبر عن حياة الشعب الجزائري عله يجد فيها ما يعيده إلى الماضي و ينسيه واقع الحياة الصعبة.

***

كل هذه المواصفات تؤكد لنا أن أبو العيد دودو هو بحق نتاج لبيئته، و حصيلة لتفاعل مجتمعه، و اللسان المعبر عن ظروف عصره، و هذا ما يجعل منه مؤرخا أصيلا في معالجته للأحداث،و أديبا مبدعا في تحليله للظواهر الاجتماعية و القضايا الأدبية، يتجاوز حدود وسطه و إحباطات واقعه إلى الآفاق الواسعة و الفضاءات الفسيحة للثقافتين الشرقية العربية و الغربية الجرمانية.

النقد الأسطوري والأدب العربي الحديث

د. عبد المجيد حنون

جامعة عنابة

1 – مقدمة:

ارتبط تطور النقد الأدبي عند العرب بتطور الأدب الإبداعي العربي وتفاعلاته الداخلية والخارجية أدبية كانت أو فكرية، شكلا أو مضمونا. وعرف نتيجة لذلك – أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين– تطورا ساير التغير الذي طرأ على طبيعة الأدب الإبداعي العربي، فانتقل من المنظورين النقديين الذوقي والمعياري إلى المنظور السياقي، متفتحا بذلك على مناهج نقدية أوروبية، كان أولها المنهج التاريخي الذي ساد الساحة النقدية العربية تحقيقا وتأريخا وبحثا سياقيا، طيلة النصف الأول من القرن العشرين تقريبا،[1] ثم زاحمته مناهج نقدية عديدة تفرع عنه البعض منها، ونشأ البعض الآخر من معارف ومنطلقات فلسفية أخرى، شأن النقد النفسي والاجتماعي والماركسي والوجودي واللساني والبنيوي والسيميائي... الخ بتفرعاتها ومدارسها. وهكذا أصبح النقد الأدبي عند العرب طيلة النصف الثاني من القرن العشرين فسيفساء من المنطلقات والأدوات النقدية التي

يتماشى البعض منها مع تغير طبيعة العربي نفسه من جهة، ومع المتغيرات الأدبية والذوقية العالمية التي كانت الأصل لتلك المنطلقات والأدوات من جهة أخرى، الأمر الذي جعل الأدب العربي عرضة لمناهج نقدية لم تصدر عنه، ولم يراع واضعوها خصوصيات الأدب العربي في الحسبان، غير أن تفاعل الأدب العربي، حديثا، مع العديد من الآداب العالمية، والتغير الذي طرأ على طبيعته وجماليا ته سمح لمختلف المناهج النقدية بالكشف عن الكثير من جوانبه وخباياه، وبقيت جوانب أخرى لم تحظ بالكشف التام أو المناسب، منها ما يتعلق بخصوصية الذوق العربي ،على الدارسين العرب أن يكشفوا عن منطلقاتها المختلفة، وأن يقننوها لتكون أداة نقدية يتعاملون بها مع خصوصية الأدب العربي، ومنها ما يتعلق بوسائل إبداعية وتقنيات عرفها الأدب العربي الحديث اقتداء بغيره من الآداب أو مسايرة لروح العصر وللتطور العقلي والمعرفي، لم تسلط عليها بعد المناهج النقدية الملائمة لدراستها مثل النقد الأسطوري "**Mythocritique**" الذي يعد توجها في دراسة الأدب وتحليله جديدا، والذي يقوم على الغوص وراء العناصر الأسطورية التي تقوم عليها أو تتضمنها النصوص الأدبية الإبداعية، والتعمق في تحليلها والكشف عن دورها في بناء النص بغية تسليط نظرة أخرى على النصوص المدروسة.

2 – الأسطورة والأدب:

ترجع صلة الأدب بالأسطورة إلى أقدم العصور لاشتراكهما من جهة في المادة التبليغية، أي الكلمة، حتى وإن اختلفت طبيعتها بينهما، ثم صدورهما عن مصدر واحد من جهة أخرى، أي المتخيل، حتى وإن اختلفت طبيعته بينهما أيضا، إلا أن تلك الاختلافات قد تكون أوضح عند العلماء والدارسين المحدثين منها عند منتجي الأسطورة والأدب القدامى، بدليل أن المصطلح الدال على إنتاج الأسطورة وتداولها ودراستها يقوم على الجمع ما بين الكلمتين الإغريقيتين (ميثوس Mythos)، الدالة على الخرافة والإثارة والعاطفة، و(لوغوس Logos) الدالة على العقل والحكمة، ومن ثم جاء مصطلح الأسطوريات (Mythologie) جامعا ما بين الكلمة العقلية والكلمة المثيرة ، وصادرا عن "الخيال" الباحث عن جواب عقلي لسؤال لم يجب عنه العلم ولا التجربة و"الخيال" الهائم وراء انفعالات أو تصورات أو أوهام. وهكذا اختلط الأدب بالأسطورة منذ أقدم العصور عند مختلف الأمم والشعوب، حتى ظن عرب الجاهلية عندما سمعوا آيات من القرآن الكريم أنها مجرد أساطير، **((وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين))** [2] صدق الله العظيم. لأنهم كانوا مثل غيرهم من الأمم متعودين على إنتاج الأساطير وتداولها، فلما سمعوا آيات القرآن الكريم تشابه عليهم الأمر لتشابه المادة والمصدر حسب اعتقادهم. وعليه، فإن صلة الأدب بالأسطورة وثيقة منذ أقدم العصور، وعند مختلف الأمم. وفي العصور الحديثة أصبحت الأسطورة عند الأدباء معينا لا ينضب، يوظفون منها عناصر في إبداعاتهم الأدبية وفق قناعا تهم الإيديولوجية والفنية من جهة، ووفق متطلبات مجتمعاتهم من جهة أخرى، الأمر الذي جعل المقارنين يعدونها عنصرا أجنبيا- بحكم الحد الزمني أو

اللغوي أو الثقافي– في الأثر الأدبي ويولون الأسطورة أو العنصر الأسطوري في النص الأدبي عناية خاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر، ضمن اهتمام المدرسة الألمانية بالموضوعات والنماذج والموتيفات الأدبية، لتحذو حذوها المدرسة الفرنسية منذ القرن العشرين[3].

ولم يشذ الأدب العربي عن غيره من الآداب،– وبخاصة الحديث منه– في توظيف عناصر أسطورية ضمن البناء الأدبي الإبداعي نتيجة انفتاح العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على الآداب الأوروبية، ثم على الأدب العالمي برمته بعد ذلك، فتعرفوا نتيجة لذلك على كثير من الأساطير العالمية. واطلع الكثير من الأدباء العرب المحدثين درسوا في جامعات غير عربية على أساطير شائعة في تراث تلك البلدان. وساعدت وسائل الاتصال والإعلام الحديثة على التعرف على أساطير من مختلف أنحاء العالم، الأمر الذي جعل الأسطورة تغزو العربي في بيته، وتصبح عنصرا ثقافيا عند الكثير، مما جعل الكثير من الأدباء العرب يقتدون بغيرهم من الأدباء، ويتجرأون على الأسطورة (إغريقية، أو رومانية، أو فينيقية، أو سامية، أو فرعونية، أو بربرية، أو عربية، أو إسلامية ...الخ) فيوظفونها أو يوظفون عناصر منها في العملية الإبداعية، لتصبح الأسطورة بذلك عنصرا تكوينيا في الأدب العربي الحديث[4].

أصبحت الأسطورة إذن مكونا أدبيا في مختلف الآداب أثارت اهتمام المقارنين –بادئ الأمر– فعدوها مؤثرا أدبيا أجنبيا له دوره في العملية الأدبية أسهمت في نشأته وبلورته وتداوله وتطوره أمم متعددة عبر محوري التزامن أو التعاقب. كما أثارت الأسطورة، باعتبارها ظاهرة اجتماعية،

والأسطورة الأدبية باعتبارها ظاهرة فنية إبداعية اهتمام فلاسفة ومفكرين وعلماء، وكانت نتيجة كل ذلك مقاربة في التعامل مع الأدب تعرف الآن بالنقد الأسطوري.

3 - في النقد الأسطوري:

ترجع نشأة النقد الأسطوري(**Mythrocritique**) إلى علماء وفلاسفة ومفكرين ونقاد، بحثوا في "المتخيل" وصلته بالأحلام والأساطير والإبداع بعد الدراسات العلمية العميقة التي أولاها علماء الأنثروبولوجيا للأسطورة، باعتبارها إجابة تقوم على تصورات يقينية جماعية عن تساؤل أو تساؤلات لا يستطيع العلم المتعارف عليه، ولا التجربة أن يجيبا عنها.

وقد يكون العالم النفساني كارل يونغ "C.G.jung" أبرز من مهد السبيل لهذه النشأة، بدراساته وأبحاثه حول الأحلام والأساطير والمتخيل الجمعي، وصلة كل ذلك بالإبداع[5] . وعمق البحث في صاحب النظرية الثلاثية في الكلام: (إنتاج الكلام، الفعل الشعري، والتأويل) [6] التي تصدق على الأسطورة وعلى الأدب أيضا، والكندي "نورثروب فري N . Fry"[7] الذي درس الأسطورة من حيث قيامها على نماذج موضوعاتية مجردة تتشابه مع الأدب في الأسس البنائية، ثم أرسى الفيلسوف الفرنسي " جيلبير دوران G . Durand" دعائم المنهج الفكرية خلال الستينيات من هذا القرن انطلاقا من بحوثه ودراساته وندواته حول المتخيل وأبنيته الأنثرولوجية [8]. وترسخ مصطلح " النقد الأسطوري" Mythocritique بعد ذلك في أعمال أعلام مدرسة الأدب المقارن الفرنسية الذين طبقوا النقد الأسطوري في دراساتهم الأدبية بصفة عامة، وفي رصد الأساطير الأدبية ودراستها على

وجه الخصوص، انطلاقا من قناعتهم بأن الأسطورة كانت ومازالت عنصرا تكوينيا له دور معتبر في تشكيل النص الأدبي وشحنه بدلالات وإيحاءات عميقة وراسخة في الوجدان الإنساني، الأمر الذي يحتم مراعاة ذلك في العملية النقدية. [9] فالنص الأدبي الواحد يقوم أحيانا على تراث ممتد عبر آلاف السنين، وانطلاقا من هذا الدور الذي يقوم به العنصر الأسطوري في بنية الأثر الأدبي الدلالية والجمالية بدأ نقاد عرب يشيرون إلى أهمية المقاربة الأسطورية في العملية النقدية وافضل مثال على ذلك مجلة فصول في عددها الثالث من المجلد الأول الصادر سنة 1981م الذي تضمن عددا من المقالات والدراسات المتعلقة بالنقد الأسطوري وإيجابياته في دراسة الأدب العربي ونقده. [(10)] ولدراسة الأدب ونقده نقدا أسطوريا يقترح " بيير برونيل P . Brunel " – مقتديا في ذلك بنظرية "يولس"– شبكة من العناصر يقوم عليها النقد الأسطوري لدراسة النص الأدبي، من خلال العنصر الأسطوري ودوره في تشكيل الأثر الأدبي. [10]

وتنحصر عناصر الشبكة النقدية المقترحة في ثلاثة عناصر رئيسية يقوم عليها النقد الأسطوري هي: التجلي والمطاوعة والإشعاع.

أ – التجلي EMERGENCE

والمقصود به عملية ظهور الأعراض الأسطورية وانبعاثها في النص الأدبي الإبداعي، والكشف عنها وإبرازها من خلال البنية السطحية، حيث تظهر الأعراض الأسطورية من خلال تقنيات، البعض منها عام مشترك بين مجمل الآداب، والبعض الآخر خاص قد يوجد في أدب معين ولا يوجد في

غيره تماشيا مع خصوصية الأدب نفسه، وعادة ما تتمثل تقنيات تجلي الأعراض الأسطورية في الأدب العربي –العامة منها والخاصة– من خلال:

1- العبارة الاستهلالية : التي تزين صدر النص وتنبئ عن توجهه وتمنحه هامشا قرائيا وظلا دلاليا يوحي للدارس أو الناقد بما يرمي النص إلى قوله رغم أنه لا يقوله.

2- العنوان: يمثل الواجهة الدالة على محتوى النص، أو بوابته المركزية، أو اللافتة الاشهارية – حسب لغة الإعلام– الدالة على الشيء.

3- **اللازمة:** التي تتكرر في النص بوتيرة معينة وكأنها فعل ثابت لا يمكن الاستغناء عنه أو تجاوزه، لأن ذلك يهد البنيان الفني، فيصبح المحمول الأسطوري –نتيجة لذلك– حجر زاوية في بناء النص.

4- **الاقتباس والتضمين:** بمعناهما الدلالي المعجمي، كاقتباس بيت شعر أو شطر منه أو جملة أو عبارة أو اسم من نص أسطوري وتضمين ذلك في بنية النص الأدبي الجديد، فيتم التجلي حينئذ.

5-التناص: حيث يعمد المبدع إلى بناء نص من خلال توظيفه لنصوص أخرى والجمع فيما بينها لإنتاج نص جديد، وكثيرا ما يلجأ المبدع إلى نصوص تراثية ذات أبعاد أسطورية، فتكون تقنية التناص وسيلة من وسائل تجلي العنصر الأسطوري، في الأثر الأدبي[11].

6- **الصور البلاغية:** وهي التقنية الأكثر شيوعا. فعادة ما تتجلى العناصر الأسطورية في الأدب العربي الحديث من خلال التشبيه بمختلف أنواعه أو الاستعارة أو الكناية...إلخ تماشيا مع طبيعة الأدب العربي

الإنشائية الغنائية من جهة ومع طبيعة النظام البلاغي وطبيعته الرمزية التي تلتقي مع طبيعة الأسطورة الرمزية من جهة أخرى أيضا.

7-**الخلفية الأسطورية:** قد لا يعمد المبدع إلى توظيف عنصر أسطوري صريح، وإنما يعمد إلى الارتكاز في عملية الإبداع على خلفية أسطورية معينة، محدثا تقاربا أو تشابها بين أحداثه وشخصياته أو صوره المعبرة عن قضايا معاصرة أو تبدو واقعية وبين أحداث أو شخصيات أو صور تتعلق بأسطورة معينة، وبذلك يظهر النص الأدبي ببعدين أحدهما فني إبداعي مباشر والآخر غير مباشر يمثل الخلفية الأسطورية.

8-**البناء الفني (الشبيه ببناء نص أسطوري):** وهو قريب شيئا ما من التقنية السابقة، حيث يعمد المبدع إلى تبني بناء فني معين لأسطورة أو نص أسطوري لبناء نصه الإبداعي حتى لو تعلق النص الإبداعي بقضايا لا صلة لها بالأسطورة أو النص الأسطوري المعتمد على بنيتيهما، وبذلك يحدث التجلي بوساطة اعتماد المبدع في عملية الإبداع على بناء فني مستمد من بنية أسطورية أو شبيه بها ويحدث بذلك تداخل بين الظلال الدلالية كما هو الشأن في الكثير من النصوص السردية[12].

ومهما كان صنف التجلي ووسيلته، فإنه عادة ما يكون:

1-تجليا صريحا أو تاما، وعادة ما يكون في العنوان أو اللازمة أو التضمين والاقتباس حيث تكون الإشارة إلى الأسطورة أو العنصر الأسطوري واضحة بواسطة التسمية أو الصفة...إلخ

2-تجليا جزئيا، ويرد عن طريق الإشارة إلى جزئية أو صفة من صفات العنصر الأسطوري ليكون الجزء دالا على الكل، وعادة ما يرد في

الصور البلاغية لأنه يتلاءم اكثر مع طبيعة التقنيات البلاغية والمزاوجة بين رمزية الأسطورة، ورمزية التقنية البلاغية.

3-تجليا مبهما أو مضمرا وهو الأكثر شيوعا في الإبداع الأدبي من سابقيه نجده في معظم أصناف التجلي، وفي الصور البلاغية على وجه الخصوص لأن ضبابية العنصر الأسطوري الموظف تمنح المبدع أبعادا إيحائية أوسع وتمنح القارئ مساحات دلالية قرائية أوسع، الأمر الذي جعل الأدباء العرب المعاصرين يميلون أكثر إلى التجلي المبهم أو المضمر، بعدما كان السابقون أميل إلى التوظيف الجزئي، في حين كان الرواد أمثال أحمد شوقي والعقاد أميل إلى التجلي الصريح التام. وبالتالي تدرجت ظاهرة "التجلي" في الأدب العربي الحديث عبر هذه المستويات تماشيا مع التطور الفكري المتعلق بالأسطوريات [13] وأبعادها الدلالية من جهة ومع تطور الذوق الفني العربي المعاصر من جهة أخرى.

وتجمع قصيدة عبد الوهاب البياتي " شيء من ألف ليلة وليلة[14] على سبيل المثال عددا من التجليات الأسطورية بأصنافها المختلفة وبمستويات التجلي الثلاثة، لا تقل عن عشرة تجليات.

يحيل عنوان القصيدة إحالة غير مباشرة أو جزئية على أسطورة شهرزاد الأدبية، فقد غامرت شهرزاد بنفسها وواجهت ظلم السلطان المطلق وجهله، بسلاح المعرفة المتمثل في الحكاية التي تنجي من الموت فداء لبنات جنسها وبالتالي للبشرية جمعاء .واقتداء بشهرزاد يدخل الشاعر – على لسان الراوي– في مغامرة شعرية معلنا منذ العنوان أن ما سيحدث شيء شبيه بما حدث في ألف ليلة وليلة، وبذلك تبدأ عناصر أسطورية في التجلي مثل

الجواد المجنح [15] الذي يطير عليه كل ليلة في مغامرة شعرية حاملا خلالها النار والرماد إلى جبل الخرافة مشيرا بذلك إلى أسطورة بروميثيوس وتحديه لقوى الطغيان وأسطورة طائر الفينيق وانبعاثه من وسط الرماد وجبل الربات والآلهة الإغريقي(Helicon)، إلى أن يصل في مغامرته الشعرية إلى أسوار بابل العالية ليبحث فيها عن زهرة الخلود الزرقاء، ويبقى سائحا إلى أن يبزغ الصباح فتتوقف المغامرة مثلما توقفت شهرزاد عن مغامرتها كلما أدركها الصباح، وبذلك تتجلى أسطورة شهرزاد تجليا تاما:

"أطير كل ليلة على جوادي الأسود المجنح المسحور

أحمل ناري ورمادي نحو سفح جبل الخرافة

أمد سلما من الأصوات

أرقى به لبابل

ويدرك الصباح شهرزاد"

وفي المقطع الثاني من القصيدة يواصل الشاعر أو الراوي مغامرته، فتتجلى، حينئذ، أسطورة يهودا الأسخريوطي (خائن المسيح) تجليا جزئيا، مقترنة بأسطورة شهريار التي تجلت بدورها تجليا جزئيا لتمتزجا في عملية مطاوعة عبر محوري التعاقب والتزامن وعملية إشعاع لا حد لها عبر المحورين:

((رأيت خائن المسيح في بلاط الملك السعيد))

وفي المقطع الثالث والأخير من القصيدة تتجلى عناصر أسطورية أخرى أمام عيني الشاعر المغامر، فها هو يكتشف أمام البيت القارة الجديدة

أو ارض الهناء أو الفردوس الذي يرسو على شطآنه مركب سندباد المغامر المحمل بالنبوءات وبالوعود، غير أن المغني صاحب العود السحري (أورفيوس) كان صامتا لا يغني ولا يعزف، ومن ثم كان كل شيء متوقفا، الأمر الذي جعل الشاعر يرغب في الارتقاء إلى مدينة "إرم ذات العماد" بسلم من " الأصوات"، جامعا بذلك بين عدة أساطير، وعندما يكتشف المدينة الحلم أو الأمل يفشل في دخولها تحت وطأة الموروثات البالية، ولا يجد حلا آخرا سوى انتظار عودة "الغائب" أو "المهدي" أو "المنقذ"، ولا يفيق من ذلك الانتظار إلا عندما يدركه الصباح مثلما أدرك قبله شهرزاد وبذلك تنتهي المغامرة بنجاة شهرزاد الحكيمة من طغيان الظلم، وبموت الراوية بمجرد السقوط من السرير، لأنه كان مقرورا من طول الانتظار:

" القارة الجديدة

كان على شطآنها مركب سندباد

كان المغني صامتا والعود

في يده مشدود

أمد سلما من الأصوات

لإرم العماد

....

أنتظر "الغائب" من دمشق

أدرك الصباح شهرزاد

تجلت في القصيدة عناصر أسطورية كثيرة ذات أصول ومصادر متنوعة منها الإغريقي: (الجواد المجنح، وحامل النار، وجبل الخرافة، القارة الجديدة، أورفيوس، المغني)، ومنها الشرقي هندية أو بابلية أو عبرانية أو إسلامية: (شهرزاد، وشهريار، وطائر الفينيق ، وبابل، ويهودا الإسخريوطي، والسندباد، وإرم ذات العماد، والمهدي)، ومنها الإنساني التي تداولتها البشرية جمعاء، مثل زهرة الأوركيد، الأمر الذي سيمكنه من إحداث مطاوعة واسعة جدا في العناصر الأسطورية، تمنح ظلالا دلالية للنص وتسمح بفضاءات وهوامش قرائية واسعة جدا.

عمد الشاعر في توظيفاته إلى مختلف التقنيات، حيث بنى النص وفق خلفية سردية تتماشى وحكايات ألف ليلة وليلة وعززه باللازمة المتكررة "وأدرك الصباح شهرزاد" رابطا بين مغامرة الراوي ومغامرة شهرزاد وما ينتج عن المغامرتين، وألبس بناءه الفني لبوسا أسطوريا حيث تقمص الراوي أدوارا أسطورية متعددة، فهو شهرزاد الثائرة المغامرة، وبروميثيوس الثائر، وعلاء الدين الباحث عن المعرفة، وكلكامش الباحث عن الخلود...إلخ، واعتمد في ذلك أساسا على التقنية الأكثر تلاؤما مع طبيعة بناء النص الشعري، وبذلك جمع بين تقنيات التجلي المختلفة وأصنافه وبين درجات التجلي ومستوياته في توظيف عناصر أسطورية متعددة ومتنوعة، الأمر الذي أتاح له مطاوعة واسعة جدا على امتداد مساحة النص كله كما سيتضح لاحقا.

ب – المطاوعة "Flexibilité"

مفهوم فيزيائي، يطلق في النقد الأسطوري على مجرد تصور ذهني للمسافة الدلالية أو البعد الدلالي القائم ما بين الثابت والمتحوّل في دلالة

العنصر الأسطوري الموظّف ورمزيته، انطلاقا من طبيعة الكلمة ومطاوعتها في الأساس، ثمّ من طبيعة قلة الثبات في التصور بعد ذلك، وتتجلى المطاوعة في الإبداعات الأدبية من خلال أعراض ومظاهر عديدة يحدثها المبدع في العنصر الأسطوري الموظّف الذي لا يحافظ على ثباته التام ويفقد جوهر رمزيته حتّى لو طرأ عليها تقلص أو امتداد أو تناقض، ونستطيع أن نحصر أنواع المطاوعة الأكثر شيوعا في:

1 – التماثل والتشابه :

حيث يعمد المبدع إلى إبراز أوجه تماثل أو تشابه بين العنصر الأسطوري والعنصر الأدبي الإبداعي: (كالشخصية أو الموقف أو الحدث أو الحالة ... الخ) بواسطة المقارنة أو التصوير البلاغي، فيكتسب الوضع الأدبي أو الحدث مشروعية أو جمالية الوضع الأسطوري أو الحدث الأسطوري المحمل بإيحاءاته الرمزية التي لا تخبو مهما كانت المسافة بعيدة عن زمن القداسة والإيمان.

2 – التشوهات والتغيرات :

يعمد فيها المبدع إلى إحداث فروق بين العنصر الأسطوري الموظف والعنصر الأدبي الذي يرتبط به بواسطة الزيادة أو النقصان أو المفاضلة أو المبادلة في القيام بالأدوار والتناقض بينهما.. إلخ ، فيحدث مسافة بين العنصرين . تمتد من النقيض إلى النقيض بين العنصرين فيكون أحدهما مركز الخط ، ويكون الثاني طرفه من جهة أو من أخرى، أو يقع على مسافة ما من المركز ، لتكون المسافة القائمة ما بينهما مسافة دلالية، ولدتها المطاوعة التي أدخلها الأديب المبدع

على العنصر الأسطوري الموظّف بواسطة التشوهات الحاصلة في العنصر الأسطوري.

3 – الغموض وتعدد الرؤية :

يعمد فيها الأديب المبدع إلى تغليف العنصر الأسطوري بهالة من الغموض تنسجم مع غموض العنصر الأدبي الذي يرتبط به في النص، الأمر الذي يفتح باب القراءة والتأويل على احتمالات متعددة ، نتيجة انسجام المركب الأسطوري الأدبي الإبداعي مع أفق انتظار قراء عديدين ومختلفين من جهة، واحتواء محموله الدلالي على عديد من الاحتمالات من جهة ثانية.

والواقع أن مطاوعة العنصر الأسطوري في النص الأدبي لا تتعدى: التقلص أو الامتداد ، والتماثل أو التناقض في الشحنة الدلالية، وإذا ما عدنا إلى قصيدة البياتي السابقة الذكر ، نجد عناصرها الأسطورية تتمتع بمختلف أنواع المطاوعة، موزعة بين مستويات المطاوعة الأربعة :

ينطلق الشاعر (الراوي) كل ليلة في مغامرة خيالية إلى عوالم مجهولة لا يعرفها المستمع أو المتلقي الذي ينتظر في بابها المهجور ، فتتسع الرحلة لعوالم لا حدود لها ، ويسعى الشاعر خلالها إلى تغيير واقعه المتعفن ، فيحمل نار التحدي ورماد البعث والانبعاث إلى جبل ربات الشعر بغية السمو، والارتقاء والتغلب على آفة الانتظار والمرض ، فيحمل من أجل ذلك مصباح علاء الدين، علّه يحقق له أمانيه، ويسعى إلى الارتقاء إلى مدينة بابل ، فيمد إليها سلما من الأصوات التي قد تكون صلوات ، وقد تكون هتافات بدلا من السلم المادي الذي بناه أهلها كما تقول الأسطورة ، وبدلا

من العثور على زهرة الخلود أو الكلمات الربانية المبشرة ، يصطدم الشاعر بالواقع المتعفن حتى في المدينة الخيالية ، فيسقط من فوق الجواد المجنح الذي اصبح جواد موت . ويتم السقوط من السرير في البيت، وبذلك لا تتعدى الرحلة في الواقع جمجمة الشاعر، لتكون مجرد تناقض بين أفعاله وأمانيه وأحلامه من جهة، وأفعال العناصر الأسطورية الموظّفة أو دلالاتها من جهة ثانية ؛ فالرحلة كلها أحلام على السرير، ورغبات التحدي والتغيير أماني ؛ والنتيجة بطبيعة الحال لا جديد ؛ وبذلك تتكرر الأخبار نفسها في الجريدة ، ويسكت المذياع مثلما سكتت شهرزاد عندما أدركها الصباح.

وأثناء المغامرة يرى الشاعر في بلاط الملك السعيد، أي عند السلطة، يهودا الإسخريوطي فلا يذكره اسما، وإنّما يذكره صفة "خائن المسيح"، ليتجاوز به بعدي الزمان والمكان ، ويصبح ربيب التسلط والطغيان ، رآه رأس كلّ المصائب ، فهو منجم ، والمنجمون كاذبون ولو صدقوا ، ومخبر وكاتب ومهرج وحسود ومزور ومنافق وشاهد زور لا يتوانى عن الأفعال الدنيئة ولا يرتدع.

"رأيت خائن المسيح في بلاط الملك السعيد

منجما ومخبرا وكاتبا

وراقصا على الحبال لاعبا

يخرج من معطفه الأرانبا

ويركب الحمار بالمقلوب

....

يلفق البكاره

للبغاء المومس الشمطاء

رايته شاهد زور في عصور الموت والجليد

يقول : "أحسنت " ويستعيد

للملك السعيد

يخاف منه قائد الجند ويستشيره الوزير

....

يلعق نعل الملك الجديد

طردته فعاد"

يبحث الشاعر عن مهرب من هذا الوضع المتعفن ، فيجده في القارة الجديدة أو الأرض البكر التي ترمز إليها أساطير مختلفة بأرض الهناء أو الفردوس أو أرض النعيم[16] الموجودة في آخر الدنيا أو أمام البيت غير أن الوصول إليها صعب جدا يتطلب مغامرات قد تفوق مغامرات سندباد أهوالا ، غير أنّ الشاعر كان مثل عادته ينتظر المد ليحمله ، ويريد أن يصعد إلى إرم العماد بسلم من الأصوات بدلا من سلم فعلي ، الأمر الذي جعله ينام ألفا من السنين أو تزيد مثل أهل الكهف تحت سور المدينة المتكون من ركام الورق الميت ، وقلة النشاط والحيوية منتظرا البطل المنقذ أو المهدي الذي نحمله فعل ما كان ينبغي أن نفعل ، وتكون النتيجة أن استيقظ المغامر من أوهامه دون أن يغير في الوضع شيئا :

وعندما استيقظت تحت السور

سقطت من فوق سريري ميتا مقرور

وأدرك الصباح شهرزاد

وتنتهي المغامرة بظهور الصباح ، فيسكت الشاعر عن الكلام المباح مثلما سكتت شهرزاد التي أنقذت نفسها وبنات جنسها جميعا بالتصدي للسلطان الجائر ومجابهته بالوسيلة المناسبة ، في حين لم يحقق الشاعر شيئا ، ولم يغير قلامة ظفر من الوضع المتعفن، لأنّ سلاحه الأساس كان مجرد انتظار وأصوات ورقاد.

وظّف الشاعر عناصر أسطورية عديدة، توحي بالمغامرة والثورة والرغبة في التغيير مثل المغامرة كل ليلة على الجواد المجنح الذي يوصل راكبه إلى مبتغاه في لمح البصر، وحمل نار الثورة مثل الإله الأسطوري الإغريقي " برومثيوس"الذي ثار على النظام الألوهي الأسطوري؛ وحمل رماد البعث مثل طائر الفينيق الأسطوري ،والارتقاء إلى بابل العالية مثل أهاليها الذين حاولوا مجابهة القوة الإلهية بسلمهم الأسطوري ، أو الارتقاء إلى مدينة "إرم العماد" التي لم يوجد مثلها في البلاد .. إلخ وأخضع كل تلك العناصر الأسطورية إلى مطاوعة بعيدة المدى ، حيث جاءت الأفعال والعناصر الأدبية المرتبطة بها مناقضة لها فهي لا تتعدى الحلم والانتظار، الأمر الذي جعل تلك العناصر الأسطورية وبدائلها الإبداعية تمنح المتلقي دلالات وإيحاءات تتناقض مع الثورة و المغامرة البناءة والرغبة في التغيير. وعزز هذه الإيحاءات والأبعاد الدلالية الجديدة لتلك العناصر الأسطورية، توظيف الشاعر لعناصر أسطورية أخرى توحي بالضعف والخوف والفشل والركون ؛ أخضعها لمطاوعة تقوم على التشابه و التماثل، فهو حزين حزن الرجال

الجوف في أعيادهم، يرى "خائن المسيح" يصول ويجول بأفعاله الشنيعة في البلاط عبر الزمان فلا يستطيع له ردا أو ردعا؛ وبذلك يبقى –مثل غيره من المنتظرين– ينتظر "الغائب" أو البطل المنقذ لتخليصه:

يأتي على جواده تحت حراب البرق

مكتسحا ركام هذا القبر

ومشعلا نيرانه في القفر

ولا ينتهي الانتظار إلا بالسقوط من فوق السرير ميتا مقروره لتنتهي بذلك المغامرة الليلية، فتضيف هذه البدائل الأدبية بدلالاتها وإيحاءاتها السلبية إلى البدائل الأولى قتامة في المنظور الشعري قد يبعث على التشاؤم،و الفشل والموت، مثلما حدث للراوي عندما أدركه الصباح وسقط من فوق السرير ميتا مقرورا، وقد يبعث على الثورة على ذلك الوضع المتعفن، مثلما فعلت شهرزاد التي أدركها الصباح فسكتت عن الكلام المباح، بعدما كانت تحقق لنفسها كل ليلة خطوة في سبيل التغيير كانت نهايتها النجاة من الظلم والطغيان.

أخضع الشاعر العناصر الأسطورية الموظفة إلى مختلف أنواع المطاوعة، بدءا بالتناقض الذي يمنح النص أبعادا وظلالا دلالية واسعة، فالتشابه أو التماثل الذي يمنح البديل الأدبي إيحاءات لا تقل عن إيحاءات العنصر الأسطوري سلبا أو إيجابا، وأخيرا الغموض الذي يحيط بعناصر أسطورية موظفة جعلها قابلة لقراءات متعددة مثل "القارة الجديدة" أو "إرم ذات العماد"، وبذلك كونت العناصر الأسطورية الموظفة في القصيدة شبكة دلالية متنوعة تنوع مطاوعتها.

ح – الإشعاع Irradiation:

قد يرى البعض العناصر الأسطورية الموظفة في نص أدبي مجرد مخلفات أو بقايا ميتة لأساطير تدنست بعدما كانت في وقت ماحية تغذي عقول مستهلكيها وتجيب عن تساؤلاتهم أو تثير وجدانهم، غير أن النقد الأسطوري يرى خلاف ذلك، فهو يرى في العنصر الأسطوري ضمن بنية النص الأدبي دلالة مميزة ويؤدي دور المحور في عملية تحليل النص، لأن العنصر الأسطوري الموظف مشع دلاليا مهما كان دقيقا أو خافتا، ولا يمكن أن يفقد طاقته الحيوية الأصلية إلا بفعل عملية الإشعاع المتوقفة على التوظيف الإبداعي وتنوعه، الأمر الذي يجعل وجود العنصر الأسطوري في النص الأدبي مشعا بالضرورة وحاضرا بالقوة. والمقصود بالإشعاع تلك الظلال أو الهالة أو الإيحاءات الدلالية التي يمنحها العنصر الأسطوري الموظف للنص أو الأثر الإبداعي بفضل عملية المطاوعة التي يمنحها المبدع للعنصر الموظف ومدى ملائمة ذلك لأفق انتظار المتلقي.

وقد يكون الإشعاع :

1- ساطعا عندما يصرح المبدع نفسه بالأسطورة أو بالعنصر الأسطوري بواسطة العبارة الاستهلالية أو العنوان أو اللازمة أو التسمية ...إلخ ،كما هو الشأن في قصيدة البياتي الزاخرة بمكونات أسطورة شهرزاد ، بدءا بالعنوان "شيء من ألف ليلة وليلة " ومرورا بتسمية عناصر لها صلة بشهرزاد مثل :" مصباح علاء الدين "،و"الملك السعيد"،و"السندباد" وانتهاء باللازمة :"وأدرك الصباح شهرزاد " فضلا عن عناصر أسطورية أخرى ليجعل من قصيدته مغامرة مشابهة لمغامرة شهرزاد من حيث المخبر

مناقضة لها من حيث الجوهر بفعل التشابه بين الخطابين شكلا،والتناقض بينهما مضمونا بناء على المطاوعة التي أضفاها الشاعر على العناصر الأسطورية الموظفة.

وقد يكون الإشعاع:

2 – خافتا أو باهتا، عندما لا يصرح المبدع بالأسطورة أو بالعنصر الأسطوري، و إنما يكتفي بالإشارة إلى وظيفة أو صفة من الصفات أو الخلفية الأسطورية عن طريق التشابه أو التقارب في البناء الفني ...الخ كما هو الشأن في قصيدة البياتي عندما أشار إلى أسطورة " الثورة و التحدي " بوجهيها " الإغريقي" المتمثل في حمل النار الأسطورية، و" السامي" المتمثل في السلم البابلي ، وإشعاعها بوجهيها إشعاعا معاكسا للأصل الأسطوري ؛ وكذلك الشأن بالنسبة إلى" المغني الصامت" الذي حقق بموسيقاه وغنائه المعجزات في الأسطورة ،ولكنه في القصيدة"صامت " والعود في يده "مشدود"، الأمر الذي جعل هذا العنصر الأسطوري يشع انتظارا أو جمودا مع بقية العناصر الأخرى.

ويبدو أن درجة الإشعاع وطبيعته تتوقف على نوع المطاوعة وطبيعتها أيضا ،وهي بدورها تتوقف أيضا على نوع التجلي و طبيعته الأمر الذي يقودنا إلى تصور علاقة ارتباط جدلية بين عناصر النقد الأسطوري ومستوياتها ،حيث يبدو لنا أن التجلي المبهم أو الجزئي عادة ما ينتج مطاوعة واسعة بين طرفي المركب الأسطوري الإبداعي لينتج هو الأخر إشعاعا ساطعا ، وأن التجلي الصريح أو التام قد ينتج مطاوعة اقل امتدادا من السابقة ، وقد تنتج بدورها إشعاعا خافتا أو باهتا، غير أن هذا الاستنتاج

يغلب عليه التصور المنطقي اكثر من الواقع الأدبي الإبداعي الذي يتطلب دراسات عديدة وشاملة من جهة ،ولا يتوقف على تصورات منطقية وإنما يتوقف غالبا على قدرة المبدع التوظيفية من جهة أخرى.

العميق ولم تفصح بعد عن دورها في بناء نصوص الأدب العربي ؛ غير أن هذا لا يعني أن النقد الأسطوري هو المنهج الأمثل الذي لم يوجد مثيل له ؛ فهو يقوم على دراسة الأثر الأدبي من حيث مكوناته الأسطورية ، الأمر الذي يجعل الدارس مهووسا بالبحث عن "النصوص النموذجية " التي تزخر بالعناصر الأسطورية ،وبذلك تكون الدراسة "انتقائية "تناسب نصوصا ولا تناسب كل النصوص؛ وفضلا عن ذلك فإن الناقد مطالب ،وفق النقد الأسطوري ، بسعة اطلاع في علم الأسطوريات لا حد لها لأنه يتعامل مع الفكر البشري منذ نشأته إلى اليوم ،وبذلك يصبح الناقد أمام عقبتين صعبتين ومتناقضتين إحداهما أن تتوفر لديه معارف لا حد لها في عالم الأسطوريات، والثانية محدودية المدونة القابلة لتطبيق النقد الأسطوري . ومع ذلك فإن النقد الأسطوري يكشف انطلاقا من العناصر الأسطورية عن خبايا النص الأدبي الإبداعي وعن التفاعل العقلي والوجداني والجمالي بين البشر أفضل من بقية المناهج الأخرى ، بدليل أننا رأينا كيف رسم البياتي بمكونات أسطورية صورا تشع دلالات وإيحاءات تخلق في المتلقي إحساسا قد لا يقل عن إحساس الشاعر بحالة الإحباط نحو الوضع المتعفن، وتدفعه إما إلى الموت مثل الراوي، أو إلى الثورة مثل شهرزاد .

وخلاصة القول ،فإن النقد الأسطوري بخطواته الثلاث وبتفرعاتها التي استنبط البعض منها توجها في الدرس الأدبي يناسب نصوصا ولا يناسب

أخرى ،وقد يؤدي تطبيقه في دراسة الأدب العربي إلى استنباط قواعد وتقنيات أكثر انسجاما وتعبيرا عن طبيعة الأدب العربي وجماليته ومخزونه الأسطوري وبذلك يبدو لي أن أخذ الباحثين العرب بالنقد الأسطوري في تعاملهم مع الأدب العربي ، بعيدا عن أية خلفية دوغمائية ، سيعود لا محالة بخير فكري عميم ..

الهوامش:

(

2

:–

---

[1] د. عبد المجيد): اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996م.

[2] **القرآن الكريم: سورة الأنفال، الآية 31.**

[3] **Trousson (R): Themes et Mythes: Edition université de bruxelles. (1981) p.p.7-14.**

[4] ثمة دراسات عربية عديدة تبرز مكانة الأسطورة ودورها في الأدب العربي الحديث نذكر منها على سبيل المثال:

أ- د. أنس دواود: الأسطورة في الشعر العربي الحديث مكتبة الشباب القاهرة.

ب -د. محمد عبد الحي: الأسطورة الإغريقية في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية ، القاهرة

ج- د. ريتا عوض : أسطورة الموت والإنبعاث في الشعر العربي الحديث.

د- د. شمس الدين الحجاجي: الأسطورة في المسرح المصري. دار المعارف القاهرة.

هـ- د. علي الشرع : الفكر البروميثي والشعر العربي الحديث. منشورات جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

و- د.عبد الرضا علي: الأسطورة في شعر السياب.

[5] **Carl. Gustav jung et CH. Kerényi: introduction à l'essence de la mythlogie. Payot, paris 1968 p.p.105-116**

[6] **Jolles (André): Formes simples (Trad en français par Antoine Marie Buguet,ed du seuil.paris,1972.**

[7] **Frye (Northrop): Anatomie de la critiqure (Trad : Guy Durand) editions, Gallimards, Paris 1969.p.p 161-172**

[8] **Durand (Gilbert): les structures Anthropologiques de l'imaginaire. Bordas paris-1969A.Siganos et A.Dabezies, et P.Selliers, et HD.Pageaux وأعمال Brunel(p) على وجه الخصوص.**

---

[9] ا– د.سميرسرحان: التفسير الأسطوري في النقد الأدبي، ص: 99-103

[10] مثل دراسات كل من

[11] **Brunel. P : Mythocritique. P.U.F. Paris 1992 P.P 72/86**

[12] **مثل:**

– المسعدي (محمود): السد، الشركة التونسية للكتاب، تونس.

– وطار (الطاهر): الحوات والقصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

– الغيطاني (جمال): كتاب التجليات (السفر الأول والثاني) دار المستقبل العربي، القاهرة، 1983/1985.

[13] **الأسطوريات: المصطلح الأنسب لترجمة مصطلح Mythologie الذي يعني الأسطورة بأوجهها المختلفة ودراستها، أي يعني الظاهرة والعلم بها.**

[14] **البياتي (عبد الوهاب): الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، دار العودة ن بيروت، ص 381-388**

الجواد المجنح أو Pegasos في الأسطوريات الإغريقية: حصان مجنح يرمز إلى الإلهام الشعري، وهو الذي ضرب جبل ربات الشعر بحافريه فتدفق نبع هيبوكرينيا. ويعده علماء الأسطوريات رمزا يجمع بين الحيوية وقوة المرسول

Encyclopedie des Symboles.Livre de poche Paris 1996 PP 510 /511.

وقد يكون "البراق" بعثا لحصان الأسطوريات الإغريقية المجنح حسب رأي مالك شبال

Chebel Malek: Dictionnaire des symboles musulmans.Albin Michel. Paris, 1995. P.94

[16] **Dictionnaire des Mythes litteraires (sous la direction de Pierre Brunel)Editions du Rocher Paris 1989.PP 534 - 551..**

الترجمة في الفكر النهضوي العربي

عبد اللطيف عبيد

المعهد العالي للغات. تونس

ليست الترجمة تقنية لغوية فحسب، وإنما هي أيضا "فعل إبداعي، ونشاط لغوي، وضرورة حضارية، وموقف إيديولوجي"[1] تؤطرها كلها طبيعة العلاقات المتبادلة بين مجتمعي النص المترجم منه والمترجم إليه في لحظة تاريخية معينة، ومن هنا يستمد الحديث عن موضوع الترجمة في الفكر النهضوي مشروعيته. على أن تناول هذا الموضوع يقتضي، بداية، توضيح المقصود بالفكر النهضوي العربي وتحديد مجاله الزمني، قبل الانتقال إلى دراسة علاقة الترجمة بالاقتباس من الغرب وموقف الفكر النهضوي منهما، والتعريف بالإنتاج الترجمي من حيث عدد المترجمات ولغاتها ومواضيعها والفئات التي استهدفتها وعلاقة كل ذلك بالتوجهات النهضوية، وأخيرا محاولة الكشف عن حقيقة الدور الفعلي الذي قامت به الترجمة في المشروع النهضوي.

1. النهضة مفهوما ومجالا زمنيا:

---

[1] -محمد حافظ دياب: "الترجمة وأسئلة النهضة العربية"، الوحدة، س6، ع61 – 62 (أكتوبر- نوفمبر 1989)، (ص 36 – 44)، ص 36.

تتنوع الرؤى والمقاربات المتعلقة ب"النهضة العربية" تنوعا بينا، وهو ما يجعل تعريف هذا المصطلح وتحديد مفهومه أمرا لا يخلو من الصعوبة. وإذا كانت المعاجم اللغوية تعرف "النهضة" بأنها "الطاقة والقوة" و"الوثبة في سبيل التقدم الاجتماعي أو غيره"[1]، وتعرف "عصر النهضة" بأنه "عصر تقدم اجتماعي وفكري وأدبي في أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر" [2] و"عصر النهضة العربية" بأنه "وثبة في سبيل التقدم الفكري والأدبي والاجتماعي شهدها العرب في القرن التاسع عشر" [3]، فإننا لا نكاد نعثر – فيما اطلعنا عليه من مقالات وكتب بما فيها المخصصة للنهضة مثل كتاب سلامة موسى: " ما هي النهضة" [4] – تعريفا يحدد مفهوم النهضة تحديدا جامعا دقيقا. وقد سعى جورجي زيدان في "تاريخ آداب اللغة العربية" إلى بيان ما سماه "مميزات هذه النهضة" بدل تحديد مفهومها، مؤكدا أن الدولة العربية في عهد النهضة الأخيرة "تأثرت بتيار المدنية الأوربية، وهي تختلف عن مدنيتها الإسلامية شكلا وأسلوبا، فجارتها وإن لم تخرج عن دائرتها الخاصة "[5]، وفي رأي جورجي زيدان، تتمثل أهم مميزات هذه النهضة المتأثرة ب"مدنية أوروبا" ويسميها مرة " النهضة" وأخرى "النهضة الأدبية" – في إنشاء المدارس الحديثة، والطباعة، والصحافة، وروح الحرية الشخصية، والجمعيات الأدبية والعلمية والمكتبات العامة، والمتاحف،

---

[1]– مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط3، القاهرة 1985، ص 997 (مادة: نهض).

[2]– صبحي حموي وآخرون: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط1، دار المشرق، بيروت 2000، ص983 (مادة : عصر)

[3]– الموضع نفسه

[4]– سلامة موسى: ما هي النهضة، ط1، مكتبة المعارف، بيروت 1962، 144ص

[5]– جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، م. 2، ج4، دار مكتبة الحياة، بيروت 1992، ص363.

والتمثيل، واشتغال الإفرنج بآداب اللغة العربية[1]. وشبيه بهذا ما ذهبت إليه المستعربة نادا توميش (N. toumiche) في فصل "نهضة" بدائرة المعارف الإسلامية عندما سعت إلى تتبع "تجليات هذه الحركة" –أي النهضة– بدل تعريفها، محاولة التفرقة بينها وبين "حركة الإصلاح" القائمة أساسا على التجديد الديني تجديدا ذاتيا أو داخليا. وفي رأيها أن النهضة وليدة عامل خارجي هو الاتصال بين الشرق والغرب وهي تحرر من قيود الماضي ورفض لها، وانطلاقة نحو المعاصرة المتمثلة في نماذج أجنبية، وثقة بالمستقبل، وإيمان قاطع بحتمية تقدم المجتمعات، لذا فإن التجليات التي ميزت النهضة تتمثل في الحوار الذي أقامته مع الغرب، وفي اعتمادها الترجمة العلمية ثم الأدبية أداة من أدوات ذلك الحوار، وظهور جيل من الرواد في مجال المسرح والقصة والرواية بما طور الأدب وأدخل فيه أجناسا جديدة مثلما طور اللغة العربية نفسها، وظهور الصحافة وما كان له من تأثير لغوي وفكري عظيم...الخ[2] .

وإذا كانت النهضة توجها نحو المعاصرة وحالة تغير وتجدد عامة شملت أجزاء كبيرة من الوطن العربي ومست معظم جوانب الحياة فيه الرسمية منها والشعبية، فإن المقصود ب"الفكر النهضوي " هو تلك التيارات الفكرية التي شكلت ما يعرف ب"التنوير العربي" وهي عموما، تيار الإصلاح الديني

---

[1]- المرجع نفسه، ص375.

[2]- فصل "نهضة" (Nahda) في دائرة المعارف الإسلامية (EI)، الطبعة الفرنسية الجديدة، المجلد VII ص 901 - 904

والسياسي الليبرالي ، والعلمي العلماني[1]. وهذا التنوير العربي لا يزال، في رأي بعض الدارسين متواصلا، ف"منذ فجر النهضة العربية، والعرب يعيشون عصر تنوير عربي، ويحنون بعد انتكاسة التنوير الأول إلى تنوير عربي جديد" [2].

أما بالنسبة إلى المجال الزمني للنهضة، فإنه إذا كان بعض الباحثين يؤكدون أنه "ليس للنهضة العربية حدود واضحة متفق عليها، بل هي تيار متصل، بعيد الجذور، كثير الروافد، يختلف اتساعا وتأثيرا وأهمية في البلدان التي ورثت حضارة العرب، وانتظمتها لغة الضاد وشكلت العالم العربي الحديث" [3]، وأنها لا تبدأ "بحملة بونابرت على مصر (1789 – 1801)، وإن تكن هذه الحملة بمنزلة باعث قوي متشعب الجوانب المشعة الرائدة، خصوصا فيما يختص بالصلة والتعامل بين الغرب والمشرق العربي"[4]، و"إن الرأي المتناقل يردده الخلف عن السلف بأن عصر الانبعاث، أو اليقظة العربية، أو النهضة الحديثة قامت مع حملة بونابرت على مصر (1798) هو رأي يشوبه الكثير من التسرع والإجحاف بحق القرون والمراحل السابقة لهذه الحملة، خصوصا لبنان" [5]، الذي عرف في الجبل والسواحل والمدن وجبل عامل حركة أدبية واتصالا بالغرب منذ القرن السادس عشر

[1] – حسن حنفي: "نحو تنوير عربي جديد – محاولة للتأسيس"، عالم الفكر م29، ع3 (يناير – مارس 2001)، (ص 75 – 94)، ص 76.

[2]– المرجع نفسه، ص 75

[3]– وليم الخازن: تباشير النهضة الأدبية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1993، (192 ص)، ص11.

[4]– المرجع نفسه، ص 168.

[5] – المرجع نفسه، ص12.

بالخصوص، وخاصة عبر المدرسة المارونية وما أنجزته من ترجمات إلى العربية، وإن غلب عليها الطابع الديني التبشيري[1]، فإن أغلب الدارسين يجعلون من حملة بونابرت على مصر أو خروجها منها البداية الأولى لهذه النهضة التي بدأت بمصر وأشعت منها على الشام وتونس وسائر المناطق العربية. فجورجي زيدان يرى أن هذه النهضة تبدأ "بخروج الفرنسيين من مصر سنة 1801 ولا تزال"[2] ، وألبرت حوراني يجعل المجال الزمني للفكر العربي في عصر النهضة في الفترة الواقة بين حملة بونابرت على مصر ونهاية الحرب العالمية الثانية (1798 – 1939)[3].

وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية أنه إذا كان من الجائز أن نجعل بداية النهضة في القرن التاسع عشر مع الطلاب المبعوثين إلى أوروبا والمحاولات التحديثية الأخرى لمحمد علي (1805 – 1848) ثم الخديوي إسماعيل (1863 – 1879)، فإنه يمكن أن نعتبر أن نهايتها تقع غداة الحرب العالمية الأولى عندما قضى الاحتلال الأجنبي، الذي تواصل في العديد من البلدان العربية أو فرض عليها حديثا، على الأمل في التحرر الذي اتسم به الحوار بين الوطن العربي والغرب، وحلت محله الآن مشاعر الإحباط والرفض[4]، أما طيب تيزيني ففي عرضه ل "مشروع النهوض العربي

---

[1]- انظر: أ. لطيف زيتوني: حركة الترجمة في عصر النهضة، دار النهار، بيروت 1994، '190ص)، ص13-16.

ب. وليم الخازن: المرجع المذكور سابقا، ص 47 – 54.

[2]- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مرجع سابق، ص365..

[3]- البرت حوراين (ترجمة كريم عزقول): الفكر العربي في عصر النهضة 1798 – 1939، دار النهار، بيروت 1977، 472ص.

[4]- فصل "نهضة" مرجع سابق، ص904

التنويري"[1]، يتحدث عن "النهضة الثانية" التي حدثت في رأيه منذ أواخر القرن الثامن عشر، وحتى أوائل القرن العشرين قياسا ب"النهضة الأولى" التي حدثت في العصور الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وب"النهضة الثالثة" التي برزت صيغ أولى لها "منذ خمسينيات القرن العشرين حتى بداية تسعينياته"، وهي فترة عرف فيها الفكر السياسي العربي الراهن تداخلا بين ثلاثة مفاهيم مركزية هي: النهضة، والثورة، وحركة التحرر الوطني العربي[2].

والحقيقة أن المقام لا يسمح بمزيد الخوض في مناقشة مفهوم النهضة، وخاصة حدودها الزمنية، لذلك فإننا، لأغراض هذه الدراسة عن الترجمة في الفكر النهضوي، نتبنى الموقف الشائع لدى أغلبية الدارسين والذي يجعل من حملة بونابرت وما تلاها من تولي محمد علي حكم مصر بداية لها. أما نهايتها فإننا نجعلها في نهاية القرن التاسع عشر بعيد احتلال فرنسا لتونس 1881، وإنجلترا لمصر 1882، وما ترتب على هذا الاحتلال من نكسة واضحة لحركة الترجمة، كما سنبينه لاحقا، بسبب هيمنة اللغة الأجنبية(الإنجليزية أو الفرنسية) بعد أن كانت الترجمة إلى العربية أساسا إحدى الأدوات الرئيسية للنهضة في مختلف المجالات: التعليمية، والصناعية، والعسكرية، والصحية، والزراعية، والإدارية ...الخ، فقد أدى الاحتلال الأجنبي إلى انقلاب موازين القوى لصالح الغرب الاستعماري، وأحدث تغيرات عميقة في علاقة الوطن العربي به، وفي الموقف من لغته

---

[1] – طيب تيزيني: "بيان في النهضة والتنوير العربي باتجاه مشروع نهضوي عربي تنويري جديد"، عالم الفكر، م29 ع3 (يناير – مارس 2001)، (ص49 – 73)، ص59.

[2] – الموضع نفسه

وثقافته التي لا تزال آثارها قائمة إلى يومنا هذا في حياتنا الفكرية، وأوضاعنا اللغوية، بما فيها الترجمة إلى العربية حجما ونوعا وكيفا.

2. موقف الكفر النهضوي من الترجمة خاصة والاقتباس عن الغرب عامة:

أشرنا من قبل إلى أن الترجمة قد عدت أداة رئيسية من أدوات تحقيق النهضة التي كانت تتطلع إليها النخبة السياسية والفكرية منذ بدايات القرن التاسع عشر. بل أن "النهضة، هي، في تيارها العريض، حركة ترجمة، سواء اتخذت الترجمة الشكل المباشر من خلال نقل المؤلفات أم الشكل غير المباشر من خلال نقل الأفكار [1]. وخلال كل فترات عصر النهضة نجد أن الحواجز بين الترجمة والتأليف تكاد تضيع، وهو ما يدعونا إلى عدم التهوين من شأن الكتب المترجمة بسبب انخفاض عددها، في أغلب الفترات، عن عدد الكتب المؤلفة مثلما سيأتي بيانه، كما يدعونا إلى اعتبار حركة الترجمة عنصرا من عناصر حركة أشمل هي ما سمي ب"اقتباس التمدن الغربي"

ويعد الاقتباس من الحضارة الغربية، أملا في التخلص من التأخر وتحقيق التقدم، من أهم أسس السياسة التحديثية لدى محمد علي الذي تنسب إلى عهده أهم حركة ترجمة عرفها عصر النهضة العربية الحديثة. فـ"قد كان محمد علي يؤمن إيمانا راسخا بضرورة الإصلاح الجذري للسلطنة العثمانية وولاياتها، خشية وقوعهما معا في قبضة الاستعمار الأوروبي. وقد أدرك، منذ البداية، أن حركة التحديث هذه لن تتم دون الاقتباس عن النماذج

[1] – جورج طرابيشي: "الترجمة والأيديولوجيا المترجمة"، الوحدة، س6، ع 61 – 62 (أكتوبر – نوفمر 1989)، (ص 30 – 34) ، ص 30.

الغربيــة المتطــورة. فتحــديث الجــيش وتأهيلــه لحمايــة الأرض والشــعب والمؤسسات يحتاج إلى فكر عسكري جديد، وإلى صناعة قوية تدعمه، وإلى مدارس وطنية ترفده بالشباب المتعلم تعليما عصريا، وإلى موارد اقتصادية كبيرة تجبيها الدولة المركزية من القوى المنتجة، أي المزارعين والحرفيين، وإلى بعثات علمية للتخصص العلمي والتقني في أوربا، وإلى رقابة صارمة للدولة المركزية على التجارة المحلية والسلع المعدة للتصدير الخارجي، وإلى مجالس إدارية تعمل بإشراف السلطة المركزية وإلى مجالس تمثيلية تضم أعضاء يمثلون مختلف الطوائف والمهن، وإلى الحد من نفوذ السفراء والقناصل الأجانب الذين يستغلون نظام الامتيازات الأجنبية، ليمارسوا ضغوطا مباشرة في الإدارة العثمانية على جميع المستويات[1].

ونجد في مواضع عديدة من مؤلفات الطهطاوي (1801–1873) ومترجماته – وهو زعيم حركة الترجمة في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر ومنفذ سياسة محمد علي التعليمية والترجمية– إشارات صريحة إلى ضرورة الأخذ عن الغرب واقتباس عناصر التمدن الأوروبي ما لم تخالف الشريعة الإسلامية. ففي مقدمة "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" يشير الطهطاوي إلى أنه أنطلق في رحلته "بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، و لا الحق أحق أن يتبع. ولعمر الله إنني مدة إقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه (...) ومن المعلوم أني لا أستحسن إلا ما لم

---

[1] – مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية – تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1999، (399ص)، ص 130.

يخالف نص الشريعة المحمدية (...) وأسأل الله سبحانه وتعالى (...) أن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم"[1] .

وفي تونس تزعم المشير أحمد باي (1837–1855) المحاولة الإصلاحية الأولى في عصر النهضة، وهي محاولة سيطر عليها الطابع العسكري وتشبه، في وجوه عديدة، محاولة محمد علي"[2] في مصر بل إن "أحمد باي كان ينظر بعين الغيرة إلى انتصارات وقوة باشا مصر محمد علي. وقد زار هذا الباي فرنسا سنة 1846، وأعجب هو ومرافقوه وخاصة مؤرخه أحمد بن أبي الضياف (1802–1874) – الذي كان مطلعا على كتاب الطهطاوي "تخليص الإبريز" ومعجبا به مثلما عبر عن ذلك في كتابه المشهور "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان"[3] – بتقدم فرنسا وسائر أقطار أوروبا ماديا ومعنويا أو حسا ومعنى حسب المصطلح المتداول في القرن التاسع عشر.

وفي "أقوم المسالك في معرفة أحول الممالك" للمصلح التونسي الشهير الوزير خير الدين (1822–1889) الذي تزعم الحركة الإصلاحية الثانية في تونس قبل الحماية نجد المؤلف حريصا على الدعوة إلى الاقتباس من

---

[1] – رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، في: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، دراسة وتعليق محمود فهمي حجازي، دار الفكر العربي، القاهرة، (دت)، (522ص)، ص 141 – 142.

[2] – الحبيب الجنحاني: "الحركة الإصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، حوليات الجامعة التونسية، 6 (1969)، (ص111 – 163)، ص 116.

[3]– أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (دولة أحمد باي)، تحقيق أحمد عبد السلام، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985، (313 + 45ص)، ص 139.

أوروبا وخاصة "مستحدثاتهم المتعلقة بسياستي الاقتصاد والتنظيم[1]. و"الغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأورباوية، إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا، ولنصوص شريعتنا مساعدا أو موافقا، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجودة فينا..."[2].

وفي هذا الإطار التحديثي القائم على الاتصال بأوروبا والاقتباس منها يتترل، إذا، الاهتمام بالترجمة كما يتترل الاهتمام باللغات الأوروبية التي تتكلمها أمم عدت متفوقة في التمدن المادي والمعنوي. فمعرفة اللغات – حسب عبارة الشيخ محمد السنوسي (1950–1900) أحد رواد حركة النهضة بتونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – "من أعظم أسباب تواصل الأمم (...) ولا شك أن تعلم الألسن في الشريعة الإسلامية لمنفعة المسلمين بالتعلم لترجمة ما يحتاج إليه الإمام والقاضي للفصل بين الخصوم وإثبات الحقوق أو غير ذلك مما تدعو إليه الضرورة والحاجة غير محذور وربما وجب وجوبا كفائيا على ما هو موضح في جملة كتب الشريعة حتى أجاز علماؤها ترجمة غير المسلم إذ لم يوجد المسلم...[3]. وقد أولى محمد علي تعليم اللغات الأجنبية – وفي مقدمتها الفرنسية – عناية كبيرة لا تقل عن عنايته بنشاط الترجمة الذي خطط له وأشرف عليه بنفسه وتابعه عن قرب مستخدما "مدرسة الألسن" و"قلم الترجمة" بإدارة شيخ المترجمين

---

[1] – خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تمهيد وتحقيق المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، تونس 1990، (مجلدان، 1121ص)، ص122.

[2] – المرجع نفسه، ص123

[3] – محمد السنوسي: الاستطلاعات الباريسية، تونس 1891، ص 112 – 113.

رفاعة رافع الطهطاوي جهازه التنفيذي الرسمي. وقد كان محمد علي الذي أرسل البعثات الطلابية إلى أوروبا وأنشأ المعاهد العسكرية والهندسية والطبية والزراعية كما أنشأ سنة 1835 مدرسة الألسن" بناء على اقتراح من الطهطاوي – رغم أن الباشا لم يتعلم القراءة إلا وهو الخامسة والأربعين من عمره – في حاجة ملحة إلى الترجمة لمعرفة أوروبا والأساليب الحديثة في الإدارة والحرب وتصريف أعمال المملكة مع الخارج والتفاهم مع الأهالي وقضاء الأمور في الداخل[1]. ويورد جاك تاجر في كتابه المشهور "حركة الترجمة في مصر في القرن التاسع عشر" نقلا عن "الكونت ديستورميل" قصة طريفة فحواها"أن أحد الملوك أهدى إلى والي مصر كتابا في علم الجغرافية مجلدا تجليدا فاخرا فاستدعى الباشا كبير مترجميه وسأله "كم تحتاج من الوقت لترجمة هذا المؤلف "فأجابه المترجم "ثلاثة أشهر تقريبا" فأحضر محمد علي باشا سيفه وقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام وزعها على ثلاثة مترجمين، وذلك لإنجاز العمل في شهر واحد[2]. كما يذكر جاك تاجر أن محمد علي كان "إذ اطلع على كتاب وأعجبه أمر في الحال بطبعه وتوزيعه على الأعيان والمكاتب. وكان على عكس ذلك يحول دون نشر الكتاب إذا لم ينل استحسانه. وقد كتب الجناب العالي مرة إلى مختار بك (...) في شأن ترجمة الكتاب الذي وضعه الافرنسيس أثناء الحملة (...) ويطلب منه أن يرسل إليه إحدى النسخ المترجمة قبل طبعها، وبعد فترة

---

[1]– انظر: مصطفى ماهر: "مدرسة رفاعة" مجلة الألسن للترجمة، ع1، يونية 2001 (ص 65 – 80)، ص 67 – 68.

[2] – جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة 1945، '160ص)، ص16

وجيزة تسلم مختار بك كتابا آخر (...) فحواه أن الجناب العالي لا يوافق على طبع الكتاب الخاص بأخلاق المصريين الذي ألفه الفرنسيون"[1]. وقد كان محمد علي، كما يقول جاك تاجر أيضا، "يهتم بكل كتاب يقع تحت بصره، أو يسمع به يكون محتويا على آراء يعود تنفيذها بفائدة مادية وأدبية. فقد أرسل إلى سلحدار إبراهيم باشا المقيم في لندن كتابا (...) جاء فيه: قد بلغنا أنه يوجد كتاب مطبوع باللغة الإنجليزية يبين مبلغ مصروفات كل سفينة حكومية أنشأتها الدولة الإنجليزية وكذلك توجد كتب مطبوعة مؤلفة على طراز سهل يشتاق صغر الأطفال إلى قراءتها، فعلى ذلك قد اقتضت إرادتنا جلب هذا الكتاب المطبوع ليحصل الاطلاع على مقدار المبالغ المصروفة على إنشاء السفن ومشترى الكتب وإرسالها إلى طرفنا فيلزم شراؤها بمعرفتكم وترجمتها إلى اللغة التركية تم إرسالها مع الأصول المطبوعة[2].

وعندما شرع محمد علي في توجيه البعثات الطلابية لم ينتظر عودتهم إلى مصر ليكلفهم بأعمال الترجمة، بل أمرهم بالشروع فيها وهم يتلقون العلم في أوروبا. ففي رسالة إلى أحد الطلاب يذكر الوالي "بما سبق أن أمره به من أن يرسل كتب الجغرافية الجاري ترجمتها بمعرفة البعثة جزءا جزءا فيلومه على الاكتفاء بذكر أن مختار أفندي لا يزال يشتغل بالترجمة كما يلومه على أنه لم يقدم المعلومات الدالة على مبلغ تحصيلهم مؤكدا عليه المطالبة بتفصيل ما ترجموه من الكتب وما أفادوه من العلوم منذ حلولهم بباريس

[1]- المرجع نفسه ، ص 17

[2]- الموضع نفسه

وموصيا بأن يكون البيان المقدم في هذا الصدد معززا بشهادات الأساتذة المدرسين وبأن يكتب إليه بعد ذلك آخر كل شهر تقريرا مبينا للقدر الذي ترجموه وحصلوه في أثناء ذلك الشهر ..."[1].

ويتضح مما تقدم أن الترجمة كانت، لدى محمد علي، "قضية شخصية" استدعت كامل عنايته واهتمامه لارتباطها بتحقيق مشروعه السياسي الهادف إلى بناء دولة حديثة تتمكن من الاستقلال النهائي عن الباب العالي وتقف في وجه الأطماع الأوروبية. وهذا الموقف من الترجمة نجد في تونس، عند أحمد باي، ما يماثله ولو إلى حد. فقد كان لأحمد باي – كما يقول ابن أبي الضياف – استحسان لأفعال نابليون الأول، حتى أنه أمر بترجمة حروبه ووقائعه باللغة العربية وقرأتها عليه غير ما مرة بالمحمدية. ويرى أنه من عظماء الدنيا كالإسكندر وأمثاله"[2]. وهذا الباي هو الذي أسس "المدرسة الحربية" أو "المكتب الحربي" بباردو من ضواحي تونس سنة 1840 "لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالحساب والهندسة والمساحة وغيرها ولتعليم اللغة الفرنساوية لأن أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة"[3]. ولئن كانت هذه المدرسة من آثار اهتمام أحمد باي بالناحية العسكرية – على غرار ما رأيناه من اهتمام محمد علي بهذه الناحية أيضا – وتفكيره في تخريج ضباط جيشه النظامي على يد أساتذة أوربيين، فإنها لم تكن مدرسة عسكرية بحتة وإنما كانت أول مؤسسة تعليمية احتوى برنامجها على مواد العلوم العصرية، كما

---

[1]- المرجع نفسه، ص 25 - 26

[2]- أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان ...، مرجع سابق، ص 143.

[3]- المرجع نفسه، ص70.

كانت مهد أول حركة ترجمة عرفها تاريخ تونس الحديث[1] وإن كان أغلب ما ترجم في إطارها هو من الفنون العسكرية، إذ تثبت بعض الدراسات أن ما ترجم إلى العربية في تونس من 1838 إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي سنة 1881 يعد 46 كتابا منها 40 كتابا – أي بنسبة 87%من مجموع ما عرب – في الفنون العسكرية وحدها[2].

وخلاصة القول أن الترجمة في القرن التاسع عشر – وخاصة في نصفه الأول وإلى أواسطه مع نهاية حكم محمد علي في مصر وأحمد باي في تونس...الخ– كانت اختيارا سياسيا ونشاطا رسميا تقرره السلطة السياسية، وتخطط له، وتشرف عليه، وتراقبه، ليكون في خدمة سياستها ويحقق أهدافها. وقد تبين أن التجربة المصرية في الترجمة – وهي التي توفرت لدينا عنها معلومات ضافية وإحصائيات مدققة دالة مثلما سنورده لاحقا – تعد التجربة البارزة وإن كانت التجربة اللبنانية قد سبقتها لكن في ظروف مغايرة، كما يعد نجاحها – إضافة إلى الاختيار السياسي الذي رسمه محمد علي وحزمه في تطبيقه ف"إذا أمر الباشا بشيء، أراد تنفيذه على الوجه الأكمل" كما يقول جاك تاجر[3] – راجعا إلى تأهيل المترجمين وحيويتهم وتجندهم لخدمة دولة محمد علي، وفي مقدمة هؤلاء المترجمين رفاعة رافع الطهطاوي الذي آمن إيمانا راسخا بدور الترجمة والتربية والتعليم في تحقيق عملية التنوير وحركة النهضة.

---

[1]- الحبيب الجنحاني: "الحركة الإصلاحية في تونس..."، مرجع سابق، ص 119.

[2]- العروسي الميزوري: "من نتائج بروز المؤسسات التعليمية الحديثة بالإيالة التونسية"، ج3، الهداية (تونس)، 22/6 (1998)، (ص71 –74)، ص 72 – 74.

[3]- جاك تاجر: حركة الترجمة بمصر...، مرجع سابق، ص 25.

3. الإنتاج الترجمي عدديا ولغويا وموضوعيا وفئويا في القرن التاسع عشر وصلته بالتوجهات النهضوية: حالة مصر.

ما عدد الكتب المترجمة فيما بين اللغات المستخدمة بصورة أو بأخرى في مصر خلال القرن التاسع عشر؟ وما نسبتها إلى الكتب المؤلفة؟ وما اللغات المترجم منها والمترجم إليها؟ وما مواضيع الكتب المترجمة؟ وما الفئات التي استهدفتها هذه الترجمات؟ وما صلة كل ذلك بالتوجهات النهضوية التي عرفتها مصر خاصة خلال هذا القرن؟

هذا ما سيسعى هذا القسم من الورقة إلى الإجابة عنه في ضوء الإحصائيات التي تزودنا بها بعض الدراسات والبحوث البيليومترية الحديثة .[1]

1.3 الكتب المترجمة:

أحصت عايدة إبراهيم نصير ما نشر من كتب في مصر من عشرينات القرن التاسع عشر – أي من مرحلة تأسيس المطابع بدءا بمطبعة بولاق سنة 1822 – إلى نهايته فبلغ 10405 من الكتب المؤلفة والمترجمة . ويبلغ عدد الكتب المترجمة 804 أي ما نسبته 7.73% من مجموع المنشورات، وهو ما يوضحه الجدول التالي[2]:

---

[1]– أتوجه بجزيل الشكر إلى الزملاء الأفاضل: الأستاذ شوقي جلال والأستاذ الدكتور محمد فتحي عبد الهادي والدكتور محمد الفاضل البشراوي على المراجع والإحصائيات العديدة التي لفتوا انتباهي إليها أو زودوني بها وأنوه هنا بأن جل البيانات والإحصائيات الواردة في هذا القسم من الورقة مستمد من بحثي الدكتورة عايدة إبراهيم نصير وجيهان محمود السيد المذكورين لاحقا.

[2]– عايدة إبراهيم نصير: حركة نشر الكتب في مصر في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1994، (653ص)، ص296.

جدول رقم (1) يبين عدد المترجمات في كل فترة ونسبتها إلى المنشور من الكتب في مصر خلال القرن 19

الفترة	عدد الكتب المنشورة (مؤلفة ومترجمة)	عدد الكتب المترجمة	نسبة المترجمات
العشرينات	105	21	% 20
الثلاثينات	358	102	%28.5
الأربعينات	404	138	%34.2
الخمسينات	443	74	%16.7
الستينات	1391	73	% 5.2
السبعينات	1597	95	%15.9
الثمانينات	3021	110	% 3.6
التسعينات	3086	191	% 6.2
المجموع	10405	804	% 7.73

ويتبين من الإحصائيات التي توصلت إليها عائدة إبراهيم نصير في الجدول السابق أن الكتب المترجمة قد حققت أعلى نسبها في العشريات الثلاث الأولى المشمولة بالدراسة، فبلغت 34.2% في الأربعينات و 28.5 % في

أما جيهان محمود السيد ففي بحثها عن "أوائل المطبوعات في مصر" من عشرينات القرن التاسع عشر إلى سبعيناته، أحصت 2869 كتابا منها 471 كتابا مترجما أي بنسبة 16.4 % من مجموع أوائل المطبوعات.
انظر: جيهان محمود السيد: أوائل المطبوعات في مصر – دراسة في البيليوجرافيا التحليلية، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، 200، ص81.

الثلاثينـات و20% فـي العشـرينات أي خـلال عهـد محمـد علـي الـذي مثـل "النهضة الثقافية الأولى" في القرن التاسع عشر. وقد ازدهرت حركة الترجمة فـي هـذه الفتـرة لأسـباب عديـدة فـي مقـدمتها إنشـاء المـدارس الخصوصـية العسـكرية والطبيـة والهندسـية والإداريـة التـي كـان مدرسـوها مكلفـين أيضـا بترجمة الكتب الدراسية والمرجعية، وعودة المبعوثين، وتخرج المترجمين في مدرسة الألسن – وقد تأسست سنة 1835 – وإنشاء أقلام الترجمة.

وقد تراجعت نسبة الكتب المترجمة بداية من الخمسينات بعد تولي الخديوي عباس (1848 – 1854) الحكم، وإلغاء مدرسة الترجمة سنة 1850 ونفي رفاعة رافع الطهطاوي إلى السودان بعد أن تولى نظارتها مدة 15 سنة. وعند تولي سعيد (1854 – 1863) الحكم ألغى ديوان المدارس الذي كان يزود المترجمين بالكتب المراد ترجمتها لاستخدامها في التعليم.

فقد كان سعيد – كما يقول المؤرخون – ذا كراهية للعلم والمتعلمين، وقد أشيع عنه قوله "إنه من الأيسر حكم أمة جاهلة عن حكم أمة أهلها من المتعلمين"[1]. على أن الخديوي سعيد قد ساعد، من ناحية أخرى، في تنشيط حركة الترجمة عندما أصدر أوامره باستعمال اللغة العربية في القضايا المعروضة على المحاكم، مانعا استعمال غير العربية فيها [2].

وتعد فترة حكم الخديوي إسماعيل (1863–1879) بمثابة "نهضة ثقافية ثانية" عرفتها مصر في القرن التاسع عشر بعد النكسة التي حصلت في عهدي الخديوي عباس والخديوي سعيد. على أنه إذا كانت النهضة الأولى

---

[1] – عايدة ابراهيم نصير: حركة نشر الكتب في مصر ...، مرجع سابق، ص 258.

[2]– الموضع نفسه.

"تهدف إلى تكوين إمبراطورية قوية قوامها الجيش والمدارس على اختلاف تخصصاتها، والمطبوعات الصادرة كانت تدور في فلك هاتين الدعامتين"[1] فإن النهضة الثانية "كانت تميل إلى نشر الثقافة والتعليم والفنون والآداب بين جميع أفراد الشعب"[2].

وإذا كانت نسبة المترجمات في عهد إسماعيل لم تبلغ ما بلغته في عهد محمد علي –إذ أقصى ما وصلت إليه هو 15.9% خلال السبعينات – فلأن النهضة الثانية "قد استمدت جذورها من المؤلفات التراثية والأدبية"[3]، خاصة بعد أن مضى الزمن الذي كانت فيه مدرسة الألسن مسيطرة نحو الخمسة عشر عاما (1853 – 1850) على الإنتاج الترجمي وشؤون الثقافة العامة في مصر [4]. وقد تأثرت حركة الترجمة في هذه الفترة بمسعى الخديوي إسماعيل إلى تطوير القضاء، إذ أمر بترجمة القوانين الفرنسية للحد من النفوذ الأجنبي، وهو ما تم بإشراف رفاعة الطهطاوي، وطبعت في هذه الفترة مجلدات كثيرة بمطبعة بولاق بين سنتي 1866 و1868. إلا أن تنشئة الخديوي إسماعيل، وإتقانه للغات الأجنبية، ومحاولته المستمرة لجعل مصر "قطعة من أوربا" قد جعلت تدريس اللغات الأجنبية من أهم أهداف التعليم، فبلغ عدد المدارس الأوربية التي فتحتها البعثات الدينية في عهده 70 مدرسة [5]. وفي هذا العهد أيضا ترسخ التعريب بمدرسة الطب، مما نشط الترجمة

[1] – جيهان محمود السيد: أوائل المطبوعات في مصر ...، مرجع سابق، ص85.

[2] – الموضع نفسه.

[3] – الموضع نفسه

[4] – المرجع نفسه، ص 83.

[5] – عايدة إبراهيم نصير: حركة نشر الكتب ...،مرجع سابق، ص 265.

الطبية إلى العربية، بل إن إسماعيل قد جعل العربية هي اللغة الرسمية في كافة الدواوين والمصالح بمقتضى أمر صدر في سنة 1869 بعد أن كانت التركية هي اللغة الرسمية، وقد أدى ذلك إلى ترجمة كل اللوائح والأوامر وكل ما سبق صدوره من عصر محمد علي إلى عصر سعيد[1].

على أن هذه الانتعاشة النسبية التي عرفتها حركة الترجمة في عهد إسماعيل ستتراجع بداية من الثمانينات، إذ تدنت نسبة الكتب المترجمة إلى 3.6 % و6.2% خلال الثمانينات والتسعينات على التوالي، وذلك بسبب ضعف خريجي مدرسة الترجمة – وقد فتحت من جديد بين 1878 و 1885 – مما دعا إلى الاستعانة بالمترجمين الشوام في آخر القرن مثلما استعان بهم محمد علي في بدايته، ونجاح الاستعمار الإنجليزي في تحويل لغة التدريس إلى الإنجليزية، وتوسع استخدام اللغات الأجنبية ...الخ

3.2 اللغات المترجم منها والمترجم إليها:

كانت اللغة التركية، إلى سنة 1869 كما رأينا، هي اللغة الرسمية في مصر، وكان للإيطالية مكانة هامة في التعليم وغيره من المجالات، لكنها تراجعت منذ عصر محمد علي وتقدمتها اللغة الفرنسية التي لم تتفوق عليها الإنجليزية إلا مع نهاية القرن بسبب الاحتلال الإنجليزي.

ويبين الجدول التالي الكتب المترجمة بمصر في القرن التاسع عشر موزعة حسب اللغات المترجم منها[2]:

جدول رقم (2) يبين المترجمات في القرن التاسع عشر مصر موزعة حسب اللغة المترجم منها

[1] – المرجع نفسه، ص 266.

[2] – عايدة إبراهيم نصير: حركة نشر الكتب في مصر...، مرجع سابق، ص273.

الفترة / اللغة	العشرينات	الثلاثينات	لأربعينات	الخمسينات	الستينات	السبعينات	الثمانينات
الفرنسية	13	75	93	36	40	57	45
الإنجليزية	–	1	3	3	11	19	44
العربية	2	9	22	22	4	8	5
التركية	2	8	18	11	6	6	9
الفارسية	–	3	1	1	9	2	5
الإيطالية	3	2	1	1	3	1	–
الألمانية	–	–	–	–	–	2	2
القبطية	–	–	–	–	–	–	–
الهندية	–	2	–	–	–	–	–
اليونانية	1	1	–	–	–	–	–
الروسية	1	–	–	–	–	–	–
المجموع	21	102	138	74	73	95	110

أما الجدول التالي فيبين عدد الكتب المترجمة موزعة حسب اللغة المترجم إليها [1]:

[1] – المرجع نفسه، ص 374..

جدول رقم (3) يبين المترجمات في القرن التاسع عشر بمصر موزعة حسب اللغة المترجم إليها

الفترة	**العشرينات**	الثلا ثينات	**الأربعينات**	**الخمسينات**	ال ستينات	**السبعينات**	**الثما**
العربية	11	78	**107**	49	66	84	3
التركية	9	22	**29**	24	7	11	
الفارسية	1	–	**2**	1	–	–	
الفرنسية	–	1	**–**	–	–	–	
الإنجليزية	–	–	**–**	–	–	–	
الألمانية	–	1	**–**	–	–	–	
الجاوية	–	–	**–**	–	–	–	
القبطية	–	–	**–**	–	–	–	
المجموع	21	102	**138**	74	73	95	1

ويتبين من الجدول رقم (3) أن اللغة الفرنسية قد تصدرت اللغات التي ترجمت منها الكتب في مصر طيلة القرن التاسع عشر، إذ بلغ ما ترجم منها 445 كتابا، وهو ما يمثل 55% من مجموع المترجمات (804كتب). ويعود ارتفاع هذه النسبة إلى المكانة التي حظي بها الفرنسيون والثقافة الفرنسية في قطاعات عديدة، وإلى أن محمد علي قد استعان بمجموعة كبيرة من الأساتذة الفرنسيين – مقابل قلة من غير الفرنسيين – للتعليم في المدارس الخصوصية التي أنشأها، ومن أشهرهم برون (Perron) أستاذ

الكيمياء والفيزياء الذي "تعلم العربية وأجادها واستطاع أن يترجم كتابين أساسيين في الكيمياء والفيزياء إلى اللغة العربية"[1] وكلوت بك (Clot) أستاذ الطب الذي وضع خطة للتغلب على حاجز اللغة العربية في مجال تدريس العلوم الطبية، "إذ كان يعين مترجما مع كل أستاذ لكي ينقل كل ما يشرحه هذا الأستاذ من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ثم يكلفه بعد ذلك بأن يعيد ما ترجمه مرة ثانية إلى اللغة الفرنسية، حتى يتأكد من صدق الترجمة، بالإضافة إلى تكليف المترجم أيضا بترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية"[2].

وتعود مكانة الفرنسية إلى أن أكثر البعثات الطلابية قد أرسلت إلى فرنسا، وإلى أن زعيم حركة الترجمة في مصر محمد علي بل في القرن التاسع عشر كله – رفاعة رافع الطهطاوي – قد درس بفرنسا، وعن الفرنسية وضع كل مترجماته.

أما اللغة الإنجليزية فتأتي في المرتبة الثانية، إذا بلغ ما ترجم منها 167 كتابا بنسبة 21% على أن المترجمات من الإنجليزية قد تطور عددها تطورا واضحا منذ الستينات، إلى أن ساوى عدد المترجمات من الفرنسية في التسعينات (86 كتابا لكلتا اللغتين)مؤذنا بعصر جديد تهمين فيه الإنجليزية لا على الفرنسية فحسب وإنما على العربية أيضا، وتعوق فيه حركة الترجمة إعاقة واضحة.

---

[1] – محمود فهمي حجازي: اللغة العربية في العصر الحديث – قضايا ومشكلات، دار قباء، القاهرة 1998، (176ص)، ص 19.

[2]– عايدة إبراهيم نصير: حركة نشر الكتب...، مرجع سابق، ص 247.

وأما اللغات المترجم إليها فتتصدرها اللغة العربية ب677 كتابا وبنسبة 84%من مجموع الكتب المترجمة (804 كتب)، تليها التركية – وكانت اللغة الرسمية إلى حد 1869 كما رأينا، إضافة إلى أنها لغة الحكام – ب113 كتابا وبنسبة 14% في حين أن اللغات الست الأخرى (الفارسية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والجاوية والقطبية) لا تزيد نسبة الكتب التي ترجمت إليها عن 2%. وأهم ما تكشف عنه هذه الأرقام أهمية الجهود التي بذلت لنقل العلوم والتقنيات الحديثة إلى اللغة العربية تلبية لحاجات التعليم والإدارة والجيش والتثقيف العام، مما ساعد على إحياء اللغة العربية وإثرائها وتطويعها لمقتضيات النهضة الحضارية.

3.3. مواضيع الكتب المترجمة:

يبلغ عدد الكتب المترجمة في النصف الأول من القرن التاسع عشر – وهي فترة متأثرة تأثرا تاما بشخصية محمد علي وببرنامجه السياسي واختياراته التحديثية – 261 كتابا أي بنسبة 32.46% من مجموع ما ترجم في كامل القرن (804 كتب). وتأتي في صدارة هذه المترجمات العلوم التطبيقية (91 كتابا بنسبة 34.86%) والعلوم البحتة (56 كتابا بنسبة 21.45%) التي تمثل معا نسبة 56.32% من مجموع ما ترجم، وهو ما يؤكد أن العلوم البحتة والتطبيقية كانت موضع رعاية محمد علي الكاملة، خلافا للآداب التي لم يكن لها نصيب من اهتمامه الرسمي.

أما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فبعد النكسة التي أصابت الحركة التعليمية والثقافية عامة والترجمة خاصة إبان حكم عباس وسعيد ومع استئناف النهضة الثانية في عصر إسماعيل، انصرفت الجهود إلى التأليف أكثر من الترجمة، وانتقل الاهتمام إلى الترجمة في مجال

الإنسانيات، وأصبحت الصدارة للعلوم الاجتماعية (124 كتابا من مجموع 543 كتابا أي بنسبة 22.8%) والآداب (105 كتب بنسبة 19.3%) بينما احتلت العلوم البحتة المرتبة الثالثة (80 كتابا بنسبة 14.7%) والعلوم التطبيقية المرتبة الخامسة (68 كتابا بنسبة 12.5%) بعد الجغرافيا والتاريخ (78 كتابا بنسبة 14.3%). ولا شك أن للاحتلال الإنجليزي عامة وتحول لغة التدريس من العربية إلى الإنجليزية خاصة دورا أساسيا في تناقص الاهتمام بترجمة كتب العلوم البحتة والعلوم التطبيقية إلى اللغة العربية.

ويبين الجدول التالي (رقم 4) عدد الكتب المترجمة في كل موضوع في كل من النصف الأول والنصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي القرن بكامله[1]:

جدول رقم (4) يبين عدد الكتب المترجمة

في القرن التاسع عشر موزعة حسب المواضيع

الفترة / الموضوع	النصف الأول من القرن 19		النصف الثاني من القرن 19	
	عدد الترجمات	النسبة	عدد الترجمات	النسبة
معارف عامة	1	%0.4	4	%0.73
فلسفة	6	%2.3	14	%2.6
ديانات	10	%3.8	32	%5.9
علوم اجتماعية	29	%11.1	124	%22.8
لغات	12	%4.6	37	%6.8

[1] – عايدة إبراهيم نصير: حركة نشر الكتب ...، مرجع سابق، ص 281 – 287.

علوم بحتة	**56**	%21.4	80	%14.7
علوم تطبيقية	91	%34.9	68	%12.5
فنون	–	–	1	%0.18
آداب	19	%7.3	105	%19.4
جغرافيا وتاريخ	37	%14.2	78	%14.3
المجموع	261	%100	543	%100

4-3 الفئات التي استهدفها المترجمات:

صنفت عائدة إبراهيم نصير الفئات التي استهدفها الكتب المترجمة بمصر في القرن التاسع عشر إلى خمس هي : الأطفال، والمدارس، والكبار، والإدارة، والجيش[1].

ويبين الجدول التالي (رقم 5) توزيع المترجمات حسب الفئات التي ترجمت لها:

جدول رقم 5 يبين توزيع المترجمات حسب الفئات المستهدفة

الفئة / الفترة	**أطفال**	مدارس	**كبار**	**إدارة**	**جيش**	**المجموع**

[1]- المرجع نفسه، ص 291.

أما جيهان محمود السيد (أوائل المطبوعات في مصر ...، مرجع سابق، ص88) فقد صنفت أوائل المطبوعات – بما فيها المترجمات – إلى أربع فئات هي: كتب أطفال، وكتب مدرسية، ومطبوعات حكومية، وكتب ثقافية.

العشرينات	–	11	3	2	5	21
الثلاثينات	1	77	16	7	1	102
الأربعينات	2	91	25	13	7	138
الخمسينات	1	50	10	4	9	74
الستينات	6	29	16	10	12	73
السبعينات	4	42	28	6	15	95
الثمانينات	3	31	36	29	11	110
التسعينات	4	43	122	21	1	191
المجموع	21	374	256	92	61	804
النسبة	%2.6	%46.5	%31.8	%11.4	%7.6	%100

ويتبين من الجدول السابق تفوق المترجمات الموجهة إلى المدارس (374 كتابا بنسبة 46.5%)، تليها كتب الكبار، فالمطبوعات الإدارية، فالجيش، فالأطفال. وإن تفوق المترجمات المدرسية أمر طبيعي في ضوء ما رأيناه من اهتمام محمد علي بالتعليم عامة وتعليم العلوم الحديثة البحتة والتطبيقية خاصة، لتأهيل الإطارات في مختلف المجالات تلبية لحاجات دولته الناهضة. وقد أنشئت مطبعة بولاق سنة 1822 "خصيصا لخدمة المدارس ولطبع الكتب الدراسية"[1].

وقد زاد عدد المترجمات الموجهة إلى فئة الكبار زيادة واضحة بداية من الستينات ليصل في التسعينات إلى 122 كتابا (من 256 كتابا وهو مجموع ما ترجم للكبار طيلة القرن أي بنسبة 47.65%) ومن 191 كتابا وهو ما

[1] – جيهان محمود السيد: أوائل المطبوعات في مصر ...، مرجع سابق، ص66.

ترجم في التسعينات بكل الفئات أي 63.8%، تتصدرها كتب الأدب، فكتب التاريخ والجغرافيا والرحلات، فالديانات والعلوم الاجتماعية...الخ، وهو ما يعكس النهضة الثقافية والأدبية النسبية التي عرفها عصر إسماعيل بالخصوص، وتقلص الاهتمام بترجمة كتب العلوم البحتة والتطبيقية بالخصوص.

وبلغت المطبوعات الإدارية أعلى رقم لها في الثمانينات (29 كتابا) وفي التسعينات (21كتابا) مسايرة لتطور حركة تعريب الإدارة والقضاء.

وتناولت المترجمات الموجهة إلى الجيش مجال الفنون الحربية والقوانين العسكرية والعلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية والجغرافيا والتاريخ...

وإن المترجمات الموجهة إلى الطفل – وإن كانت محدودة، إذ بلغ عددها طيلة القرن 21 كتابا بنسبة 2.6% من مجموع المترجمات – دليل على أن حركة الترجمة لم تكن، أحيانا، حبيسة الأطر الصارمة التي حاول محمد علي أن يضعها فيها، وتفاعلت مع مختلف أوجه حركة التأليف والترجمة في أوروبا حينئذ، بل إن محمد علي نفسه قد أمر باقتناء كتب للأطفال سمع أنها مما "يشتاق صغار الأطفال إلى قراءته"، إضافة إلى أن الطهطاوي وتلامذته قد أولوا الترجمة والاقتباس والتأليف للأطفال جزءا من اهتماماتهم.

ويتضح مما تقدم أن حركة الترجمة في مصر في القرن التاسع عشر، وخاصة أثناء حكم محمد علي، قد سايرت الاختيارات الرسمية وكانت في خدمتها، لذا كانت الكتب الدراسية الموجهة إلى طلاب المدارس التي أنشأها الوالي في صدارة المترجمات، واحتلت العلوم التطبيقية والبحتة صدارة العلوم المترجم منها، كما كانت العربية أكثر اللغات المترجم إليها...الخ. وقد خدمت الترجمة تعريب القضاء والإدارة مثلما خدمت الجيش وعلاقات مصر

مع الخارج...الخ. ولئن أصابت الترجمة نكسة خلال عهدي عباس وسعيد فإنها سرعان ما استعادت بعض حيويتها في عصر إسماعيل، لكن المتغيرات الجديدة جعلتها تتجه نحو الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية أكثر من التركيز على العلوم التطبيقية والبحتة، وأصبحت شيئا فشيئا "ترجمة استهلاكية" بعد أن كانت "ترجمة إنتاجية"[1] في خدمة النهضة، وعزلت معها اللغة العربية، بعيد الاحتلال الإنجليزي، عن التعبير العلمي والتقني.

4. أثر الترجمة في الفكر النهضوي:

عندما ندرس العوامل التي أثرت في النهضة وشكلت الفكر النهضوي، من الصعب أن نحدد التأثير الذي اختصت به الترجمة من بين تلك العوامل، وذلك لأن الترجمة كانت عنصرا ضمن حركة أعم هي النقل أو الاقتباس من الغرب كما سبق أن أشرنا. وقد تفاعلت المجتمعات العربية في عصر النهضة مع الحضارة الغربية، وإن بصور متفاوتة، تفاعلا تزايد على مر السنين، وأخذ أشكالا جديدة مع الاحتلال الأجنبي، إلى أن سقطت هذه المجتمعات في التبعية والتغرب والاستيلاب، ولم تستطع الخروج من أسر التخلف، على الرغم مما حققته من بعض التطور المادي. وإذا كان "من الصعب تصور المستوى الحضاري العالي للثقافة الإسلامية – العربية القديمة دون حركة الترجمة لأمهات الأعمال الفلسفية والطبية والعلمية الأخرى من الإغريقية إلى العربية، وكذلك يصعب تصور الحضارة الأوروبية الحديثة دون حركة الترجمة من اللغات العربية واللاتينية والإغريقية إلى اللغات الأوروبية الحديثة، ومن قبل ذلك حركة الترجمة من العربية إلى

[1] انظر: بوعلي ياسين: "موجز الاقتصاد السياسي للترجمة في الوطن العربي"، الآداب، س 47، ع 6/5 (أيار/مايو – حزيران/يونيو 1999)(ص 76 – 80)، ص 77.

اللاتينية..."[1] فإنه من الصعب أيضا تصور النهضة العربية – بإيجابياتها وسلبياتها – من دون حركة الترجمة إلى العربية في لبنان ومصر والعراق وتونس والمغرب وغيرها.

وقد كان رواد النهضة في القرن التاسع عشر واعين لا فقط بدور الترجمة في نهضة الأمم وإنما أيضا بما أحدثته من أثر إيجابي واضح في البلاد العربية، وخاصة في مصر إبان عصر محمد علي وخلفائه. من ذلك أن رفاعة الطهطاوي يشير في سباق تعداده لمآثر محمد علي إلى عناية هذا الوالي بالترجمة وإنشائه "مدرسة للألسن الأهلية والأجنبية، لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الأجنبية، ونتج عنها تكثير المعلومات، وأحرزت ديار مصر منها الفوائد الجمة والمعارف المهمة...[2] وإلى أنه "أنشأ كما سبق مدرسة للألسن، في الأكثر، بقصد ترجمة الكتب الغربية فكانت للوفاء بجل مقصده مجيبة، وترجم فيها كثير من العلوم المتنوعة، ودخل رجالها في الخدمات الميرية، وعادت منهم على البلاد المنفعة...[3].

وهذا الربط بين الترجمة وأثرها الإيجابي في تمدن مصر في عصر محمد علي وخلفائه نجده أيضا عند المصلح التونسي محمد بيرم الخامس (1839–1889) الذي يقول عن محمد علي إنه "شمر عن ساعد الجد

---

[1]– بسام طيبي: "حول حركة ترجمة الأعمال العلمية والأدبية من اللغات الأوروبية إلى العربية ودورها في التاريخ العربي الحديث"، شؤون عربية، 7 (سبتمبر 1981)، (ص116 – 129)، ص 116.

[2]– رفاعة رافع الطهطاوي: كتاب مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، في الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق محمد عمارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973، ج1، ص 438.

[3]– المرجع نفسه، ص 439.

ووافقه البخت وفتح لمصر عصرا جديدا (...) وترجمت الكتب النافعة في فنون شتى إلى العربية فنشأ في مصر جيل جديد وعصر جديد (..)[1].

وقد واصل أعلام الفكر والأدب والثقافة، في ما بعد نهضة القرن التاسع عشر، الاهتمام بالترجمة والدعوة إليها والحث عليها لدورها المؤكد في تحقيق التقدم الفكري والمادي الذي تنشده الأمة العربية. فهذا طه الهاشمي يكتب في مذكراته عام 1919 أنه "لو أرادت الأمة العربية الرقي فلا يصعب عليها أن تؤلف لجنة ترجمة ممن لهم اطلاع ورسوخ في اللغات الأجنبية وفي العربية فتأخذ بترجمة هذه الآثار من غير مجاراة ولا تفريق"[2]؛ وهذا ميخائيل نعيمه يرى في غرباله، سنة 1923، أنه ليس عندنا من الأقلام والأدمغة ما يفي بسد حاجاتنا الروحية، فلنترجم !ولنجل مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى، ولأنه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترها عنا غوامض اللغة، يرفعنا من محيط صغير محدود، نتمرغ في حمأته، إلى العالم الأوسع فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وأفراحه وأحزانه"[3] وفي سنة 1938 كتب طه حسين في "مستقبل الثقافة في مصر "أنه "في حياتنا العقلية تقصير معيب يصيبنا منه كثير من الخزي كما يصيبنا كثير من الجهل وما يستتعبه الجهل من الشر. ولا بد من إصلاحه إن كنا نريد أن ننصح لأنفسنا ونعيش عيشة الأمم

[1]– محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، المطبعة الإعلامية بمصر، 1884 – 1893، ج4، ص 110.

[2] – طه الهاشمي: مذكرات طه الهاشمي 1919 – 1943، تحقيق وتقديم خلدون ساطع الحصري، دار الطليعة، بيروت 1967.

[3]– ميخائيل نعيمة: الغربال، ط7، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1964، (254ص)، ص126.

الراقية، وإن كنا نود أن ننصح للعلم نفسه ونشارك في ترقيته وتنميته، وإن كنا نريد أن ننصح للشعب فنخرجه من الجهل إلى المعرفة، ومن الخمود والجمود إلى النشاط والإنتاج. ومظهر هذا التقصير المخزي إهمالنا الشنيع للترجمة والنقل عن اللغات الأوربية الحية. فما أكثر الآثار العلمية والفنية والأدبية التي تنعم بها الإنسانية الراقية، وما أشد جهلنا لهذه الآثار وغفلتنا عنها ! وما أقل حظنا في الاستمتاع بلذاتها النقية الممتازة. وما أكثر حديثنا عن مجد العرب الأولين حين أقبلوا في شره رائع على آثار الأمم المتحضرة فنقلوها إلى لغتهم، ومزجوها بتراثهم ، وغذوا بها عقولهم وقلوبهم، وكونوا منها حضارتهم[1]. أما أنور عبد الملك فقد أكد في حديثه عن "أهمية الترجمة في نهضتنا الثقافية"أن "الشعور العام هو أن حركة الترجمة عندنا مازالت محدودة الأفق، محدودة الانتشار، أي إنها ليست في مستوى ما نحتاج إليه للإسهام في نهضتنا الثقافية". وهو يرى أن "هدف حركة الترجمة هو تعويض الأجيال المعاقبة التي فاتتنا فيها ركب الحضارة بعد انتقاله من الإسكندرية إلى الغرب في عصر النهضة ثم في عصر الثورة الصناعية. ويكفي أن ننظر إلى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة لنتبين إلى أي مدى مازلنا نفتقر إلى مكتبة مصرية عربية تضع المعارف المعاصرة والعلم الحديث بين أيدي المعنيين بهما في لغتنا القومية"[2].

[1] – طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت 1982، (507ص)، ص 459.

[2] – أنور عبد الملك: دراسات في الثقافة الوطنية، ط1، دار الطليعة، بيروت 1967، (454ص)، ص 180.

وإذا كانت هذه المواقف دالة على سخط هؤلاء الأعلام الأربعة على حال الترجمة العربية في أوائل القرن العشرين وأواسطه، فإنه ليس فيها ما يدل على رضاهم عن أثر حركة الترجمة أثناء عصر النهضة في ما آل إليه حال كالأمة العربية التي أصبح من المتحتم عليها أن تتخذ من الترجمة، مجددا، أداتها التي تعوض بها "ما فاتها من ركب الحضارة"حسب تعبير أنور عبد الملك، وفي ذلك إقرار بأن ما ترجم لم يجسر الفجوة الحضارية والفكرية بين العرب والغرب، ولم "ينقل التراث العالمي الثوري القائم على العلم" كما يقول بسام طيي[1].

لقد كانت الترجمة في عصر النهضة أحد عناصر النقل عن الغرب، ووظفت لخدمة سياسة الحكام ومرافق الدولة. وقد رأينا في ما سبق (الفقرة3) أن الكتب المترجمة في مصر في عهد محمد علي وأحفاده قد استهدفت المدارس (التعليم)، فالكبار (التثقيف العام) فالإدارة، فالجيش، فالأطفال. وفي عام 1838 بلغ عدد المعاهد العسكرية والهندسية والزراعية والطبية وغيرها ما يزيد على 50 مدرسة تضم ما يزيد على 5500 طالبا[2] .

وقد تطور التعليم "حتى قيل إن نظام التعليم في ذلك الوقت لم يكن يختلف كثيرا عنه في غربي أوربا...[3]. وإلى جانب العلوم الدينية واللغوية، أن طلاب هذه المدارس يتلقون العلوم العصرية البحتة والتطبيقية التي لم يكن لمصر وللأزهر عهد بها، مما حتم ترجمة الكتب الدراسية وتجنيد المبعوثين – سواء أثناء دراستهم في أوربا أم بمجرد عودتهم منها – والمتخرجين في هذه

1- بسام طيبي: "حول ترجمة الأعمال العلمية والأدبية..."، مرجع سابق، ص 129.

2- انظر: مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة الأوربية...، مرجع سابق: ص97.

3- انظر: جيهان محمود السيد: أوائل المطبوعات...، مرجع سابق، ص68.

المدارس نفسها للقيام بهذه المهمة. وبذلك ساهمت الترجمة مساهمة كبيرة في تحقيق نهضة تعليمية ساعدت على تأهيل إطارات عسكرية وهندسية وطبية وزراعية وإدارية دخلوا "في الخدمات الميرية، وعادت منهم على البلاد المنفعة" كما قال الطهطاوي. وقد أدت الترجمة دورا مهما في تطوير الإدارة والقضاء وتعريبها وتمصيرهما، خاصة عندما منع الخديوي سعيد استعمال غير العربية في المحاكم، ثم عندما أمر الخديوي إسماعيل في سنة 1869 باتخاذ العربية لغة رسمية في كافة الدواوين.

وإلى جانب هذا الدور الذي قامت به الترجمة في مجال التعليم والإدارة والقضاء وغيرها من مرافق المجتمع وأجهزة الدولة، نود أن نشير إلى بعض ما قامت به في مجال اللغة والأدب والصحافة والفكر السياسي مما ساهم في تشكيل الفكر النهضوي.

فالنسبة إلى اللغة، يجمع كل الذين درسوا أثر الترجمة في اللغة العربية المعاصرة – بمن فيهم الذين يعدون الترجمة أحد أسباب ما تعيشه ثقافتنا المعاصرة من تبعية – أنه كان لها "الدور الإيجابي الفعال (...) في أسلوبنا ولغتنا وأدبنا ونمط تفكيرنا"[1]. فلقد خلصت الترجمة النثر العربي من السجع والجناس والغريب وسائر المحسنات اللفظية وألوان البديع التي كانت سائدة لدى جل كتاب ما سمي بعصور الانحطاط، وأعادت الحياة إلى اللغة

[1]– حنا عبود: "الترجمة والتبعية الثقافية"، الآداب، س 47، ع 5/6 (أيار/مايو – حزيران/يونيو 1999)، (ص 69 – 75)، ص 74.

العربية وجعلتها "تتفاعل، وتتشبث بالحياة، وتسعى إلى استكمال ما ينقصها، لتخدم جميع الأغراض"[1].

وفي الأدب، أدخلت الترجمة المباشرة أو غير المباشرة أهم الأجناس الأدبية التي أصبحت دعائم الأدب العربي في العصر الحديث، أعني القصة والمسرح[2].

وقد كان تأسيس الصحافة العربية من نتائج الاطلاع على الصحف والمجلات الأجنبية – "الجرنالات" أو "الكازيطات" أو "الورقات اليومية" كما سماها الطهطاوي في "تخليص الإبريز..." وغيره – وتقليدا لها، إضافة إلى أنها كانت مجالا رحبا لنشر ترجمات كثيرة لكتب علمية وأدبية. ولا يخفى ما كان للصحافة من دور في تشكيل الفكر العربي ومن تطوير عميق للغة العربية.

أما في مجال الفكر السياسي فلعل من أنصع الأدلة على الدور الذي لعبته الترجمة بعض ما ترجمه زعيم حركة الترجمة في القرن التاسع عشر أعني رفاعة الطهطاوي إن الإجماع حاصل على اختصاص الطهطاوي المترجم والمؤلف والمربي بالريادة من بين أعلام عصر النهضة في القرن التاسع عشر عامة وثلثه الثاني خاصة، وهو – في رأي العديد من الدارسين – "المفكر المعلم بالترجمة" و"أهم أعلام الحياة الثقافية في بداية النهضة العربية الحديثة"و"رائد الفكر العربي الحديث" و"زعيم النهضة الفكرية في عصر محمد علي" و"المبشر بمجتمع كامل جديد تغير فيه أساس السلطة

---

[1]- أنور لوقا: عودة رفاعة الطهطاوي – مراحل استفاقة الفكر في ضوء الأدب المقارن، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة – تونس1997 '262ص)، ص160.

[2]- انظر المرجع نفسه، ص 177 –203.

من الحق الإلهي إلى العقد الاجتماعي، ومعيار الشرعية من الأوتوقراطية إلى حقوق الإنسان، وشعار الدولة من التيوقراطية إلى الديمقراطية"...الخ[1] .
وبصرف النظر عما في هذه النعوت من تمجيد عاطفي لشخصية الطهطاوي وإشادة حماسية بأفضاله على النهضة الفكرية في القرن التاسع عشر، فإن ما يهمنا هنا هو الأثر الذي خلفه، بترجماته المباشرة أو غير المباشرة، في الفكر النهضوي. لقد أقام الطهطاوي في باريس خمس سنوات (1825–1831) قضاها دارسا للغة الفرنسية والعلوم العصرية ومتخصصا في الترجمة من الفرنسية. وهذه السنوات الخمس كونت شخصيته الفكرية، وشكلت مواقفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأثرت في اختياراته الترجمية محتوى وأسلوبا، وهو ما يتضح من أشهر كتبه: "تخليص الإبريز..." والحقيقة أن هذا الكتاب لم يكن تأليفا كله، ففيه صفحات كثيرة مترجمة سواء في الجغرافيا أو الفلك أو حفظ صحة الأبدان أو التاريخ، لكن أهم النصوص المترجمة التي تضمنها هو، دون شك، نص الدستور الفرنسي المعلن سنة 1814. وإعجاب الطهطاوي بالدستور الفرنسي – أو كما يسميه: الشرطة (charte) – إعجاب كبير لما يتضمنه من "العدل والإنصاف" كما يقول. ومن خلال ترجمة الطهطاوي للدستور الفرنسي وتعليقه عليه وشرحه لبعض فصوله تعرف القارئ العربي، لأول مرة، على أفكار ومفاهيم سياسية جديدة أنتجها فلاسفة عصر التنوير ومفكروه، منها أن الأمة مصدر السلطات، وأن الحكم عقد بين الحاكم والمحكوم، وأن

---

[1] – انظر مثلا: سامي خشبة: "رفاعة رافع الطهطاوي: المفكر والمعلم بالترجمة الآداب، 1977/7، ص 39-34

السلطات ثلاث، وأن الحكم المقيد يقتضي الفصل بين السلطات، وأن الشعب – أو الرعية كما يقول – يحكم من خلال مجلس النواب أو ما يسميه هو "ديوان رسل العمالات"...إلى غير ذلك من المفاهيم الحديثة كالانتخاب، وحرية الرأي، والصحافة...الخ[1]. وتلتقي مثل هذه الأفكار والمفاهيم الدستورية والسياسية مع ما تضمنته أنواع أخرى من ترجماته أخصها ترجمة رواية "مغامرات تليماك" لفنلون (Fénélon) التي جعل الطهطاوي عنوانها في الترجمة العربية" مواقع الأفلاك في وقائع تليماك" وقصد بترجمتها أن تعبر عن معارضته لسياسة الحكم المطلق.

وللطهطاوي مساهمات مهمة في ترجمة الكتب التاريخية والجغرافية والقانونية مثل القانون المدني والقانون التجاري الفرنسيين...الخ" ولا شك أن الأجيال التالية للمعلم الأول، قد جاهدت لكي تكمل طريقة، وكان عليها أيضا أن تجاهد ضد ذلك المخطط الذي أرادنا أن نتخلف في طريق المعرفة والحرية. ولعلنا نستطيع في إعادة اكتشاف معنى العمل الذي حققه "جدنا الجليل" أن نعود إلى طريق المستقيم"[2].

الخاتمة:

حاولنا في هذا الورقة أن نعالج العلاقة المتبادلة بين الترجمة والفكر النهضوي تأثرا وتأثيرا، منزلين هذه العلاقة في إطارها الزمني وسياقها التاريخي، ومستشهدين عليها ببيانات إحصائية تتصل بعدد المترجمات ولغاتها ومواضيعها والفئات التي استهدفتها.

---

[1]– انظر: رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الإبريز...مرجع سابق، ص 227 – 240.

[2]– سامي خشبة: "رفاعة رافع الطهطاوي ..."، مرجع سابق، ص38.

لقد بدأت الترجمة العربية في العصر الحديث في لبنان منذ القرن السادس عشر بداية دينية وتبشيرية، وأصبحت في القرن التاسع عشر "علمانية" لمقاومة التتريك بإحياء اللغة العربية واستخدامها لغة تدريس في بعض الكليات العلمية، وازدهرت الترجمة في مصر في القرن التاسع عشر استجابة لحاجة محمد علي وبعض خلفائه إليها في تعليم العلوم تأهيلا لإطارات الجيش والدولة، كما عرفت بعضا من ذلك الازدهار في تونس أثناء حكم أحمد باي ووزارة خير الدين استجابة لنفس الدواعي والأسباب. ولا شك أن أقطارا عربية أخرى، كسوريا والعراق والمغرب، قد عرفت نشاطا مماثلا إبان القرن التاسع عشر الذي وصف بأنه "عصر النهضة العربية". وقد اتضح مما سبق أن النخبة السياسية والفكرية في القرن التاسع عشر قد علقت آمالا كبيرة على الترجمة خاصة، والاقتباس من الغرب عامة، في إحداث التغيير الذي يبني الدولة ويحقق المناعة ويعصم من التسلط والاحتلال الأجنبيين. كما اتضح أنه كان لجهود النخبة الفكرية ولتأهيل المترجمين عبر البعثات إلى الخارج وإنشاء المدارس المتخصصة والحزم في الإنجاز دور كبير في تحقيق حركة الترجمة للمهام التي أنيطت بها والأهداف التي رسمت لها، وهو ما قد يتبين من عدد الكتب المترجمة ولغاتها ومواضيعها والجمهور الذي استهدفته من جهة، وبعض ملامح تأثير الترجمة في مجالات التعليم والإدارة والقضاء واللغة والأدب والفكر السياسي...الخ من جهة أخرى.

على أن تقييم أثر الترجمة في الفكر النهضوي لا يمكن أن يتم بمعزل عن تقييم النهضة نفسها، لأن الترجمة مكون من مكونات النهضة وعنصر من عناصر الدينامية النهضوية ومقوم من مقوماتها. وقد اختلف الدارسون في

تقييمهم لنهضة القرن التاسع عشر عامة، وللنموذج النهضوي المصري في عصر محمد علي وخلفائه خاصة، وإن كان هذا التقييم سلبيا في غالبه. فقد وصفت النهضة العربية الحديثة بأنها "لم تكن حتى الآن نهضة بالمعنى الجدي لمفهوم النهضة" وإنما كانت" نهضة سطحية ذات طابع دفاعي أمام الغزو الإمبريالي، وحتى الآن لم تتحرك هذه النهضة من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم، وقد أخذت أحيانا أشكالا لا عقلانية، منها نفض الغبار عن حضارة الأجداد للتباهي أمام الحضارة الإمبريالية الغربية بأن العرب كان لهم أيضا ماض مجيد"[1]. ومن نتائج هذه "النهضة السطحية" في مجال الترجمة أن الأفكار الجديد هزت "ركائز المجتمع العربي في عصر النهضة دون أن تعطي الترجمة ثمارا يانعة كما تم في العصر العباسي"[2]، و"أن أمهات الكتب التي أسست حركة الفكر والحداثة العقلية في أوربا منذ ثلاثمائة سنة وحتى اليوم لا تزال تنتظر من يترجمها أو يلخصها أو يعرفها بشكل من الأشكال في لغتنا"[3]. وفي هذا السياق يؤخذ على الترجمة في القرن التاسع عشر عامة وفي مصر خاصة أنها لم تنطلق من حاجيات المجتمع العربي الحقيقية، وأن"أغلب البعثات التي أوفدها محمد علي"ركزت على أفكار القرن السابع عشر والثامن عشر لأوربا البرجوازية، ولم تتعرض للتعريف بأوربا الثورية، في الوقت الذي كانت فيه الرأسمالية تدخل مرحلة الانتقال إلى

1- بسام طيبي: "حول حركة ترجمة الأعمال العلمية والأدبية..."، مرجع سابق، ص 117.

2- مسعود ضاهر: "الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان والوطن العربي"، الوحدة، س6، ع62/61 (أكتوبر – نوفمبر 1989)، ص (45 –56)، ص 52.

3- هاشم صالح: "دور الترجمة في تشكيل الفكر العهربي المعاصر"، الوحدة س6، ع62/61 (أكتوبر – نوفمبر 1989)، ص (20 – 29)، ص 22.

النظام الاحتكاري، وتتهيأ للصراع على المستعمرات، وهو ما لاحظه عبد الله النديم بدقة، فوصفهم بأنهم عادوا غرباء عن أمتهم"[1].

والحقيقة أن الحكم للترجمة في عصر النهضة أو عليها رهين بموقفنا من النهضة نفسها، وبنوع تقييمنا لعلاقتنا بالغرب وموقفنا منه، وهي قضية طرحت، منذ نهاية القرن التاسع عشر، لدى زعماء الإصلاح. وإذا كان جمال الدين الأفغاني (1838 – 1879) قد نعى على المصريين تقليد الغرب وإنشاء المدارس على الطراز الأوربي وإرسال البعثات إلى أوروبا قائلا: "شيد العثمانيون المصريون عددا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدنا، وهو في الحقيقة تمدن البلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع المدني"[2]، فإن علما آخر من أعلام الإصلاح والنهضة هو الأمير شكيب أرسلان (1871-1946) يشيد بدولة محمد علي الذي حمل الأمة على طلب العلوم قائلا: "ولم يكن محمد علي عالما وربما كان أميا، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الأعلى الذي هو العقل السليم والإرادة، وهو الذي يبعث صاحبه إلى التفتيش عن العلوم وحمل الأمة عليها"[3].

---

[1]- محمد حافظ دياب: "الترجمة وأسئلة النهضة"، مرجع سابق، ص 37.

[2]- جمال الدين الأفغاني: ماضي الأمى وحاضرها وعلاج عللها، العروة الوتقي، دار الكتاب العربي، بيروت 1970، ص 54.

[3]- الأمير شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، مكتبة الحياة، بيروت (د.ت)، (167ص)، ص 164.

انعكاسات حركة الترجمة على وضع اللغة العربية الحالي

أ. طاهر ميلة

تعد الترجمة بالنسبة لأي أمة، تريد النهوض والمشاركة في صنع الحضارة الإنسانية، البنية القاعدية، لأن بداية هذا النهوض مرهونة بالاطلاع على ما هو موجود عند الأمم الأخرى التي أسهمت في تطور العلوم والفنون وأساليب العمل والتسيير في مختلف مجالات الحياة. وقد يكون تأثير هذا الاطلاع محدودا على حياة الأمة، إن اقتصر على فئة صغيرة من أفراد المجتمع، لها حظ امتلاك اللغات الأخرى، لذلك نجد الأمم المتحضرة قديما وحديثا، تنقل هذه المعارف إلى لغاتها ليتمكن معظم أبنائها من المشاركة في هذه النهضة. وقد استوت في ذلك الأمم المتقدمة للاحتفاظ بتقدمها، وتلك التي لها الرغبة في التقدم بغية اللحاق بالركب.

قد أدرك العرب قديما وفي العصر الحديث أهمية الترجمة ودورها في التنمية الشاملة، فهي تمثل عندهم منذ عقود انشغالا كبيرا، ويتجلى هذا الانشغال في عدد المؤتمرات والندوات والموائد المستديرة التي نظمت هنا وهناك لدراسة هذا الموضوع من جوانبه المختلفة ([1]).

ولعل الأسباب الرئيسة في هذا الاهتمام ترجع بالدرجة الأولى إلى الرغبة في التحسيس بأهمية الترجمة، كأداة من الأدوات الهامة في نشر المعرفة، ودعامة من دعائم التنمية. وما أحوج العالم العربي اليوم إلى نقل ما عند الغير لينمو ويساهم بقسط في الحضارة المعاصرة، نظرا للهوة الشاسعة التي تفصله عن العالم الغربي. وترجع هذه الأسباب من جهة ثانية إلى تشخيص واقع الترجمة في العالم العربي، بهدف الوقوف على عوامل الضعف و القوة فيها، والبحث عن الحلول التي من شأنها أن تدفع حركة الترجمة إلى الأمام.

ولقد انتهت هذه اللقاءات العلمية، القطرية منها أو العربية المشتركة التي حضرناها أو قرأنا عنها، فيما يتصل بالنقطة الأولى إلى أن الترجمة وسيلة أساسية لا غنى عنها، إذا أردنا أن ننهض بأمتنا، لأن الشهادات التاريخية بينت أن الأمم التي تقدمت هي التي لقحت معارفها بما عند غيرها من الأمم عن طريق الترجمة. وإذا كان هذا هو الأسلوب المتبع في العهود القديمة، فإن هذا الطريق يصبح أكثر من ضرورة في هذا العصر الذي أضحى فيه العلم هو أساس النهضة والتنمية في جميع مناحي الحياة.

---

[1] – تعقد سنويا في الجزائر على سبيل المال في المدة الأخيرة ملتقيات وندوات حول الترجمة وخاصة في المجلس الأعلى للغة العربية في جامعتي الجزائر ووهران

أما الخلاصة فيما يتعلق بالنقطة الثانية أي تشخيص واقع الترجمة في العالم العربي، فقد أظهرت ضعف حركة الترجمة في مجال العلوم والتقنيات من حيث الكم والنوع، والأسباب في ذلك كثيرة ومتعددة، لأن مشكلة الترجمة هي نتيجة عدة مشاكل أخرى، بعضها مرتبط بوضع العالم العربي في عصرنا الحالي في المستويات السياسية الاقتصادية والثقافية وغيرها، وبعضها الآخر له علاقة بالترجمة في حد ذاتها، كفن من الفنون.

من الصعب الإحاطة بكل هذه الجوانب في هذا المقام، لذا أحاول أن أركز على واقع الترجمة الحالي وعلى بعض انعكاساته السلبية على وضع اللغة العربية والعوامل التي أدت إلى هذا الوضع، وأختم العرض بعدد من الاقتراحات التي قد تسهم في التغلب على هذه الصعوبات التي تقف في وجه العاملين في هذا الحقل المعرفي الحيوي بالنسبة للأمة العربية.

واقع الترجمة الحالي:

فمما لا شك فيه أن جهود العرب في الترجمة في العصر الحديث تعود إلى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، إذ شرع آنذاك في نقل عدد من المعارف وإنشاء بعض اللجان والمؤسسات، والبدء في تدريس العلوم بالعربية([1]). ثم وقع فتور، وخاصة في فترات الاحتلال، لكن الاهتمام بالترجمة كهدف ظل قائما، ويظهر ذلك على وجه الخصوص بعد الحرب العالمية الثانية في مثل ما قامت به بعض الهيئات مثل جامعة الدول

---

[1] – عبد اللطيف عبيد، الترجمة في الفكر النهضوي العربي، المؤتمر العربي الأول، " النهوض بالترجمة "، من تنظيم المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2002.

العربية التي أشارت إلى أهمية الترجمة منذ سنة 1945 ([1]) أو ما قامت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعد ذلك من إعداد خطة للترجمة، وإنشاء عدد من المؤسسات للقيام بالترجمة كمركز التعريب والترجمة في سوريا، وبتكوين المترجمين ذوي الكفاءة العالية كالمعهد العالي للترجمة بالجزائر، فضلا عن مختلف المؤسسات واللجان القطرية الكثيرة، كما هو حال الجزائر أو غيرها من البلدان العربية ([2]).

أما الترجمة كممارسة يومية ونشاط فعلي فهي حقيقة ملموسة في جميع الدول العربية، ولاسيما فيما يتصل بالمسائل الإعلامية والسياسية والإدارية، وتقوم بهده الترجمة المنصبة غالبا على عقود وقرارات وملفات ووثائق إدارية لجان في مختلف الوزارات، والمؤسسات التي توظف عشرات خريجي الجامعات سنويا ([3]).

غير أن حركة ترجمة الكتب العلمية والتقنية والأدبية محدودة جدا بالمقارنة بما تترجمه الدول المتقدمة، بل والأقل تقدما، إذ تشير بعض الدراسات والإحصاءات التي أنجزت هنا وهناك في العالم العربي أو حوله إلى وجود نقائص كثيرة، من حيث الكم على وجه الخصوص، وكذلك من حيث نوع ما تمت ترجمته.

---

[1] شوقي جلال محمد، تقرير المسح الميداني لوضع حركة الترجمة الراهن في الوطن العربي، الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية،الطبعة الأولى، بيروت، 2000،ص 84.

[2]– نفي بن عيسى، واقع الرجمة في الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985، ص 51.

[3] – حنفي بن عيسى، المصدر نفسه، ص 50.

فمن حيث الكم يوجد تفاوت كبير بين قطر عربي وآخر حسب دراسة قدمها شوقي جلال محمد في ندوة " نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة" التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية سنة 1998 ([1])، فهناك من يترجم – حسب هذه الدراسة – ما يقرب من 400 كتاب سنويا كجمهورية مصر مثلا، وهناك من لا يتعدى معدل عشرة كتب في السنة ([2])، وهناك بلدان لم تشر إليها هذه الإحصاءات، سواء لانعدام ترجمة الكتب العلمية فيها، أم لنقص الوثائق التي تبين وجود الترجمة.

وإذا قارننا ما يترجم في العالم العربي بما هو موجود في غيره من البلدان، مثل اليابان وغيرها، أو أقل تقدما مثل إسرائيل واليونان، يظهر بوضوح ضعف حركة الترجمة في العالم العربي ([3]) . وقد صاحب هذا الضعف ضعف في التأليف في العالم العربي، والمقارنة التي أجريت بينه وبين ما ينشر في عدد من البلدان تبين ذلك ([4])، وهي نتيجة منطقية، لأن نشاط حركة التأليف غالبا ما تأتي بعد نشاط الترجمة. فالتأليف الجيد يأتي بعد الاطلاع على ما هو موجود عند الغير حتى يضيف إلى المعرفة شيئا جديدا، وهكذا كان وضع أسلافنا، إذ كثر التأليف عندهم بعد نشاط الترجمة

---

[1] – مصدر سابق.، وانظر أيضا محمد رشاد الحمزاوي، من قضايا الترجمة بالمغرب العربي، في " مساهمة اللغة العربية في التواصل والتضامن والوحدة بين أقطار المغرب العربي، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2003. ص 231 فما فوق، وكذلك شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، تونس 1988، ص 113 فما فوق.

[2] – المصدر نفسه، ص ص 79، 95.

[3] المصدر نفسه، ص 97.

[4] – المصدر نفسه، ص 98.

الذي عرفوه([1])، وكذلك هو وضع البلدان المنتجة للمعرفة في عصرنا الحالي، لأن هذه المعرفة لا تنتج في بلد واحد ولا بلغة واحدة.

ومما انجر عن ضعف حركة الترجمة والتأليف ضعف آخر، يظهر في خمول حركة البحث العلمي وركود الحياة الاقتصادية، رغم عدد الجامعات ومراكز البحث العلمي الذي يعد بالمئات في العالم العربي ([2]).

قد تكون الأرقام الواردة في الدراسة السابقة غير دقيقة، نظرا لصعوبة عملية المسح الميداني، أو لقدم الوثائق المعتمدة، إذ يرجع معظمها إلى الثمانينات وما قبلها ([3])، غير أن ذلك لا ينفي حقيقة ضعف حركة الترجمة والتأليف والبحث العلمي في العالم العربي. ويؤكد هذا الوضع تقرير برنامج الأمم المتحدة حول التنمية البشرية في العالم العربي الذي نشر في أكتوبر 2003، إذ لا يترجم في كل العالم العربي– حسب هذا التقرير– أكثر من 330 كتابا في السنة، أي خمس مرات أقل مما يترجم في بلد كاليونان الذي لا يتعدى عدد سكانه أحد عشر مليونا، كما لا تتعدى نسبة إنتاجه من الكتب 1،1 بالمئة مما ينشر في العالم، و18 بالمئة منها هي كتب دينية. أما عملية تسجيل براءات الاختراع فهي شبه منعدمة.

---

[1] – محمد مراياتي في مناقشة ورقة يوسف زيدان حول الترجمة في التراث العربي، الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة. مصدر سابق.

[2] – انظر عدد مراكز البحث في تقرير التنمية البشرية حول العالم العربي للأمم المتحدة لسنة 2002.

[3] – عبد الرحمن أحمد الأحمد في مناقشة ورقة شوقي جلال محمد حول المسح الميداني لحركة الترجمة في الوطن العربي، مصدر سابق، ص 114.

وإذا نظرنا إلى حركة الترجمة من حيث النوع، فإننا نجد أن معظم ما ترجم هو في العلوم الإنسانية والآداب ([1])، وهو عكس ما قام به العرب قديما، ربما لأنهم استغنوا بما عندهم من فنون القول، أو لأنهم أدركوا علاقة الأدب بما يسمى الآن بالهوية والخصوصية. ولا يعني هذا أننا لسنا في حاجة في الوقت الحاضر إلى نقل الآداب والعلوم الإنسانية، لأن فيها من الجديد ما نحن في أمس الحاجة إليه، لكن الميادين العلمية والتقنية هي التي نحتاج إليها أكثر فيما أرى، بالنظر إلى افتقارنا إليها. وهذا مظهر من مظاهر ضعف التخطيط، لذلك تساءل البعض في عدد من المناسبات عن الأولويات في الترجمة، نظرا لغزارة الإنتاج العلمي والتقني وتعدد مجالاته، وعن الفئات الاجتماعية التي هي في حاجة إلى الكتب والوثائق المترجمة أكثر من غيرها...

وقد يرجع سبب الاهتمام بترجمة العلوم الإنسانية والآداب– وهو الأرجح – إلى كون هذه العلوم تدرس باللغة العربية في مختلف مراحل التعليم وخاصة في الجامعات. فالحاجة إلى إثراء مضامين هذا التعليم هي التي استدعت تلك الترجمة التي تنشط غالبا وتزدهر حيث توجد المؤسسات الداعية إلى تشجيعها [2].

---

[1] – انظر في هذا الموضوع:

– قائمة الكتب التي ترجمها المجلس الأعلى للثقافة والمنشورة بعنوان المشروع القومي للترجمة بإشراف جابر عصفور.

– قائمة الكتب المترجمة في الجزائر التي جمعها حنفي بن عيسى، مصدر سابق.

– جلال محمد شوقي جلال، مصدر سابق، ص ص 61، 79

[2] – شوقي جلال محمد، مصدر سابق، ص 86.

إن قارئ الكتب المترجمة يجد فيها الجيد ولا شك، ولكنه يجد فيها أيضا الكثير من الرديء، مما ينجر عنه عدم الفهم ([1]). وقد لا يفهم سبب رداءة الترجمة إذا كان لا يعرف النص الأصلي. أما إذا عرف هذا النص، فإنه يدرك أسباب الغموض، ومن أهمها الترجمة الحرفية التي تؤدي إلى ظهور تراكيب وأساليب ليست عربية، وكذلك المشاكل الناتجة عن الجوانب الاصطلاحية؛ كالتوليد العشوائي للمصطلحات، وإن سبق أن اقترح لبعضها مقابلات، وقلة التوحيد، وعدم إدراك المفهوم وعلاقته بشبكة المفاهيم الأخرى في نفس الحقل المعرفي. وينتج عن هذه المشاكل كلها وغيرها الغموض الذي ينفر القارئ ويدفعه إلى البحث عن بعض البدائل مثل الرجوع إلى النص الأصلي، حتى ولو كان زاده في اللغة التي كتب بها النص الأصلي قليلا. ولعل أهم أسباب ضعف الترجمات يعود إلى كون ما ترجم قام به أشخاص يعرفون اللغة الأجنبية في حدود معينة، فضلا عن معرفتهم للعربية، وتنقصهم خبرة الترجمة كفن، لا يكتسب إلا بطول المدة والممارسة المستمرة، أو قد تنقصهم الخبرة بموضوع الكتاب المترجم. وهو الأمر الذي يطرح موضوع المترجمين المتخصصين.

ومما يلفت الانتباه أيضا من حيث نوع الترجمات، ترجمة الكتاب الواحد أكثر من مرة، بل أحيانا عدة مرات، وقد يكون السبب في ذلك سوء الترجمة السابقة، وهو أمر منطقي، لكن عندما تكثر الترجمات لكتاب واحد، وعشرات

---

[1] – المصدر نفسه ص 111، وانظر أيضا:

– الشيخ بوقربة: ترجمة المصطلح في العلوم الإنسانية، أهمية الترجمة وشروط إحيائها، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004، ص 283 فما فوق.

– قائمة مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، إشراف الأستاذ الدكتور جابر عصفور ، 2003.

الكتب الأخرى في نفس الموضوع لم تترجم، فالأمر يرد إلى الفوضى وعدم التنسيق بين المترجمين في البلدان العربية([1]).

واقع اللغة العربية في ضوء حركة الترجمة:

من الأمور المسلم بها أن حركة الترجمة كانت من العوامل الهامة في تطور اللغة العربية وتنوع مضامينها في القديم وفي عصر النهضة العربية الحديثة، إلا أن ضعف هذه الحركة في العقود الأخيرة انعكس بالسلب على واقع استعمال اللغة العربية، خاصة في الميادين العلمية والتقنية، أي أنها ضعيفة في الميادين التي ضعفت فيها الترجمة أكثر.

فقلة ما يترجم إلى العربية في هذه الميادين، أفقرت مضامين اللغة العربية وأعاقتها عن مسايرة مقتضيات هذا العصر، ويتجلى ذلك في ندرة الكتب العلمية والتقنية ذات القيمة العلمية الكبيرة، وفي المجلات المتخصصة ذات المستوى العالمي، وهو ما أدى بالمسؤولين على التعليم العالي – ربما – إلى سد هذا العجز بتبني سياسة تدريس العلوم والتقنيات في الجامعات والمدارس العليا المتخصصة باللغات الأجنبية، لوفرة التوثيق العلمي والبيداغوجي في هذه اللغات.

إن مثل هذا الحل ضروري إذا كان ظرفيا، لأنه يبقي على الصلة بما يجري في العالم من تطور علمي وتقني. أما إذا دام هذا الإجراء وأعتبر حلا نهائيا، فلا أظن أنه يخدم الأمة على المدى الطويل، لأنه يبقي على فقر مضامين اللغة العربية، بل ويزيد من فقرها ويقلص من مجالات استعمالها،

---

[1] – انظر عدد الترجمات لكتاب" دروس في اللسانيات العامة " لفردنان دو سوسور.

فضلا عن كثير من المشكلات ذات الصبغة البيدغوجية، مثل صعوبات اكتساب العلوم والتقنيات بهذه اللغات، إلى جانب عدم استثمار مكتسباتهم اللغوية في العربية، وخاصة ما تعلموه من مصطلحات علمية.

وهذا من شأنه أن يحرم هذه اللغة من أن تكون أداة أساسية من أدوات نشر الثقافة العلمية بين الناطقين بها، باعتبارها اللغة الأم، ولغة التدريس الأولى في مراحل التعليم القاعدي والثانوي، كما يمكن أن يؤدي هذا الوضع – إن استمر – إلى رسوخ انطباع لدى عامة الناس، وقد سبق للبعض أن اقتنع به منذ سنوات، وهو أن العربية لا تصلح إلا في المجالات الأدبية والدينية، وهو ما يرفضه المنطلق وتجارب هذه اللغة الناجحة عبر تاريخها الطويل.

فإذا نظرنا إلى البلدان المتقدمة نجد أن لها لغات أساسية منمطة وموظفة في جميع مناحي الحياة المادية والروحية. وقد يكون ذلك من الأسباب الأساسية في رقيها، لأن المسائل اللغوية تكتسب في المراحل الأولى من التعليم وأثناء الممارسة اليومية في مجالات الحياة اليومية والمهنية، لتتفرغ أذهان أبنائها في المراحل المتقدمة من التعليم والتكوين وفي مخابر البحث إلى فهم مضامين ما يكتب ويقال في هذه اللغات، وإثراء هذه المضامين بما يصلون إليه من نتائج، بدل الوقوف عند المشكلات اللغوية في كل مراحل التعليم، كما هو حالنا في هذا العصر، إذ يستمر تعليم اللغة سنوات طويلة دون بلوغ الأهداف التي سطرتها الوزارة المعنية بهذا الموضوع.

أما انعكاس ضعف الترجمة من حيث النوع على اللغة العربية، فهو يؤكد الانطباع الذي أشرنا إليه سابقا، إذ يدفع الناس الذين يحسنون اللغات الأجنبية إلى الإقبال على قراءة الكتب في لغاتها الأصلية، بسبب غموض النصوص المترجمة، وهو أمر مفيد في حد ذاته، ولكنه يكون على حساب اللغة العربية، ولصالح اللغات الأجنبية التي يتسع انتشارها يوما بعد يوم، ولاسيما في السنوات الأخيرة، لأنها لغات التكنولوجيات الجديدة، وبالتالي اللغات المطلوبة أكثر في سوق اللغات، وفي سوق العمل أيضا، وهو الأهم بالنسبة للباحثين عن الشغل.

فتعليم اللغات الأجنبية في جميع مراحل التعليم، قصد معرفة ما وصلت إليه الأمم المتقدمة مسألة ضرورية، لكن شريطة أن تكون نتيجة هذا الجهد تصب في صالح العربية، وفي إثراء محتوياتها، أما إذا كان تعليم اللغات الأجنبية يؤدي إلى انتشار اللغات الأجنبية على الألسنة وفي الكتابات، فهذا يخدم هذه اللغات أكثر من غيرها، لأنها سوف تحتكر التعبير عن بعض المجالات التي تفتقر إليها اللغة العربية، وهو وضعنا الحالي، ولأنها تزيد من عدد الناطقين بها، وهما مقياسان من المقاييس المعتمدة في تصنيف مدى حيوية اللغات وانتشارها في العالم.

فالتعليم لا يكون ناجحا بدون اللغة الأم، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة وسيلة تدريس ذات فعالية، وخاصة في التعليم العالي، إذا كانت مضامينها فقيرة وإعدادها البيداغوجي ضعيفا، وهو حال اللغة العربية اليوم في التعليم العالي، لذلك لابد من وسيلتين متكاملتين هما الترجمة لإثراء محتويات اللغة العربية في المجالات العلمية والتقنية على وجه الخصوص، و تعليم اللغات

الأجنبية لضمان الصلة بالغير. ولا يمكن لأحدى الوسيلتين أن تعوض الأخرى إذا أردنا الحلول الجذرية، والتنمية الشاملة في المدى البعيد.

عوامل الضعف:

يمكن تقسيم عوامل ضعف حركة الترجمة في العالم العربي إلى مجموعتين؛ مجموعة العوامل العامة المتعلقة بالأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية السائدة في العالم العربي، ولها تأثير غير مباشر على واقع الترجمة الراهن. فانتشار الأمية، وقلة المقروئية؛ وصعوبة انتقال الكتب بين الدول العربية، سواء كانت مترجمة أم مؤلفة، بسبب اختلاف الأنظمة السياسية، وانخفاض القدرة الشرائية لدى القراء. كل هذه العوامل مجتمعة أثرت سلبا على حركة الترجمة، والتأليف معا، لأن مكانة الثقافة والعلم تأتي في مؤخرة الأولويات بعد الانشغالات السياسية والأمنية والاقتصادية لدى المسؤولين. ويمكن أن نضيف إلى هذا النوع من العوامل غزارة الإنتاج العلمي والتقني المتزايد يوما بعد يوم، مما ثبط العزائم وجعل البعض يتساءل ماذا نترجم؟ وماذا نترك؟

وهناك عوامل شديدة الصلة بالترجمة كفن ونشاط علمي وثقافي مثل غياب سياسة تكوين مترجمين متخصصين بالأعداد المطلوبة وبالنوعية الرفيعة، ليس بغرض التكفل بالترجمة والترجمة الفورية في المحافل الدولية والمسائل الديبلوماسية والإدارية فقط، بل لترجمة أمهات الكتب العلمية والفنية والأدبية إلى اللغة العربية. غير أن أهم عامل في ضعف حركة الترجمة هو تدريس العلوم والتقنيات في التعليم العالي والمعاهد المتخصصة باللغات الأجنبية، لأن المستهلك الكبير للكتب المترجمة، بصفة منتظمة

ودورية هو هذا القطاع الهام، ويمكن القول إن اللغات الأجنبية عوضت الترجمة كوسيلة للتفتح على العالم. وهناك بعض العوامل اللغوية التي أثرت في الترجمة، منها عدم تنظيم المصطلحات التي سبق أن ولدت بكيفية يسهل الحصول عليها، ومنها ندرة هذه المصطلحات في بعض العلوم والتقنيات الرائدة، لكن هذه الصعوبات ستزول بمرور الوقت، لأن تاريخ الترجمة بين أن نوعيتها كانت ضعيفة في البداية، ثم تحسنت مثلما حدث في بدايات تاريخ الترجمة عند العرب.

الآفاق:

لقد كان أسلافنا في موقع قوة ومع ذلك أعطوا للترجمة أهمية كبيرة، إذ ترجموا ما يلائم حضارتهم وأسهموا بذلك في الحضارة الإنسانية باعتراف غيرهم، أما الآن فالحاجة إلى الترجمة أشد، بالنظر إلى ما عليه غيرنا، وما نحن فيه من التخلف الذي قد يؤثر على حركة الترجمة على المدى القريب؛ أو المتوسط؛ إن لم توضع بعض الإجراءات المستعجلة، لكن مما لا شك فيه أن هذه الحركة ستنمو وتزدهر عندما تزول العوامل التي عرضناها باختصار شديد، لأن انتعاش الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية سيؤدي بالضرورة إلى حركة مماثلة في الترجمة، وفي غيرها من المجالات، لأن هذه الأخيرة تصبح حاجة ملحة في مجتمع يريد التفتح على العالم والمساهمة في إنجازاته مع الرغبة في المحافظة على خصوصياته وانتمائه.

فإذا كان لابد من ذكر بعض الحلول الإجرائية الأولية فهي تكمن في تدريس العلوم والتقنيات باللغة العربية. قد يقول قائل إن العلوم والتقنيات في سرعة كبيرة وتطور مستمر، فلا يمكن ترجمتها كلها، لذلك لابد من اللغات

الأجنبية، وهو قول معقول، إذا عد مثل هذا الحل حلا ظرفيا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لكنه ليس حلا يخدم الأمة على المدى البعيد، لذلك أرى الاحتفاظ باللغات الأجنبية في التخصصات العلمية الرائدة، وتكنولوجيات الاتصالات الحديثة وتدريس العلوم الأساسية باللغة العربية في جميع مراحل التعليم، ريثما تحضر المصطلحات والمعاجم المتخصصة، وغيرها من الوسائل التعليمية الأخرى؛ كالكتب العلمية والتقنية ذات القيمة العالية، والمجلات المتخصصة، وسائر الوسائل المساعدة في التدريس.

فالتشخيص قد أنجز وعوامل ضعف الترجمة قد عرفت، والخطة محضرة، قد تحتاج إلى مراجعات أخرى بعد التي عرفها في السابق، والحلول مقترحة هنا وهناك([1])،فلم يبق سوى الشروع في التنفيذ، وكثير من المشاكل الجانبية التي تعترض سير الترجمة ستزول أثناء عملية التنفيذ.

1– أرجع إذا أردت التفصيل مثلا إلى:

- الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة، مصدر سابق، ص 391 فما فوق.
- أهمية الترجمة وشروط إحيائها ، مصدر سابق، ص 55 ما فوق

المصادر والمراجع المعتمدة:

- مركز دراسات الوحدة العربية، الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2000.

- شحادة الخوري، الترجمة قديما وحديثا، تونس 1988.

- المجلس الأعلى للغة العربية،

-أهمية الترجمة وشروط إحيائها، ، الجزائر، 2004.

- مساهمة اللغة العربية في التواصل والضامن والوحدة بين أقطار المغرب العربي، الجزائر، 2003.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، دراسات عن واقع الترجمة في العالم العربي تونس، 1985.

- جابر عصفور، قائمة مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 200.

- المنظمة العربية للترجمة، وثائق " المؤتمر العربي الأول: النهوض بالترجمة"، 28-29 كانون الثاني، يناير 2002، بيروت.

- تقرير هيئة الأمم المتحدة حول التنمية البشرية في العالم العربي، نشر في أكتوبر 2003.

معجم المبرق
"دراسة وصفية تحليلية"

د. صالح بلعيد

مقدمة: سعيد جداً بحضوري هذه الندوة التي يقيمها المجلس الأعلى للغة العربية لمناقشة مولود علمي إعلامي ضخم، وهو "المبرق" قاموس موسوعي للإعلام والاتّصال. وتزداد سعادتي عمقاً كوني عضواً في لجنة جائزة اللغة العربية لسنة 2001، التي فاز فيها هذا العمل بجائزة اللغة العربية. ومن خلال ذلك باركت العمل وهو مخطوط، كما حمدت خطوات المجلس أثناء السعي لطبعه، وكنت مسروراً عندما أُعلمتُ بأنّ المجلس الأعلى للغة العربية يعتزم عقدَ ندوةٍ علمية لمناقشة العمل بحضور صاحبِه، فاقترحتُ نفسي أحدَ المشاركين في الندوة.

ومن خلال هذا ستكون مداخلتي ضمن المنهجية التالية:

أولاً: وصف المعجم: وعنوانه المُبرق قاموس موسوعي للإعلام والاتّصال فرنسي_ **عربي**. يحتوي على 811 صفحة من القطع الكبير، زائد 5 صفحات تخصّ التصدير للأستاذ محمد العربي ولد خليفة، وتقديم الأستاذ زهير إحدادن في الجانب العربي، واستهلال للأستاذ فضيل شريڤان في الجانب الفرنسي. والمقدّمة بالعربية مرقّمة ألفبائياً من حرف الألف إلى حرف الشين، ويكون المجموع= 824 صفحة. يشمل على عدد مقبول من المداخل، وهذا الكمّ يعمل بها مكتب تنسيق التعريب في إصداره المعاجمَ الموحّدةَ. ينطلق العمل برسم الجذور الأصلية من اليسار؛ لأنّ اللغة المأخوذ منها الفرنسية؛ حيث سلك الترتيب الألفبائي في تنظيم المداخل الأصلية، مع توظيف الرسوم التوضيحية.

إنّ هذا العمل هو ثاني منشورات المجلس الأعلى للغة العربية في المعاجم (الثنائية اللغة) بعد معجم المصطلحات الإدارية (عربي/ فرنسي_فرنسي/عربي) الصادر سنة 2000. اتّخذ المؤلّف اللغةَ الفرنسية أساساً، ويتمّ التعريب أو النقل أو الترجمة إلى العربية. وذكر صاحب الكتاب رمزين اعتمدهما في العربية هما: ج (جمع) و= (يرادف) وثلاثة وثلاثين رمزاً (33) باللغة الفرنسية، وألحق هذا بتعريب المختصرات بالفرنسية؛ وعددها اثنان وثلاثون مختصراً (32). ولقد حاول المؤلّف في مقدمة العمل أن يشرح بعض الأمور اللغوية من باب توجيه القارئ، مثل قوله: تعمّدنا تقديم المضاف إليه على المضاف، أو الصفة على الموصوف، وكان يشرح المصطلحات في المتن أحياناً بمرادف، وأحياناً بمركّب، أو بجملة وأحياناً

بفقرة أو فقرتين، كما أشار إلى الفئة المستهدفة المتمثّلة في الطلبة والباحثين المهتمين بالإعلام.

لقد مسّ صاحب الكتاب المصطلحَ الإعلامي وعلاقتَه بالدلالة الإعلامية والاتّصالية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والسياسية والبلاغية والفنية واللسانية والسيميولوجية، فهي حقول كبيرة ومتنوّعة، وعددها سبعة عشر حقلاً، ويحتاج كلّ حقل إلى فرق عمل كبيرة، تعضد بعضها البعض ليخرج العمل راقياً. ولكن صاحبَ العمل قمّش مادته بجهود فردية، وأشار إلى أنّ الهدف منه هو خدمة الترجمة، وإثراء المكتبة العربية، وإفادة طلبة العلوم الإنسانية بمصطلحات حديثة في مجال الإعلام.

لقد عمل صاحب الكتاب ما وسعه الجهد لأن يرقى عمله؛ حيث كثّف جهوده للخروج من النمطية التقليدية بسرد المصطلحات ووضع مقابلاتها، بل اجتهد منقّباً عن كلّ كلمة أو عبارة لشرحها وتوصيلها للقارئ في مختلف المظان، متبوعة بمجموعة من الأشكال والرسوم والبيانات، وكان عددها كما يلي:

الترسيمات	الصّوَر	أشكال توضيحية	أمثلة تطبيقية	الخانات والجداول
5	18	22	5	9

وأردف ذلك بثبت المراجع بالعربية أولاً، ثم باللغات الأجنبية. وتلاه مسرد شامل بالعربية في نهاية المؤلَّف، بالإشارة إلى الرقم الذي يتواجد فيه المصطلح في المتن، فكان عدد المصطلحات 3475 موزّعة كما يلي:

الألف	الباء	التاء	الثاء	الجيم
411	114	432	16	66
الحاء	الخاء	الدال	الذال	الراء
137	66	69	14	87
الزاي	السين	الشين	الصاد	الضاد
28	97	97	123	28
الطاء	الظاء	العين	الغين	الفاء
60	8	170	32	140
القاف	الكاف	اللام	الميم	النون
128	77	17	755	148
الهاء	الواو	الياء	المجمـــوع	
30	87	4	3475	

وأما المؤلِّف، فهو **محمود إبراقن** المتكوّن في جامعات ثلاث عريقة: الجزائر، فاس، باريس، فهو متعدّد الجنسيات علمياً، يستعمل القبائلية بمهارة، ويتقن العربية والفرنسية، كتابة وتوظيفاً، فهذا غناء لغوي وعلمي جيّد، وصاحب مؤلفات في السينما والتحليل السيميولوجي، له خبرة طويلة في مهنة التدريس في جامعات الجزائر وبنغازي، وقدّم أبحاثاً كثيرة، منها المنشورة، ومنها المخطوطة، وله إسهام متميّز في الإنتاج السمعي البصري،

شارك في مجموعة من الملتقيات الوطنية والدولية، وتخرّج من مدرسته مجموعة من طلاب الليسانس والماجستير، والآن أستاذ في معهد الإعلام والاتّصال بجامعة الجزائر.

ثانياً: الدراسة التحليلية النقدية: وتتطلّب مني العملية ذكر دواعي وضع معجم في مصطلحات الإعلام، وهي كثيرة، ويمكن الإشارة إلى بعضها:

- التزايد الكبير في عدد المصطلحات الإعلامية.
- وجود كثير من المعجمات وجلّها أعمال فردية.
- تعاظم أثر المعلومات في حياتنا اليومية.
- خدمة مجتمع معاصر يسعى ليكون معلوماتياً.
- إيجاد معجم معتمد لدى الجامعات والمؤسّسات البحثية ومؤسّسات الإعلام...

ومن هنا فإنّه تسجّل على المعجم كثير من المحاسن، ويمكن التركيز على:

1. اختيار المادة: إنّ اختيار البحث في لغة الإعلام كان اختياراً صائباً، وهذا لعدّة اعتبارات:

- **سدّ نقص التأليف في المصطلح الإعلامي:** لا أعرف إنتاجاً كبيراً في هذا الميدان باللغة العربية اللهمّ بعض الاجتهادات والأعمال، مثل المعجم الموحّد لمصطلحات الإعلام في المسرح والسينما والإذاعة والتلفزة والإعلان وسائر المجالات الإعلامية (إنجليزي_عربي_ فرنسي) الذي

أصدره مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) سنة 1999م، تحت رقم 23، وطبع في الدار البيضاء بمطبعة النجاح الجديدة، والذي يحوي على 3183 لفظة. فقد كان مشروعاً في السابق؛ حيث عرض في ندوة عقدت في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1994 وشرّفني المكتب بعضوية إقرار تلك المصطلحات في مؤتمره التعريب الثامن والتاسع بمراكش 1998م. كما أعرف أنّ الأستاذ محمد رشاد الحمزاوي سبق له وأن قدّم في الثمانينيات من القرن الماضي مدوّنة كبيرة من الألفاظ ذات العلاقة بالميدان، إلى المنظمة العالمية للبريد والمواصلات الكائن مقرّه في جنيف، واعتمد مدوّنته البنك العالمي للمعطيات بقرصوقيا.

- **حسن اختيار التأليف في لغة الإعلام:** إنّ الحديث عن وسائل الإعلام يتبادر إلى ذهننا لغة الصِحافة والإذاعة والتِلفاز ووسائل الاتّصال الأخرى مثل: الإشهار والهاتف والسينما والمسرح والمعلوميات والموسيقى والفيديو... وهذا هو المنبع الذي صبّ المؤلِّف مصطلحاتِه. فكان الاختيار صائباً، كما أنّ تطرّقه إلى مصادر اللغة الإعلامية ومصطلحاتِها التي لها وقعها المتميّز في التأثير على المستمع أو القارئ، وهي السلاح الرابع، فكان الاختيار فذاً؛ وهذا باعتبار أنّه مسّ ميداناً معاصراً له وقعه الخاص في الحياة الوظيفية للمواطن البسيط، وللمتعلم، حيث إنّ لغته تصاغ بكيفية خاصة، تحمل صوراً من الأداء اللغوي البسيط، تميل إلى الإيجاز والتلميح وشدّ المستمع، كما تعمل على إغناء اللغة بقوالب سريعة وانزياحات متتالية، تؤدّي أحياناً إلى كسر قواعد اللغة، فهنا يحصل أن ينادي الصفويون

بمحاربة هذه اللغة. وكوني مدافعاً عن لغة الإعلام[1] أعجبت باختياره هذا الميدان، وبلغة هذا العمل، فمستواه راقٍ جداً جداً، ولا لبسّ فيه، لغته واضحة فصيحة، تراعي انتحاء السِّمت اللغوي حتى في الحدّ الأدنى من استعمال الجمل البسيطة أو المركّبة، وتفضّل اللفظ السهل اليسير على المعقّد، واللفظ المألوف على الوحشي وتتجنّب الكلمات غير الضرورية، وتستعمل التنوّع في التعبير حتى تبلغ القصد.

2. إجادة البحث في الصناعة المعجمية: إنّ صناعة المعجم Lexicologie تشمل على خطوات أساسية خمس وهي: جمع المعلومات والحقائق، واختيار المداخل، وترتيبها طبقاً لنظام معيّن، وكتابة المواد، ثم نشر النتاج النهائي[2]". وهذا ما كان يعتمده صاحبنا في عمله، حتى لمست الاتّجاه الصناعي مصحوباً بالاتّجاه التعليمي من خلال:

- الإحاطة بالصناعة التي يتطلّبها الميدان؛ من حيث الترتيب والشرح والتوضيح والتنظيم.
- الإحاطة بالمعنى الغامض لاستجلائه وتفسيره.
- الإحاطة بمختلف السياقات التي يتطلّبها المصطلح.
- الاتّساق في المفهوم.

---

[1]. صالح بلعيد "دفاعاً عن لغة الإعلام" مجلة المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر: 2004، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية (ندوة دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها) ص 126.107.

[2]. على القاسمي، علم اللغة وصناعة المعاجم، ط 3.1. بيروت: 2004.1975، مكتبة لبنان، ص 3.

– التنبيه على ما فيه من متعلّقات.

– سهولة المسلك (الاستعمال).

– توثيق المواد.

3. ضبط الرصيد المصطلحاتي المعاصر: إنّ العمل يستهدف الرصيد الآني لمصطلحات الإعلام، فالمعجم الناجح هو الذي يتبنّى المصطلحات الحديثة، ويتبعها بتعاريف دقيقة، تستند إلى مناهج مناسبة؛ بحيث لا يحتاج مستعملُه إلى معجم آخر لإتمام تعريفاته، ويتميّز بالشمول، والمساواة، والدقّة، والتمايز. وعمل كهذا ليس بسيطاً، لأنّه يدخل في تأليف المعاجم التعليمية، يأتي بعد جهد جهيد؛ حيث تتحصّل جمع المادة ثم تُلخّص، باستهداف فئة معيّنة، فمن الصعب عندما تكون هذه الفئة كبيرة، وغير محدّدة تفصيلياً الإحاطة الشاملة بكلّ مصطلحاتها. كما نلمس في العمل ظاهرة حسنة، وهي ظاهرة التجديد الذي نجدها في المعاجم الغربية، ويتمثّل ذلك في استعمال التهميش والإحالات في المتن، وهذا ما لا تفتقر إليه المعاجم العربية القديمة والحديثة. كما أن المعجمي محمود إبراقن لم يتأثّر بالخطوات الأربع التي سار عليها المعجم العربي، وهي: خطوة الجمع **أولاً** (جمع الشعر والحديث)، وخطوة الترتيب للمادة المجموعة **ثانية ن** وخطوة ترتيب تلك المادة في كتيبات **ثالثة**، بل صبّ جهده في الخطوة الحديثة **الرابعة**، وهي التأليف في حقول معيّنة، والتي تنشدها المعاجم الحديثة، بغية توحيد المصطلحات، ومن هنا فإنّ العمل ليس من المختصرات التي قضت على الأمات، بل معجم ثري يُراد منها الجودة والإتيان بالجديد؛ يعكس الانشغال البيداغوجي في السير على منهاج المحدثين، وخاصة علم صناعة

المعاجم كما هو عند الغرب؛ حيث يبتعد عن نقل الركام المعرفي من جيل إلى جيل دون إضافة.

4. اختيار العنوان: لقد جارى صاحب الكتاب القدامى في تسميته عمله **المبرق**؛ فهو من اللمعان أو الشيء الذي يبرق ويشعّ ويسرع، وحتى مشتقاته فإنّها تدور في هذا الحقل المنير، المبراق: Télégraphe إبراق: Télégraphie. كما أنّ إپروراق/ ثپروراقث في القبائلية تعني دويدة تسير ليلاً فوق الحشيش، يشعّ منها اللمعان، فلا شكّ أنّ اختيار العنوان كان مقصوداً وصائباً. وخلال هذه الدراسة البسيطة بدت لي ملامح بعض المعاجم القديمة، وكأنّي أطالع المصباح المنير، أو مختار الصِحاح، أو العباب، أو البارع، أو التهذيب، وكلّها تحرص على الدقّة والتثبّت، كما تمثّلت لي التسمية في مؤلّفات العتيبة للعتبي، أو الموازية لمحمد بن المواز، أو البستان للبستاني، أو البوعنانية للبوعناني، إلا أنّ المتن في المبرق يحمل جديداً عكس ما نجده في المعاجم السالفة الذكر، وهذا شيء طبيعي، يعود إلى عامل الزمن. فأجده لا يستطيع التخلّص من إنيّته التراثية، متأثراً بسجع العناوين، لكنّ عمله يحمل مادة علمية معاصرة فقد جمع بين الأصالة والتراث. والأصالة بمفهومها الحقيقي، هو من لم يكن صورة طبق الأصل لغيره، فنجد محمود إبراقن أصيلاً مؤصّلاً ينشد التأصّل والجودة والكمال، فأنْعِمْ بها من أصالة!

وإنّ هذه المحاسن الكثيرة والتي لا يمكن إغفالها، بل ذكرنا جلّها، لا تمنع ظهور هنات بسيطة يجدر بي الحديث عنها رغبة في التقويم وهو أول طريق إلى التحسين. وسوف أطرح مجموعة من الأسئلة التقويمية، وأجيب

عنها بالرجوع إلى الدراسات المعجمية المتخصّصة، وأخلص من وراء كلّ سؤال إلى تقويم وتقييم الكتاب.

أيّها الحضور الكرام. في هذا اليوم المبارك أجدني ينطبق عليّ قول الخليل بن أحمد القائل: **إذا رأيتُ من هو أعلى مني فذاك يوم استفادتي، وإذا رأيتُ من هو دوني في العلم فذاك يوم إفادتي، فإذا رأيتُ من هو مثلي في العلم فذاك يوم مذاكرتي، وإذا لم أر أحداً من هؤلاء فذاك يوم مصيبتي.** ولا شكّ أنّ هذا اليوم يوم **استفادتي وإفادتي ومذاكرتي**، حيث حضرت الفئات الثلاث. ويسعدني أن أقدّم مقاربة أولية في العمل الذي أمامي، وأرجو من زميلي محمود أن يأخذها بحسن نيّة، ويغفر لي تجاوزي مسبقاً.

1. ما الفئة التي يستهدفها هذا العمل؟ إنّ عدم التحديد الدقيق في المقدّمة لكثير من القضايا، نلمس من خلالها سوء تقدير الفئة المستفيدة، فإذا نظرتَ إلى المداخل، تلمسُ استهدافَ فئة الذين لم يكن لهم نصيب معتبر في اللغة العربية، ولهم إلمام جيّد بالفرنسية، وهذا وضع لغوي يُعرف في المجتمع الجزائري، وكأنّ المعجم موجّه لغير المعرّبين، حيث استبقى على المختصرات باللغة الفرنسية، وكان المنطلق منها، وعدّ الأساس، ولكن من جهة أخرى نال المصطلح المعرّب حصة الأسد وكأنّه موجّه للمعربين، على اعتبار أنّ اللغة العربية تفتقر إلى المصطلحات في هذا المجال، كما تشتكي عدم توحيدها، فتقدير الفئة كما وردت في المقدّمة ليست واضحة في المتن، فهذا تناقض يجدر بصاحب العمل إعادة النظر فيه. والأحقّ في هذا العمل أن نقلّص المدوّنة، وعند ذلك نستهدف الفئة التي تستفيد من هذا العمل، وبذلك تحدث العلاقة والاستجابة بين المرسل والمستقبل في صورة

إيجابية دون تشويش. كما لمست بعض اللّبس في مقدّمة العمل، حيث يبدو لي أنّ القاموس كان جاهزاً منذ مدة، على اعتبار التقديم الذي خصّه الأستاذ زهير إحدادن، يعود إلى سنة 1999م، وتقدّم لاستحقاق جائزة اللغة العربية سنة 2001م، ويحتمل هذا قراءات متنوّعة؛ منها عدم تحيين مادة المتن، ومنها غياب منهجية المصطلحية الحديثة، ومنها عدم الإطلاع على آخر ما استجد في الصناعة المعجمية في الغرب أو في المدارس المعجمية العربية...

2. ما هي المنهجية المعتمدة في وضع المصطلحات؟ إنّ المقدمة تخلو من ذكر الطريقة التي اعتُمدت في وضع المصطلحات، وبدا لي أنّ الطريقة الطاغية هل **الترجمة،** وهذا الأمر قد أختلف فيه مع الأستاذ حيث إنّ هذه الطريقة لا يُلتجأ إليها إلا بعد النظر في قضية الاشتقاق، والنّحت، والتركيب، والتعريب، ومراعاة مختلف الجواب العلمية التي تتطلّبها هذه العملية، واللغة العربية أوسع من أن نضيقها في الترجمة، ثمّ إنّ السلف والمعاصرين عملوا في هذا المجال فأبدع الكثير منهم، فلمَ نلتجئ إلى الترجمة دون المرور على القنوات الأولى. وكأنّي بالأستاذ لم ينظر في مسألة القرارات العلمية التي نصّت عليها مختلف المؤسّسات العربية في هذا المجال، وعلى وجه الخصوص مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمنهجية العلمية التي يعتمدها مكتب تنسيق التعريب في هذا المجال. وهناك منهجية علمية حديثة تعمل بها كلّ المؤسّسات المصطلحية في العالم العربي، وهي منهجية توحيد وضع المصطلحات التي أقرّت في ندوة الرباط عام 1984. وهذه المنهجية هي التي أُخذت مرجعية علمية توضع بها العلوم الإنسانية

والعلمية، وخاصة المصطلحات الموحّدة الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب، والمجامع اللغوية العربية.

3. هل العنوان مناسب لهذا العمل؟ "المبرق" قاموس موسوعي للإعلام والاتّصال فرنسي_عربي. لديّ تحفظان على هذا العنوان، أولّهما استعماله لمصطلحي **(القاموس)** و**(الموسوعة)**. فالقاموس في عُرف المختصّين هو: من قَمَسَ تعني الغوص. القموس: بئر عميقة تغيب فيها الدلاء من كثرة مائها. معظم ماء البحر، ويقابله Dictionnaire فهو صحيح في الفرنسية، وغير صحيح في الترجمة العربية. وفي العادة فإنّ القاموس يطرح قضايا:

- شرح المعنى (الحدود).
- علاقة المعنى بالنّحو والصرف.
- إعطاء المرادف أو التضاد أو المشترك اللفظي...

وهكذا كان الحال بالنسبة للقاموس المحيط للفيروز آبادي الذي استعمل مصطلح القاموس، فهو يقدّم المداخل مصحوبة بمعلومات تخصّ النطق والاشتقاق والمرادفات والأضداد والتعاريف...

وأمّا المعجم **الموسوعي**، فيبدو لي أنّ المؤلّف قصد منها الحجم لا المتن، لأنّ المعجم الموسوعي لا يلتفت إلى التركيبة اللغوية للكلمة، بل يتوجّه إلى تحديد العناصر المعرفية المتعلّقة بوجود الشيء الذي ترجع إليه، فهو يقدّم مجموعة من المعلومات التي تهدف إلى تطوير المستوى الثقافي عند القارئ، ويعمل على تنمية الثقافة المعرفية والحضارية، وتصل إلى أبعاد

المعرفة والثقافة على وجه الخصوص، ولا يستهدف فئة معيّنة، كما لا نجد إطلاق مصطلح الموسوعة على هذه الأعمال إلا بتوفّر الشروط التالية:

- الموسوعة عمل جماعي.
- الموسوعة لها حجم متميّز وكبير جداً عن المعاجم والقواميس.
- الموسوعة لا تماثلها إلا دوائر المعارف.
- الموسوعة لا تقوم بها إلا المؤسّسات.
- الموسوعة عمل دائم، ويأخذ عمل الأجيال السالفة واللاحقة، فهي مفتوحة.
- الموسوعة من شروطها الشمول والاتّساع بمعناهما المفتوح مكانياً وزمانياً.
- الموسوعة عمل ثقافي حضاري لا تستهدف فئة محصورة.

إذن هل العمل **قاموس أو موسوعة أو معجم؟** نعرف أنّ هناك فرقاً بين هذه المصطلحات، فالقاموس سبق أن رأيناها غير صحيحة، وكذلك الموسوعة، وأما **المعجم** فتنطبق عليه؛ حيث المخزون المفرداتي الذي يمثّل جزءاً من قدرة المتكلم/المستمع اللغوية، في مقابل Lexique ويقتصر على إدراج مجموعة محصورة من المصطلحات التي تنتمي إلى **حقل معرفي محدّد**، ولا تكون مصحوبة بالمعلومات التي نجدها في القاموس، وفي هذا المجل يمكن الاحتجاج بقول المتخصصة ليلى المسعودي التي ترى أنّ بين القاموس والمعجم فرق؛ **فالقاموس:** هو الصناعة التي تتوق إلى حصر لائحة المفردات ومعانيها، يستعمل "للدلالة على كلّ كتاب أو تأليف له

هدف تربوي وثقافي، ويجمع بين دفتيه قائمة من الوحدات المعجمية (المداخل) التي تحقّق وجودها بالفعل في لسان من الألسنة، ويخضعها لترتيب وشرح معيّنين ويقابله Dictionnaire ويتعلّق الأمر فيه بالأمور اللغوية. أما **المعجم** يطلق على المجموع المفترض واللامحدود من الوحدات المعجمية التي تمتلكها جماعة لغوية معيّنة بكامل أفرادها بفعل القدرة التوليدية الهائلة للغة[1]". ويتعلّق بكلّ الشروح التي تتناول الحقل المعيّن. كما لا يدرج المؤلّف في الملفظة Vocabulaire والتي تمتاز بإعطاء إحصاء دقيق لتواتر الألفاظ في مدوّنة Corpus بعينها، أو المِلسنة Glossaire وينحصر دورها في ترجمة الألفاظ الغريبة أو النادرة[2]. فالعمل الذي بيننا **معجم** للإعلام والاتّصال؛ وليس قاموساً ولا معجماً موسوعياً. وتجدر إعادة النظر في المقابلين العربي والفرنسي، فلا يقابل المعجم Dictionnaire بل يقابله Lexique لأنّه لا يطرح مشكل المعنى وعلاقته بالنّحو والصرف، إنّما يطرح انعكاس هذا المعنى على مستوى الحياة الاجتماعية والبراغماتية، وبالتالي العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاجتماعي، ودارسة المفردات هي دراسة المجتمع، فالمعجمية تتناول اللغة كظاهرة اجتماعية، وبالتالي لا تدرس المجتمع لذاتها، وإنّما تدرسه لتفسير المجتمع، ويقول جورج ماطوري G –Matoré المفردات اللغوية "ليست مجموعة من الكلمات فحسب، بل

---

[1]. عباس الصوري "في الممارسة المعجمية للمتن اللغوي" مجلة اللسان العربي. الرباط: 1998، مكتب تنسيق التعريب، الجزء 45، ص 9.

[2]. ليلى المسعودي "ملاحظات حول معجم اللسانيات" مجلة اللسان العربي. الرباط: 1991، مكتب تنسيق التعريب العدد 35، ص 209.

إنّها تؤدّي أفكاراً وعواطف، وتعبّر عن وجود أحداث ملموسة وعن أشياء[1]". كما أنّ "المعجم في اللسانيات الحديثة يعني معنيين؛ **المعنى العام**، وهو مجموع الوحدات المعجمية التي تكوّن لغة جماعة لغوية ما، تتكلّم لغة طبيعية واحدة... والقابلة للاستعمال بين أفراد الجماعة اللغوية... **والمعنى الخاص** هو: مدوّنة Corpus المفردات المعجمية في كتاب مرتّبة ومعرّفة بنوع من الترتيب والتصريف، وقد تكون المفردات المدوّنة مفردات مؤلّف من المؤلّفين (مثل معجم الجاحظ أو معجم ابن خلدون) أو مفردات اللغة في فترة من فترات حياتها (مثل معجم عربية القرن الثالث الهجري)[2]". كما نعلم أنّ مصطلح **المعجم** أصبح قاراً في الدراسات المعجمية العربية، رغم الخلاف أو عدم التمييز بين المصطلحين عند غير المختصّين.

4. هل يفي المعجم بالشروط العامة والمتداولة لدى المختصّين في مجال الصناعة المعجمية؟ إن الصناعة المعجمية تعتمد على المعجم، ولكنّهما ليسا شيئاً واحداً، فعلم المعجم Lexicographie يهتمّ بدراسة المفردات ومعانيها في لغة واحدة، أو في عدد من اللغات، ويهتمّ باشتقاق الألفاظ وأبنيتها ودِلالتها المعنوية والإعرابية والتعابير الاصطلاحية والمترادفات، وتعدّد المعاني. وأما الصناعة فهي الطريقة أو المنهجية التي تعتمد في وضع المعجم، من حيث: **الإيجاز، والدقّة، وسهولة التفسير،**

---

[1]. ع/ حلاّم الجيلالي "المعجم العربي بين المدارسية والنظرياتية" مجلة المعجمية. تونس: 1994.1993، العددان: 10.9.

[2]. إبراهيم بن مراد "مقدمة لنظرية المعجم؟ مجلة المعجمية. تونس: 1994.1993، العددان: 10.9، ص 30.29.

والضبط، ووثوق الصلة بالموضوع، والكمال، والوضوح، كما أنّ الصناعة تحتاج إلى العقل المبتكر، وإلى الأيدي المنتجة في الطباعة والنشر والتوزيع، وإلى ما يلزم هذه الأعمال من أمور؛ كدراسة السوق لتحديد المستهلك الذي يوجّه إليه الإنتاج. ولكن هناك بعض الفروق يجب التنبيه عليها، فعلينا التمييز بين Lexicologie ويعني البحث في الوحدات المعجمية من حيث مكوّناتها، وأصولها، وتوليدها، ودلالاتها، وبين Lexicographie ويعني البحث في الوحدات المعجمية من حيث هي مداخل معجمية Entrées lexicales تجمع من مصادر ومن مستويات لغوية ما، ومن حيث هي مادة كتاب قد أُلّف بحسب منهج في الترتيب والتعريف المعيّن، فنجد صاحبنا أحسن صنعاً، وبذل جهداً كبيراً لأن يضع عمله في Lexicographie، وكأنّي به رشاد الحمزاوي، أو محمد الخولي، المعروفين بجديتهما في رسم المعالم الكبرى للمعجم، سعياً وراء نظرية معجمية تعمل على تجميع الوحدات اللغوية من متون الكتب وغيرها، ثمّ ترتّبها ترتيباً صناعياً بمراعاة الأبجدية أو غيرها، وإرفاق كلّ وحدة لغوية بمعلومات عنها تتضمّن معناها أو معانيها بما يتيسّر وكيفما تيسّر. والغريب في الأمر، لم نجد محمود إبراقن ينشد **نظرية معجمية معيّنة يضع فيها معجمه**، ولم يعتمد إطاراً نظرياً أو مدرسياً خاصاً، بل سار سيراً عفوياً في هذا المجال، حيث يعدّ المداخل وما يقابلها من اللغة العربية عن طريق الترجمة أو التعريب، دون الالتزام بخطّة أو نظرية غربية أو عربية يفصح عنها سلفاً. وإن الأمور العصرية لا تترك البحث يسير دون منهج، ولا دون تخطيط، ولا مجال للصُدف في الصناعة المعجمية، وكلّ نقيصة تؤدّي إلى الحدّ من قيمة العمل. كما لا نجده يعتمد الاجتهادات المتميّزة في تونس

على يد الجمعية المعجمية التونسية، والاجتهادات الكبيرة التي ظهرت في المغرب على يدّ شباب علماء لهم منتوج علمي متميّز عن الغرب، وهذا ما نلمسه في مقاربات الفاسي الفهري، وليلى المسعودي، وعبد الرزاق التورابي، والسغروشي، ومحمد مفتاح، ومحمد غاليم، وفي الجزائر على يدّ المعجمي حلاّم الجلالي وغيره من الشباب الطافح... وما يلاحظ على المعجم تجاهله التامّ لما استجدّ في العالم العربي من مدارس معجمية، واجتهادات حديثة تضاهي المدارس الغربية، فالمعجم ينبض ويفكر وينظر بمنظار اللغة الفرنسية لا غير. وإذا تجاوزنا اجتهادات الأفراد نأتي على الأعمال الجادة التي تقوم بها المؤسّسات، وعلى وجه الخصوص تلك الأعمال العلمية في وضع المصطلحات المقدّمة من معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، دون أن ننسى أنّ بالمغرب الشقيق مؤسّسةً خاصة بهذا الاختصاص؛ وهي معهد الدراسات الاصطلاحية بفاس. وإنّ هاتين المؤسّستين قدّمتا شيئاً كبيرًا للمصطلح في اللسان العربي. كما استغربت الأمر وأنا أتصفّح البيبليوغرافية فلم أعثر على تلك المشاريع أو الأعمال المنجزة في المعجم أو الصناعة المعجمية المقدّمة في مجلة اللسان العربي، التي تجاوز عددها الخمسة والخمسين جزءاً. فما أحوجنا إلى الاستشارة واعتماد البضاعة المحلية إن كانت ذات جودة، وما أحوجنا إلى تنزيل الناس منازلهم، وعمل كهذا جهد متميّز وجيّد، ولو توسّعت الاستشارة فيه لكان أجود مما هو عليه، ولكن هذه طبيعة الأمور، فكلّما تعيد النظر في عمل من الأعمال إلا وتجد قول الاصفهاني: لو أنّني عملت كذا وكذا لكان أفضل، لو أضفت لكان أجمل، لو عدّلت لكان أجمل، وتلك سمة النقص في البشر.

5. هل يغطّي المعجم مختلف المجالات؟ حاول المعجم الإلمام بمختلف المصطلحات التي تدور في كلّ وسائل الإعلام المسموع والمكتوب، في معناها الواسع، فنجد نوعاً من الشمولية، وتغطيةَ ما له علاقة بالمجالات الفرعية الخاصة بالإعلام (سبعة عشر مجالاً)، أضف إلى هذا تعرّضه إلى تطوّر المصطلح وكيفية ظهوره، والحديث عن مختلف المدارس الإعلامية. فلم يقتصر المعجم على إعطاء المقابل العربي، بل ذهب بعيداً في توضيح مصطلحات الإعلام، وما يتعلّق بها من التطوّرات الحاصلة عليها، ولا يخفى ما لهذه العملية من أهمية كبيرة لعملية الإعلام. ولكن هذا الشمول جعله لم يُحَط إحاطةً تامّة بكلّ المداخل التي يحتاجها كلّ حقل، ونعذره في هذا لأنّ العمل يحتاج إلى بذل جهد أكبر، وإلى فِرَق عمل من مختلف الاختصاصات. ولكن الذي لم يُشفِ غليلي في هذا المجال هو اعتمادُه المعجم الموحّد لمصطلحات الإعلام في المسرح والسينما والإذاعة والتلفزة والإعلان وسائر المجالات الإعلامية (ثلاثي اللغات) الصادر عن مكتب تنسيق التعريب، ونجد فيه كثيراً من مصطلحات الإعلام قد تجاهلها، فهل هذا سهو أم قصد؟ ويمكن أن نعطي عيّنة لذلك: الإيثارية/ الثريا/ التجريس/ الماجريات/ الخطيفة/ استرعى السمع/ الزبدية/ التسكير/ المسوّغات/ شطب الكلمة/ الصباحية/ المظان/ العنابر/ المغناة/ المقصف/ الإكرامية/ المقطوعية/ التلاشي/ المزّة/ انهزامي/ المهرق/ اليانصيب/ الميتم... كما أنّ المعجم الموحّد ذكر مجموعة من التعابير والمسكوكات اللغوية التي تتداول في لغة الصحافة، وابتعد عنها هذا المعجم، ويمكن أن يعذر لسببين:

أولاً: إنّ المادة الأصلية التي اعتمدها المعجم هي الفرنسية، وما لا يوجد في الفرنسية لا يمكن ذكره في القسم العربي. **وثانياً:** دراسته للألفاظ المفردة؛ أي للمصطلحات، دون غيرها من الألفاظ والأساليب التي يستعملها الصِحافي في لغته اليومية، عبر مختلف وسائل الاتّصال.

وإنّ إهمال هذا الجانب قد أسبغ على المعجم بعض التضييق في المدوّنة، وفي عدم مسايرة الوضع اللغوي المعاصر، ويبدو لي أنّ ممّا تشتكي منه العربية في وقتنا الحاضر، لا يبقى رهن اللفظ المفرد، بل يطرح بحدّة على مستوى التراكيب، واللغة اليومية التي يستعملها الصِحافي وتتغيّر بشكل مطّرد. فما أحوجنا مرة أخرى إلى أمثال هذه الألفاظ: أبعاد المسألة/ أتى على الأخضر واليابس/ احتجّ على كذا/ أحيل على التقاعد: أخذ المبادرة/ أخرج الرواية/ أدب ملتزم/ استدعى على جناح السرعة/ استقلال ناجز/ أشربة روحية/ أصاب عصفورين بحجر واحد/ اصطاد في الماء العكر/ أغرق التاجر السوق/ أكثرية مطلقة/ إلى الملتقى/ انتهاك صارخ للحرم الجامعي/ انسحب من المجلس/ بالنظر إلى هذا/ تبلوَرت الفكرة/ تبنّت الحكومة المشروع/ تجميد الأرصدة/ تجاوب معه في الرأي/ ترتيبات فورية/ ترجم لفلان/ تزعّم الوفد/ تعبير عفوي/ تغطية الحادث/ تفرّج على الشيء/ توتّرت العلاقة/ يتمتّع بالحصانة النيابية/ توتّرت العلاقة بينهم/ توحيد النمط في الإنتاج... وهذه المسكوكات من التعابير هي من المصطلحات الحديثة الموجودة بالقوة في لغة الإعلام، ويوجد مثيلها في الفرنسية، ولم نجدها في المعجم.

6. هل التَزَم المعجم بقواعد الضبط المصطلحي؟ أقصد النظرة العلمية والمناهج الإجرائية بمراعاة: مبدأ الاتّساق الداخلي/ مبدإ التماسك المفهومي/ مبدإ شيوع المصطلح. وفي كلّ هذا فإنّه راعى في كثير من الأحيان مستوى التذوّق الجمالي الفنّي، الذي يستعمل في الأدب والفنّ، والمستوى العلمي النظري التجريدي والذي يستعمل في العلوم، والمستوى الاجتماعي الذي يستخدم في الصِحافة والإعلام. وما يمكن تسجيلُه في هذه النقطة بأنّ صاحبَنا يسير في اتّجاه التجديد مع إدخال تغييرات شكلية لاحتذاء المعاجم الحديثة في اللغات الحيّة، إلا أنّه يعتمد الترجمة في أكثر مصطلحاته، وهذه نقيصة كبرى، فكيف يبتعد عن التعريب وهي العملية التي اعتمدها القدامى، ولا يلتجأ إلى الترجمة إلا إذا أعجزك البحث عن ارتجال مقابل عربي أو تعريبه، ولا يعني هذا أنّ الوحدات الجديدة لا يمكن تطبيق النظرية عليها، بل كلّ جديد سيصبح قديماً، وكلّ قديم كان جديداً في وقته. ولقد أصبغت هذه العملية على المعجم الوقوع في الخطأ وكلّ هذا راجع إلى عدم تقدير المعطيات التي كان يجب أن تُذكر في مقدّمة العمل لإزالة اللبس مسبقاً؛ حيث يتحدّد الإطار العام الذي يدور فيه المصطلح، والمدرسة التي ينتمي إليها، والنظرية العلمية التي ترفده.

7. هل المصطلحات الواردة في المعجم وافية الدلالة في اللغتين؟ من الصعوبة الإجابة الدقيقة على هذا السؤال، ولكنّي تعمّدت عيّنة بسيطة من المصطلحات التي نظرت فيها، واسترعت انتباهي، فوجدت عدم الدقّة في الترجمة، أو في المقابل الموضوع، وإليكم هذا النموذج:

المصطلح	المقابل في المعجم	المقابل الدقيق

تطبّع ثقافي	Acculturation	المثاقفة
فاكس	Fax	ناسوخ
الدواخل	Modal	Infixes
برمجيات	Logiciel	منطاقيات
نوعية	Hyponymie	اندراج
تصريف	Flexion	إعراب
السلامة النّحوية	Grammaticalité	انتحائية
شرائط الفيديو : سمعي	Cassette	سفطة
جنس حرف/ شكل الحرف	Fonte	نسقة محرف

كما أنّ العمل حفل ببعض النقائص في عملية التعريف، وكأنّي بالأستاذ إبراقن لا يعود إلى الدراسات الحديثة، ففي تعريفه **للقاموس** يقول: هو الكتاب الذي يغطي جلّ مفردات لغة معيّنة، ويمكن أن يكون أحادي اللغة Monolingue (عربي_فرنسي)، أو مزدوج اللغة Bilingue (فرنسي_ عربي)، أو متعدّد اللغات (فرنسي_ إنجليزي_ عربي_ ألماني). فهذا تعريف تقليدي بسيط، بينما تعريف أهل الصناعة يقول: قائمة من وحدات لغوية عرفية متغيّرة، تكمن في أذهان الأفراد من المجموعة اللغوية الواحدة على صورة متكاملة لا يدركها إلا على وجه حدسي تقريبي، أحادي اللغة أو متعدّد، يتناول قضايا النّحو وعلاقتها بالصرف والتضاد والترادف، وما يستتبع ذلك من مفاهيم. كما لمسنا بعض الغموض في بعض المصطلحات مثل مصطلح Instrumental الذي وضع له المقابل العربي

مفعول الوسيلة، وأعطى مثالاً على ذلك: جُرح علي بالسكين. فلقد فسّر الغموض بما هو غامض. كما لاحظت عدم الدقّة في استعمال بعض المصطلحات، ويمكن التمثيل لذلك بمصطلح: Caractère في المعلومات والحروف الطباعية هو المِحرف، ونجده يستعمل الحَرْف. ولمسنا كذلك بعض الأخطاء المطبعية، وسجلنا قلّة توظيف المختصرات باللغة العربية وهي المستهدفة، كما نسعى أن تكون هذه اللغة؛ وهذا ما تنشده لغة الصِحافة، حيث ترتكز على المختصرات، وخاصة في مجال وكالات الأنباء مثلاً. كما لمسنا نقيصة معاصرة وهي عدم توظيفه للحروف الإضافية، وهي: **پ چ ڤ گ ژ** التي نحتاجها في كتابة الإعلام أو في بعض المصطلحات الغربية التي تنهل منها العربية مصطلحاتها، ولقد أوصت المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم باستعمالها.

وإنّ المقام لا يسمح لي بالوقوف عند كلّ هذه الفراغات، والتي يمكن إجمالها في ما يلي:

– الخلط أحياناً بين المواد بين المعني الحقيقي والمعنى المجازي.

– عدم استكمال المادة بكلّ الحقول الدلالية، بل وقع الاقتصار على ما هو بدهي.

– عدم التفرقة أحياناً بين الصفة والاسم، بين الاسم والفعل، بين الصفات والأفعال في التعريف؛ حيث لا يقع التمييز في الترجمة.

– إغفال كثير من صيغ الأفعال، وهي التي تتطلّبها لغة الصِحافة باعتبارها لغة جوارية تجري وتستعمل في مختلف المناسبات والمقامات.

– الغموض أحياناً في التعريف وبعض الحشو.

– إهمال القيمة الاستعمالية في بعض المصطلحات، كأن نؤكّد اللفظ المستعمل، ونمرّ على اللفظ التاريخي مروراً.

– تكرار بعض المصطلحات، وذلك بورودها في صيغة المفرد وصيغة الجمع...

ومن وراء هذا فإنّ المعجم الذي ننشده هو الذي يحمل وظيفة التربية والتثقيف، ينجز باستراتيجية محكمة، ومن أجل ذهنية معجمية ثابتة، يربط الصلة بين مخزوننا الثقافي الماضي والموجود بالقوّة في الحاضر، فالمعجم المطلوب في نظري ليس مُتحفاً قديماً تتراكم فيه المعلومات كما اتّفق، بل مجموعة من المبادرات والمقاربات التي تحمل رصيداً حضارياً محترماً، بعيداً عن التكرار والتضارب، له غائية تعميم استعمال المصطلحات وتوحيدها، ويعمل على الإضافة والتنويع. كما أنّ الوسائل المعاصرة تتطلّب منّا الخروج من النمطية التقليدية، أي أن ننجز المعجم بناءً على مواصفات المنظّمة العالمية للتقييس ISO وأن يخضع المصطلح للتعيير Standardisation ويوضع في أقراص، وتدخل مصطلحاته بنوك المعلومات وخاصة ونحن في مجتمع المعلوميات ومجتمع المعرفة، فمن الأهميّة بمكان النظر إلى مسألة مصطلح الإعلام من وجهة جديدة، تفرضها التغيّرات العالمية والإقليمية، والتوجّه نحو مجتمع الإعلام، الذي يجب أن يأخذ بعداً متميّزاً عن السابق، خاصة وأنّ الإجراء اللازم لإنجاح عملية توليد المصطلح ورصده وتنسيقه ونشره هي الآن أسهل مما كانت عليه سابقاً، وإنّ اللغة التي لا تدير أو لا تتدبّر العمل في المصطلح هي في طريقها إلى الانحسار.

وأخيراً: إنّ هذه الملحوظات لا تبخس قيمةَ المبرقِ، ولا تقلّل من هذا الجهد الذي تفتخر به الجزائر، ومعهد علوم الإعلام والاتّصال، والصِحافة على وجه الخصوص، ويستحقّ المجلس الأعلى للغة العربية كلّ التقدير، على الجهد البالغ في نشره، ونأمل أن يكون عاملاً لاستقرار المصطلح الإعلامي، للسير قدماً في توحيد لغة الإعلام، كما نتمنّى أن تلحقه طبعة ثانية تعمل على التنقيح والإضافة.

وهذا الصنيع _بكلّ صدق_ فريد في العالم العربي، مجيد في منهجية الوضع، متقن شرحَ المفاهيم، محترم الدلالاتِ اللغويةَ، معجم يشكّل لبنةً في الحركة المعجمية بالجزائر، وفي مجال الترجمة. معجم ويحقّ أن نفخر به، فهو ليس بالمخلّ المعوَز، ولا بالطويل المملّ المعجز، معجم ينشد نظرية معرفية في الإعلام، ويسعى إلى الربط بين التنظير والتطبيق، ويجمع بين الترجمة والتوليد والتعريب. معجم يهدم القديم من أجل البناء الرصين.

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

المدير المسؤول : د. محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

رئيس التحرير : د. مختار نويوات

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها: كالتوثيق..
- أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت – الجزائر العاصمة

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 3575– 1112

الإيداع القانوني: 02 7/20

محتويات العدد

من إصدارات المجلس الأعلى للغة العربية:



المجلس الأعلى للغة العربية

06 شارع فرنكلين روزفلت ،الجزائر

الهاتف : 24/25 07 23 21 213 الفاكس : 07 07 23 21 213

ص ب 575 الجزائر، ديدوش مراد

www.csla.dz